

دراسة

في التاريخ الإسلامي

الدكتور

جمال الدين الشيبان

أستاذ التاريخ الإسلامي

مكتبة الثقافة الدينية

اهداءات ٢٠٠٠

أسرة د/ جمال الدين الشيال
الإسكندرية

دراسات في التاريخ الاسلامي

دراسات في التاريخ الإسلامي

الدكتور
جمال الدين الشّيبان
أستاذ التاريخ الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر
مكتبة الثقافة الدينية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

مكتبتنا التاريخية العربية مكتبة غنية ، ومؤرخونا العرب لم يتركوا فنا من فنون التأليف التاريخي الا وطرقوه وألفوا فيه ، فكتبوا في التاريخ العام وفي التاريخ الاقليمي ، وفي الخطط وتاريخ المدن ، وفي التاريخ السياسي والاقتصادي والعمراني ، وفي نظم الحكم .

وألفوا في السير الذاتية ، وصنفوا في التراجم ، سواء أكانت تراجم أعيان أو طبقات أو قرون .

ومن المؤرخين العرب من وضع الموسوعات الكبار ذات المجلدات العديدة ، ومنهم من كتب الرسائل الصغيرة ، ومنهم من جمع بين هذه الطريقة وتلك .

والمؤرخون المحدثون - من شرقيين وغربيين - يعالجون أحيانا بعض الموضوعات الجديدة أو الطريفة في أبحاث ومقالات صغيرة هي أشبه ما تكون بالرسائل الصغرى التي كان يتناول فيها المؤرخون القدامى موضوعات من نفس النوع ، وينشرون هذه البحوث والمقالات في المجلات العلمية التي لم تكن معروفة في العصور السالفة .

وبعض هؤلاء المؤرخين يعود فينشر هذه المقالات - كلما تجمعت لديه حصيلة منها - في كتاب واحد أو في عدة كتب ، حفاظا عليها من الضياع وسط العديد من مجلدات المجلات ذوات السنوات المتباعدة ، ولتكون أيسر

منالا للقارىء، وسجلا لرصد التطور الفكري والاتجاهات العلمية لكاتبها .

وأنا - في هذا الكتاب - أسير على نفس الدرب ، فقد تجمعت لدي عشرون مقالة سبق أن نشرتها خلال العشرين سنة الماضية في مجلات : كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، والجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، والمقتطف والثقافة ، والرسالة وغيرها ، أو أذعتها في الإذاعة المحلية لمدينة الاسكندرية وقد نصحتني نفر من أصدقائي الكرام وتلاميذي النجباء أن أجمع هذه الحصيلة في كتاب ، خوفا عليها من الضياع ، وليسهل الرجوع اليها والافادة منها ، فلم أملك إلا أن استجيب لنصحهم شاكرًا لهم حسن ظنهم في هذا الجهد المتواضع .

وموضوعات هذا الكتاب قد جذبتني إليها - حين كتابتها - لطرافتها أو لجذتها ، وهي وإن اختلفت آفاقها أو ميادينها فانها تجتمع جميعا في فلك واحد هو التاريخ الاسلامي .

ففي بعضها تصوير للنواحي الإنسانية المشرقة في حياة النبي محمد - صلاة الله عليه وسلامه .

وفي بعضها صور حية لعدد من الشخصيات العربية التي لم تلحقها من الدراسة كتاج الملوك بوري أخي صلاح الدين الذي مات في عنفوان شبابه ، وشاعر دمشق في العصر الأيوبي والهجاء الأكبر ابن عنين ، وناطقة الرياضيات في عصر محمد علي بيومي افندي ، وكبير الجراحين في نفس العصر الدكتور إبراهيم النبراوي .

وفي مجموعة ثالثة من هذه المقالات صور من الحياة الاجتماعية ومظاهر العمران والحضارة الإسلامية ، كاحتفال بوفاء النيل ، وموسم عاشوراء ، وعيد الضحى في التاريخ ، ومظاهرة النساء في العصر الفاطمي ، وتكوين الشعب المصري الجديد بعد الفتح العربي ، وتأسيس مدينة القسطنطينية .

وفي مجموعة رابعة ألوان من الحديث عن بعض نظم الحكم في العصور الإسلامية، كنظام الوزارة في العصر الفاطمي، وطريقة مسح الأراضي وتقدير الخراج في مصر الإسلامية، والروك الناصري .

وفي مجموعة خامسة دراسات جديدة لبعض العلاقات الاقتصادية والثقافية بين مصر والعالم الخارجي، ومثلها المقال الذي يتحدث عن مصر وطريق الهند في القرن الثامن عشر، والمقال الذي يترجم للدكتور برثون والشيخين محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي .

وفي مجموعة سادسة عرض جديد لبعض النواحي الغامضة من تاريخنا الحربي كالفصل الخاص بالجاوسوسية في حروب بني أيوب والفصل الخاص بمحاولات المماليك فتح جزيرة رودس في القرن الخامس عشر الميلادي .

أما الفصل الأخير من فصول هذا الكتاب ففيه لون جديد من الكتابة التاريخية وهو النقد، ففيه نقد تحليلي لكتاب المؤلفة الأمريكية (إلزي لشتنشتاتر) عن « الإسلام والعصر الحديث » .

وأنا لا أقرظ كتابي، وإنما أقرر حقيقة حين أقول إن هذه الموضوعات - فيما عدا الموضوعين الأول والثاني - كلها جديدة لم يسبق لأحد قبلي أن تناولها بالبحث، ولكنني أقرر مع هذا أنني لم أفعل أكثر من أن كشفت الغطاء ومهدت الطريق، ولا زالت هذه الموضوعات في حاجة إلى مزيد من البحث والاستيفاء - وفوق كل ذي علم عليم .

فإلى الشباب العربي، وإلى المولعين منهم بدراسة النواحي الغامضة أو المشرقة من تاريخنا القومي - بصفة خاصة - أقدم هذا الجهد المتواضع، أرجو أن يجدوا فيه بعض المتعة أو النفع أو الحافز للكشف عن جديد آخر غامض أو مشرق .

والله ولي التوفيق

جمال الدين الشيال

محمد المصلح الثائر^(١) في ذكرى مولده

في مثل هذا اليوم الكريم من كل عام يحتفل المسلمون في أقاصي الأرض وأدانيها بذكرى مولد محمد النبي الكريم -عليه السلام-، وهم إذ يحتفلون بهذه الذكرى المجيدة إنما يحتفلون بخير ما وصلت اليه البشرية من مثل عليا، ومن مبادئ أخلاقية سامية، ولا عجب فهو القائل: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وفيه قال الله سبحانه وتعالى: «ولو كنتَ فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك»، -وقال أيضاً: «وإنك لعلی خلق عظیم».

والكلام عن محمد يوم ذكره لا تتسع له هذه الدقائق القليلة المحدودة، فقد ألفت في سيرته وفي دعوته مئات الكتب، وكل كتاب منها تناول ناحية من نواحي عبقريته، ومع هذا لم يوفها حقها.

ولكننا ونحن نعيش في عصر ثورة - نؤثر أن نعرض على حضراتكم لمحات من حياة محمد المصلح الثائر: كان الاسلام - رسالة محمد إلى البشرية جمعاء -

.....
(١) أذيع هذا الحديث في اذاعة الاسكندرية بمناسبة الاحتفال بمولد النبي عليه الصلاة والسلام.

ثورة من أخطر الثورات التي عرفها التاريخ ، فقد ظهر في مجتمع ضال يؤمن أهله بتعدد الآلهة ، وكانت هذه الآلهة تتمثل في أصنام وأوثان صنعوها بأيديهم ، فهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ومع هذا كانوا يعكفون عليها عابدين . وأعلن محمد ثورته على هذه الآلهة وهذه الأوثان ، ودعا دعوته الجديدة الجريئة ، وكانت خلاصتها الايمان بإله واحد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ولم يكن طريق الدعوة ممهداً أمام محمد ، بل لقد لقي من المقاومة والمعارضة ما كان حرياً أن يبعث غيره من ذوي الهمم الضعيفة على الإقلاع عن دعوته وإيثار السلامة ، ولكن محمداً كان ثائراً ، وكان نبياً ، وكان صاحب رسالة ، وكان ذا إرادة قوية وعزيمة جبارة ، وكانت أبرز صفاته الإيمان ، والايمان القوي برسائلته ، لهذا لم يتراجع ، ولم يضعف أمام المعارضة العنيفة التي قابلته بها قريش ، بل قال لعمه عندما حاول إقناعه بالعدول عن نشر رسالته : « والله يا عمي ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

بدأ محمد يدعو للدين الجديد خفية ، فدعا إليه أصدقاءه المقربين وأهل بيته ، فأمنوا به ، وأخذ يجتمع وإياهم في السر للصلاة والتحدث في أمر دينهم ، ثم خطا خطوة أخرى فدعا الناس جهره ، وبهذه الدعوة العلنية بدأت الثورة وبدأ النضال ، فقد آمن به عدد قليل من أهل مكة ، أما سادة قريش وعظمائها فقد عجبوا لهذه الدعوة ولم يستمعوا إليها ، بل عارضوها وأخذوا يحاربونها ويحاربون الداعي إليها بكل وسيلة من الوسائل الممكنة ، فسعوا لدى عمه ليقتنعه بالعدول عن هذه الدعوة أو أن يرفع عنه حمايته ليكونوا أحراراً في الانتقام منه لآلهتهم ، وحاولوا بعد هذا إغراءه بالمال وبالمنصب وبالجاه ، ثم أغروا به شعراءهم وخطباءهم يهاجمونه ويسفهون آراءه ، ثم اتهموه بالشعر وبالكهانة والسحر ، ثم آذوه وآذوا أصحابه بالسب والضرب والإهانة ؛

ولكن مع هذا لم تلن له قناة ولم تضعف له عزيمة ، بل زادت هذه المعارضة قوة على النضال ، وبدأ يدعو الناس في المجتمعات العامة ، وفي الأسواق ، وفي مواسم الحج .

وبعد بدء الدعوة بعشر سنوات ماتت زوجته خديجة ، ثم مات عمه أبو طالب بعدها بقليل ، وبهذا فقد محمد الرفيق المخلص بفقد زوجته ، وفقد المحامي بفقد عمه ، وفقد أخيراً الأمل في أن تؤمن به قريش .

فقرّ رأيه على الهجرة ، وشجعه عليها أن آمن به بعض أهل المدينة عند اجتماعهم به في موسم الحج ، وعقدوا معه حلفاً ، ووعدوه بالمساعدة إن هو قدم إليهم .

ثم هاجر النبي إلى المدينة ، وتبعه ثمانون من أصحابه الذين آمنوا به ، والهجرة تعتبر حادثاً هاماً في تاريخ الإسلام ، بل لعلها أهم حوادثه ، فقد بدأ النبي بعدها عهداً جديداً ، عهد الدعوة السياسية وتكوين الدولة الجديدة .

كان أول عمل قام به محمد بعد وصوله إلى المدينة أن أصدر «الكتاب» أو «الصحيفة» ، وهو أشبه ما يكون بما نسميه اليوم بالدستور ، فهذا «الكتاب» أو هذه «الصحيفة» هي دستور المدينة الأول ، وأول وأهم ما جاء فيه قوله عليه السلام :

« هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس » .

فهذا أول مبدء من مبادئ الصحيفة ، مبدء الوحدة ، مبدء تكوين أمة واحدة تضم المؤمنين من قريش ويثرب ، أي من المهاجرين والأنصار ، ثم يترك هذا المبدء باب الوحدة مفتوحاً يدخل فيه كل من شاء ممن تبعهم

فلحق بهم وجاهد معهم ، وقد اتسع هذا النص مع الزمن حتى شمل أهل المدينة ، ثم شمل أهل الحجاز ، ثم شمل كل بلاد العرب ، ثم اتسع بعد ذلك حتى شمل كل العالم الإسلامي ، فأصبح المسلمون جميعا يكونون - تحقيقا لهذا النص - أمة واحدة من دون الناس .

وهذا المبدء ثورة أخرى واضحة ضد النظم العربية القديمة ، النظم التي كان عمادها القبيلة ، والتي كانت تجعل القبيلة وحدة مقفلة لا تضم إلا أفرادها ولا ينضم إليها أحد إلا عن طريق الحلف .

هذه الأمة الواحدة القوية المؤمنة هي التي انطلقت بعد عهد النبي تنشر دينه ومبادئه شرقا وغربا ، وهي التي استطاعت أن تدك صروح الامبراطوريتين القويتين : امبراطورية الفرس وامبراطورية الروم ، هذه الانتصارات المتتابة في هذا الوقت الوجيز أثارت انتباه المؤرخين ، وحاولوا تحليلها ، فوضعوا لهذا التعليل فروضا كثيرة ، فقالوا : ان الدافع الأكبر الذي دفع العرب إلى الخروج من بلادهم وغزو البلاد المجاورة إنما يرجع إلى اسباب اقتصادية تتصل بطبيعة بلادهم الصحراوية الفقيرة ، وقالوا : إن الإسلام ثورة لها رسالة ، وقد اندفع العرب لنشر هذه الرسالة . والذي نراه أن العرب إنما انتصروا على الفرس والروم هذه الانتصارات السريعة الحاسمة لأنهم تبدلوا خلقاً جديدا منذ اعتنقوا الاسلام ، لقد بدّل الإسلام نفوسهم ، وقضى على الأوهام التي كانت تخيم عليها مع الوثنية القديمة ، وفرض عليهم عبادات جديدة بسيطة تربط بين قلوبهم ، كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وجعل الأمر فيها بين العبد وربّه ، فاتصلت أرواحهم بالله سبحانه وتعالى ، وكانت هذه العبادات جميعا تهدف إلى الربط بين معتنقيها ليكونوا قوة قوية .

فالسبب الأكبر في انتصارات المسلمين الأولى وانتشار الإسلام هذا الانتشار السريع إنما هو الروح المعنوية القوية التي أوجدها الإسلام في نفوس العرب ،

فالروح المعنوية والإيمان القوي هو دائما الدافع القوي للظفر والانتصار ،
وصاحبه لا يعرف الهزيمة ولا يرضاها ، فان ارتد يوما فانما ليندفع أشد قوة
وأصلب عودا .

وهذا الإيمان القوي هو الغرس الذي غرسه محمد في نفوس أتباعه ، وهو
الجدوة التي لا تنطفئ ، والقبس الذي ينير الطريق أمام المسلمين منذ ظهر
الاسلام إلى اليوم بل وإلى يوم يبعثون .

الناحية الانسانية^(١) في حياة محمد عليه السلام

في هذه الأيام يحتفل المسلمون في أقاصي الأرض وأدانيها بذكرى مولد الرسول محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام . وفي هذه المناسبة الجليلة يحلو الحديث عن سيدنا محمد ، ففي الحديث عنه وعن خلقه الكريم وبطولته الفذة وإنسانيته الفريدة شحذ للهمم الوسنانة وإيقاظ للنفوس المتقاعسة ، وإحياء للأرواح الخاملة ، وبعث للعزمات الغافية .

ومن العسير عليّ أن ألم في حديث قصير كهذا بناحية واحدة من نواحي البطولة في محمد عليه السلام ، فقد كتبت في كل ناحية من هذه النواحي الكتب العديدة ومع هذا لا يزال الباحثون يجدون جديداً لم يُستوفَ في حياة هذا النبي العظيم ، فيكتبون ويستقصون ويؤلفون ، وأحسب أنهم سيظلون دائبين على البحث والاستقصاء لتحليل شخصية محمد وإبراز جوانب العظمة في سيرته ونواحي البطولة في حياته إلى يوم يبعثون .

(١) أذيع هذا الحديث في إذاعة الاسكندرية بمناسبة الاحتفال بمولد النبي عليه الصلاة والسلام .

ولهذا رأيت أن أشير في هذه الدقائق القليلة إلى ناحية واحدة من نواحي البطولة والعظمة في سيرة نبينا الكريم ، ولعلّ أبرز نواحي هذه البطولة هي الناحية الإنسانية ، فمحمد عليه السلام كان حريصاً دائماً على النص على هذه الإنسانية وتأكيدهما في الأذهان ، ففي القرآن الكريم :

« وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » وفيه أيضاً :

« قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » .

ولكنه عليه السلام المثل الكامل للإنسان ، ولا عجب فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وكانت دعوتـه في الدين الجديد - الإسلام - تهدف إلى الارتقاء بالإنسانية إلى المكان اللائق بها والبعد بالإنسان عن مظاهر الرق والضعف والذل والخضوع .

ولم يكن محمد - رغم مكانته - يتعالى على الناس ، بل كان يضرب لهم المثل دائماً في التواضع والرقّة والعطف على الضعيف والمسكين والبر بالفقير والمحتاج ، لقد كان محمد أعظم من الملوك وأجل من الأباطرة والأكاسرة والقيصرة ، ولكنه كان يقول لأصحابه : -

« لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد الله ، فقولوا عبد الله ورسوله » .

وخرج مرة على جماعة من أصحابه فقاموا له فقال : -

« لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعَظَّم بعضهم بعضاً » .

وكان إذا بلغ في مسيره أصحابه جلس منهم حيث انتهت به المجلس ، وكان يبدأ أصحابه بالمصافحة ، وإذا لقي إنساناً بدأه بالسلام ، ولم يكن هذا أسلوبه في حياته العامة وحسب ، بل كان أسلوبه أيضاً في حياته الخاصة ، فقد كان في بيته يطهر ثوبه ويرقعـه بنفسه ، كما كان يحلب شاته ، ويخصف نعله ، ويعقل البعير ، ويخدم نفسه ، ويأكل مع الخادم .

وهكذا كان يضرب محمد المثل الطيب للإنسان في عصره وفي كل العصور كيف يكون إنساناً، وإذا كان الغربيون يتمشدقون بالحديث عن المبادئ التي أسفرت عنها الحضارة الغربية والثورات الغربية من إعلان حقوق الإنسان ، ومن المناذاة بالمبادئ الثلاثة : الحرية والإخاء والمساواة ، فقد سبق محمد بثورته والمبادئ التي رسمها الإسلام هذه الحضارات والثورات الأوروبية بقرون كثيرة .

فقد كان العرب قبل الاسلام يعبدون آلهة عدة، يعبدون أصناماً لا تملك لهم ولا لنفسها ضراً ولا نفعاً ، وجاء محمد بثورته الإسلامية يدعوهم إلى التخلص من هذه الخرافات جميعها ، يدعوهم إلى التحرر من قيود هذه العبادات فلا يعبدون إلا إلهاً واحداً ، هو خالقهم وخالق الناس أجمعين . وإذا كان لكل ثورة قامت في التاريخ فلسفة ورسالة فإن فلسفة الثورة الإسلامية ورسالتها كانت الدعوة إلى الحرية بجميع أنواعها ، وكانت الدعوة إلى الوحدةانية ، فالاسلام دعا الناس إلى التحرر من الخوف فلا أصنام ولا أوثان ولا كهان ، وإنما إله واحد لا شريك له ، أمامه وحده يُسألُ الانسان عما قدّم من خير أو شر .

وأعماله وحدها هي المقياس ، وهي الشفيع ، وضميره وحده هو الذي يحاسبه ويراجعه ، لا سلطان لأحد أو لقوة. عليه ، وهو بعدُ مطالب أن يعتزّ بأنسانيته ، فلا يسمح لأحد أن يهدر كرامته ، أو أن يعتدي عليه ، فأى حرية أكمل من هذه الحرية .

والاسلام يدعو إلى الإخاء والتوَادد والتعاطف والايثار ، وكان محمد عليه السلام في حياته خيرَ مثال لهذه المبادئ جميعاً ، فكان يسارع إلى مساعدة الضعيف ومعاونة البائس والمُسكين . وإذا رأى أحداً في حاجة آثره على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة . وكان محمد في كل حياته برّاً رحيماً ، يعود المريض ويرعى المرأة ، ويحذب على الأطفال ، فكان يترك بني بناته يداعبونه

وهو قائم للصلاة ، لا يزجرهم ولا ينهرهم ، بل لقد روى أنه عليه السلام صلى مرة بأمامة ابنة بنته زينب وهو يحملها على عاتقه ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها .

ولم يكن بره وعطفه مقصورين على الانسان وحده ، بل شمل الحيوان كذلك ، فكان يذهب بنفسه ليفتح بابه لقطة جاءت تلتس عنده ملجأ ، وكان يسمح لجواده بكم قميصه ، وكان يقوم بنفسه على تمريض ديك مريض .

وروي أن عائشة ركبت بعيراً فيه صعوبة ، فجعلت تردده ، فقال لها : عليك بالرفق ، .

والاسلام يدعو أخيراً إلى المساواة التامة فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، يدعو إلى المساواة التي تصل بالمسلمين إلى الوحدة والقوة .
أنظر إلى العبادات التي فرضها الإسلام ، إنها خير شاهد لا يوضح هذه الفكرة وتأكيدها .

لقد بدل الاسلام نفوس معتنقيه ، وقضى على الأوهام التي كانت تخيم عليها مع الوثنية القديمة ، وفرض عليهم عبادات جديدة بسيطة تربط بين قلوبهم كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وجعل الأمر فيها جميعاً بين العبد وربّه ، فاتصلت أرواحهم بالله سبحانه وتعالى ، وكانت هذه العبادات جميعاً تهدف إلى الربط بين معتنقيها ليكونوا قوة قوية ، فهم في الصلاة يجتمعون دون فارق ، ويؤدون حركات واحدة ، ويبتهلون ابتهالات واحدة ، وتوجههم جميعاً إلى الله ينزع ما في نفوسهم من غلٍّ ، ويؤدون فريضة الصوم غنيهم وفقيرهم ، لا فارق بينهم أمام الله والناس ، بل يُطَهَّر الصوم نفس غنيهم فإذا به يعطف على الفقير ، وهم يؤتون الزكاة التي تجعل للفقير حقاً معلوماً في مال الغني ، وبذلك يزول ما بين الطوائف من صراع ونضال وحقد وكراهية . ثم يجمعهم الحج أخيراً كل عام ليتواصوا بالصبر والصلاة ، وليتعاونوا على البر والتقوى ، وليتبادلوا الرأي في مشكلاتهم .

وكذلك كان النظام الاجتماعي في الاسلام كالنظام الروحي بسيطاً سهلاً ،
يهدف إلى المساواة التامة ، فالمساواة أمام الله أساس التوحيد الاسلامي ،
والمساواة أمام القانون أساس النظام الاجتماعي .

بهذه المبادئ السامية التي دعا اليها محمد - عليه السلام - ساد المسلمون في عصرهم
الأول ، بهذه المثل العليا التي لا تستطيع فلسفات العالم أجمع أن ترقى اليها عاش
المسلمون ردحاً من الزمن أعزة كراماً أقوياء ، وبهذه المبادئ وحدها يستطيع
المسلمون اليوم أن يستعيدوا أمجادهم

وصدق الله العظيم في قوله :

« إن الله لا يغيرُ ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

الفسطاط (١)

كيف اختير مكانها ؟ ولم سميت بهذا الاسم ؟

يستطيع القارئ، لأخبار الفتح العربي لمصر أن يلمح في يسر ووضوح أن الحرب لم تكن قائمة إلا بين العرب والروم ، وأن القبط قد وقفوا من الجيشين موقف المحايد ، وإن كانوا في سرائرهم يتمنون النصر للعرب، لما سمعوه عنهم من حسن السياسة وطيب المعاملة ، ولهذا استمر الروم يدافعون عن مصر وراء حصن بابلليون سبعة أشهر طوالاً ، والعرب يستمدون من الحماسة الدينية والإيمان قوة لا تأبه للعقبات وصبراً لا يعرف الملل .

ولما سقط هذا الحصن في أيدي العرب زالت من طريقهم أكبر عقبة من عقبات الفتح ، وتراجع الروم إلى الاسكندرية ، فتبعهم المسلمون وحاربوهم حتى استولوا عليها ، وبسقوط العاصمة الرومانية في أكتوبر سنة ٦٤١م تم فتح العرب لمصر ، فانتشروا في ربوعها حتى وصلوا إلى الشلال الأول . وبذلك أصبحت مصر ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية .

(١) نشر هذا البحث في : (مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد الثاني عشر ،

١٩٥٨) .

عمرو يريد أن يتخذ لمصر عاصمة :

روى ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروعاً منها همّ أن يسكنها وقال : « مساكن قد كفيناها » ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنه في ذلك ، فسأل عمر الرسول : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ » ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل » ، فكتب عمر إلى عمرو « إني لا أحب أن ينزل المسلمون منزلاً يحول الماء بيني وبينهم فيه شتاء ولا صيفاً » ، فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط^(١) .

قد تبعت هذه الرواية على التساؤل : لم كان عمر يخشى الماء ؟ يقول بعض المؤرخين إن العرب لم تكن أمة بحرية ، وبذلك أبى بعد النظر على عمر أن يلقي يجنود المسلمين في مكان يفصل بينه وبين المدينة ماء حتى لا يكون هذا الماء إذا حز بهم الأمر حائلاً بينهم وبين الوصول إلى مركز قوتهم ، وإذا أراد الخليفة أن يبعث إلى جنده بمصر مدداً لم يكن هناك ماء يعترض سبيل هذا المدد ويمنع وصولهم .

وقد ذكر السيوطي في حسن المحاضرة أن ابن عبد الحكم قد أخرج عن يزيد بن حبيب أيضاً أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى ، وإلى عامله بالبصرة ، وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية : « أن لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب اليكم راحتي حتى أقدم عليكم قدمت » ، فتحوّل سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة ، وتحوّل صاحب البصرة من المكان الذي كان فيه فنزل البصرة^(٢) ،

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٧ ، ج ١ ، ص ٥٧ . .

(٢) في عهد عمر بن الخطاب فتح المسلمون العراق ، « وهناك طرقت العرب اختط الأمير عتبة بن غزوان مدينة البصرة وجامعها ودار اماره بجواره حوالي سنة ١٤ هـ (٦٣٥) » ، وكانت أول مدينة أسسها المسلمون ، وبعد ذلك وعقب معركة القادسية أسس الأمير سعد بن أبي—

وتحوّل عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط ^(١) .

من هذا نرى أن رغبة عمر في أن لا يحول بين المسلمين وبينه ماء لم تكن مقصورة على مصر بل كان يريد ما أن تتوافر في كل الأمصار التي فتحها العرب .

ويقول فريق آخر من المؤرخين ومنهم المستشرق الانجليزي Lane poole في كتابه The Story of Cairo أن عمر لم يكن قد رسم لنفسه خطة ثابتة لتكوين إمبراطورية إسلامية واسعة ، ولذلك كان يريد أن يكون على اتصال دائم بجيوشه التي خرجت للفتح ، وإذا كان الطريق بين بلاد العرب والاسكندرية قابلاً للانقطاع في زمن الفيضان فينقطع بذلك سبيل الاتصال بينها وبين المدينة عاصمة الخلافة ، فقد كتب عمر إلى عمرو يأمره أن يتخذ له حاضرة أخرى غير الاسكندرية .

ويبدو عند مقارنة هذين الرأيين - أحدهما بالآخر - أنه ليس للرأي الثاني من القوة والصحة قدر ما للرأي الأول ، وذلك لأن النشاط الذي أبداه عمر منذ ولي الخلافة وإرسال الجيوش تلو الجيوش إلى الشام وفارس مصر ، كل هذا يثبت بالبرهان القاطع أن المستشرق الانجليزي لين بول إنما قال ما قال من باب التعليل والاستنتاج العقلي فحسب .

ولهذا أعرض عمرو عن الاسكندرية وولى وجهه شطر الفسطاط .

رقاص مدينة الكوفة سنة ١٦ - ١٧ هـ (٦٣٧ - ٦٣٨) ، وأنشأ بها مسجداً جامعاً وداراً للإمامة أيضاً ، ففتح الأمير عمرو بن العاص مصر اقتدى بالأميرين السابقين ، فاخترت الفسطاط وأنشأ بها في سنة ٢١ هـ (٦٤١ - ٦٤٢) جامعاً المعروف « أنظر : محمود أحمد : جامع عمرو بن العاص ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١ ، واليعقوبي : كتاب البلدات ، ليدن ١٨٩١ ، ص ٣٢٣ .

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، نفس الجزء والصفحة ، وانظر أيضاً : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٨٥ حيث يقول : « وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه منع المسلمين من الغزو في البحر شفقة عليهم » .

لنا أن نتساءل مرة أخرى : لم اختار عمرو هذا المكان دون غيره لبناء مدينة الفسطاط ؟

وهنا تتشعب الآراء وتتعدد ، ولكنها برغم تشعبها وتعددتها لا تصل بنا إلى رأي حاسم معقول ، فغالبية المؤرخين المصريين كابن عبد الحكم ، وابن دقماق ، والمقرئزي ، وأبو المحاسن ، والسيوطي وغيرهم يروون حادث اليامة على أنه السبب الأساسي لاختيار عمرو لهذا المكان ، ونزوله وجيشه بين ربوعه ، وغالبية المؤرخين الفرنجة كبتلر ، ولين بول ، وكازانوف وغيرهم لا يهتمون بمناقشة الأسباب التي دعت عمراً لاختيار هذا المكان دون غيره قدر ما يهتمون بمناقشة الآراء المختلفة في سبب تسمية هذه الحاضرة بالفسطاط .

ورغم أنهم يستطرفون قصة اليامة فإنهم يرجعون هذا الاسم إلى الكلمة الأغريقية Fossatum (أي المدينة) ، ويقولون بأن العرب نقلوها عن الروم الشرقيين عند اتصالهم بهم في حروب الشام .

غير أننا نحب أن نعنئ بالأمرين جميعاً لما لكل من الأهمية ، ولذلك سنحاول :

(أولاً) مناقشة الأسباب التي دعت لاختيار هذا المكان ليكون حاضرة الديار المصرية بعد اتمام الفتح الحربي .

(ثانياً) مناقشة الأسباب التي دعت لتسمية هذا المكان بالفسطاط .

١ - أسباب اختيار هذا المكان :

أما عن الأمر الأول فيقول المقرئزي في خططه : « اعلم أن موضع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع . فيما بين النيل والجبل الشرقي الذي يعرف بجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بفضه بقصر الشمع وبالمعلقة ، ينزل به شحنة المتولي على

مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ، يقيم فيه ما يشاء ثم يعود إلى دار الامارة « (١) .

من هذا يبدو أن العرب قد أنشأوا مدينتهم « الفسطاط » في الفضاء المجاور لحصن بابليون - مقر الدفاع الروماني - ، وهنا نجد اختلافاً آخر بين المؤرخين بشأن كلمة « بابليون » ، فالبعض يطلقها على الحصن فحسب ، والبعض الآخر يقول بوجود مدينة حول الحصن كانت تسمى بهذا الاسم ؛ وزعيم الفريق الثاني هو الدكتور بتلر وقد لخص رأيه في هذه الفقرات :

١ - كانت تقوم في زمن الفراعنة مكان مصر القديمة (الفسطاط) مدينة ذات شأن يدل عليها وجود بعض التماثيل المصرية ، مثل « سرية أبي الهول » ، وان بعضاً من هذه التماثيل بقي حتى زمن الخليفة الحاكم الفاطمي (٢) .

٢ - وفي القرن السادس قبل الميلاد اتخذ البابليون لهم في هذا المكان معسكراً حربياً وأنشأوا هناك حصناً على المرتفعات الصخرية التي سماها العرب فيما بعد « الرصد » .

٣ - ومن هذا المعسكر انتشر اسم « بابليون » حتى شمل الاقليم المجاور ، وأصبح الاسم المميز لمدينة عظيمة تمتد بعيداً شمال الرصد حتى تتصل بأطراف المدينة القديمة المنحلة وقتذاك « هليوبوليس أو عين شمس » .

(١) المقرئزي - الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٩ ، مطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .
(٢) يذكر ابن دقماق في كتاب « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ، ج ٤ ، ص ٢١ - ٢٢ ، بولاق ١٣٠٩ هـ ، عند كلامه عن الأزقة التي كانت بالفسطاط « زقاق الصنم » ، ويقول إنه سمي بهذا الاسم لوجود صنم به كان يسمى « سرية أبي الهول » وقد هدمه الأمير بلاط سنة ٧١١ هـ ، في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون (أنظر أيضاً : المقرئزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ ، ويتفق مع هذا أيضاً ما رواه ابن الفقيه في كتابه البلدان ص ٦٠ عن وجود تمثال آخر من الحجر لامرأة كان بالفسطاط ، وما رواه المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ص ٢١١ ليدن ، سنة ١٨٧٧ ، اذ يقول : « وفي الفسطاط عند قصر الشمع امرأة ممسوخة على رأسها سفرة من حجر .. الخ » ؛ هذا وقد عثر في السنوات الأخيرة على قطع من الحجر في حفائر الفسطاط مكتوب عليها بالخط الهيروغليفي وقد نقلت الى دار الآثار المصرية .

٤ - وعندما أراد تراجان أن يعزز قوته عند رأس الدلتا واعتزم أن يبني حصناً قوياً كقلعة لبابليون ترك حصن الفرس القائم على الرصد ، وأنشأ قلعته على شاطئ النيل ، وذلك ليضمن وجود الماء بالقرب من حاميته ، ولتستطيع تلك الحامية الاتصال - بوساطة النيل - بسائر جهات القطر المصري ، وسمى هذا الحصن بحصن بابليون (أي حصن مدينة بابليون) أو قلعة مصر Castle of Khemi وقد حرف العرب هذا الاسم فيما بعد فسموه قصر الشمع .

٥ - وبذلك هجر حصن الرصد الفارسي واستولت عليه عوامل الانحلال والنسيان ، حتى إذا كان الفتح العربي بعد ذلك بخمسة قرون ونصف قرن كانت الأخبار عن وجوده عامة لا تكاد تذكر .

٦ - أن اسم بابليون الذي وجدته العرب عند قدومهم يطلق على مدينة مصر قد تلاشى بمرور الزمن وحل مكانه الاسم العربي الجديد « الفسطاط » ، حتى إذا ابتدأ مؤرخو العرب يدونون كتبهم كان اسم « بابليون » قد أصبح يطلق على قصر الشمع فحسب ، بعد أن انتزع من المدينة التي أصبحت بعد اتساعها ونموها تسمى بالفسطاط .

٧ - ولكن هذا الاستعمال المحدود للاسم ابتداءً كذلك يتلاشى في مصر في الأزمنة الحديثة ، وغادر الاسم الانقراض الباقية من قصر الشمع ، وتضاءل حتى غدا يطلق على دير قبطي صغير يقع عند البوابة الجنوبية من الحصن ويسمى « دير بابليون » ، وعند ذلك الدير الصغير استقر ذلك الاسم التاريخي القديم بعد أن خلفه في تسمية المدينة « لفظ الفسطاط » ، وبعد أن خلفه في تسمية الحصن لفظ « قصر الشمع »^(١).

ونحن لا يهيننا من هذا التحليل كله. لتطور استعمال كلمة بابليون إلا أن نعرف أن المكان الذي أنشئت عليه الفسطاط كانت تشغله منذ أيام الفراعنة.

(١) Butler : Babylon of Egypt. Oxford, 1914, P. 62 - 63.

مدينة كبيرة ذات شأن اتخذها البابليون مكاناً لاستقرارهم ، ثم اتخذها الرومان مقراً لدفاعهم يصلون به الوجهين البحري والقبلي ، ويدفعون منه كل مغير على مصر .

وهذا ما يؤيد الرأي الذي نريد أن نذهب اليه من أنه كان في مصر وقت الفتح مدينتان هامتان : إحداهما الاسكندرية وتعتبر العاصمة الأولى وذلك لقربها من الدولة الرومانية الشرقية صاحبة السيادة وقتذاك ، ولاشرفها على البحر الأبيض المتوسط ، وبابليون أو « مصر » ، وتعتبر العاصمة الثانية وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلي والبحري ولوقوعها على شاطئ النيل بحيث تكون سهلة الاتصال - بوساطة هذا النهر - بكل أطراف القطر المصري ، ولتوسطها بين النيل غرباً (وهو مورد من الماء لا ينفذ) وبين جبل المقطم شرقاً - وهو حد طبيعي لحمايتها - ، ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان مقراً لحكمهم للأسباب المتقدم ذكرها (١) ، فأتخذوا منف عاصمة لهم مدة ليست بالقليلة ، وكانت هليوبوليس (عين شمس) (٢) كذلك حاضرة لمصر مدة طويلة (٣) ، وبابليون كما ترى تقع بين المدينتين (٤) ، يقول ابن حوقل في كتابه « المسالك والممالك » : عين شمس ومنف قريتان قد خربتا كانتا منزهاً لفرعون ... عين شمس عن شمال الفسطاط ، ومنف عن جنوبه .. »

(١) يقارن هذا بما ذكره ابن خلدون في مقدمته ص ١٩٠ - ١٩١ ، القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ، عما تجب مراعاته في أوضاع المدن .

(٢) يقول ابن دقان ، ج ٤ ، ص ٣ نقلاً عن ابن سعيد : « كانت مبانيها (أي مباني مصر) في قديم الزمان متصلة بمباني عين شمس » .

(٢) وقد بنيت العواصم المصرية الأخرى كلها شمال هذا المكان : « المسكر سنة ١٣٣ هـ ، والقطائع سنة ٢٥٦ هـ ، والقاهرة ، سنة ٣٥٨ هـ » .

(٤) يعين ابن الفقيه في كتابه (البلدان) موقع الفسطاط (بابليون) بالنسبة للمدينتين القديمتين في قوله : « وعين الشمس على ٣ فراسخ من الفسطاط ، ومنف مساكن بينها وبين عين شمس ٣ فراسخ » .

ويؤيد هذا الرأي القائل بوجود هذه المدينة أيضاً قول
المقريزي : « وكان يحوار هذا الحصن . (بابليون) من بحريه
وهي الجهة الشمالية أشجار وكروم ، وصار موضعها الجامع
العتيق ، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات
للنصارى في الموضع الذي يعرف اليوم براشدة ، ويجانب الحصن
فيما بين الكروم التي بجانبه وبين الجرف الذي يعرف اليوم
بجبل يشكر حيث جامع ابن طولون والكباش عدة كنائس
وديارات للنصارى في الموضع الذي كان يعرف في أوائل
الاسلام بالحمرء » (١)

وقول ابن سعيد في كتابه المغرب :

« وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت في القديم متصلة بمباني عين شمس ،
وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن » (٢) ونحن نعرف أن
المعابد عامة - من هياكل وبيع وكنائس ومساجد - منذ أقدم العصور إلى
اليوم لا تبنى إلا في المدن أو الأماكن الآهلة بالسكان ، فوجود هذه الكنائس
والديارات في الأماكن التي يذكرها المقريزي يثبت إثباتاً قاطعاً وجود مساكن
آهلة ومبان عامرة في هذه المدينة القديمة وقت الفتح ، وقول ابن سعيد لا
يحتاج إلى هذا الاستنتاج إذ يقول في عبارة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام :
« وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن » .

من هذا كله نرى أن اختيار عمرو لهذا المكان لم يقع اعتباطاً ، بل كان
اختياراً طبيعياً ؛ كان عمرو يريد أن يتخذ له حاضرة يستقر فيها ، غير أنه
ما كان يريد أن يبذل جهداً جديداً في إنشاء هذه الحاضرة بدليل رغبته في
اتخاذ الاسكندرية حاضرة ، وبدليل تعبيره عن هذه الرغبة بقوله : « مساكن

(١) المقريزي : المرجع السابق ص ٦٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٢ .

قد كفيناها»^(١) ولكن عمر قد أمره أن يتحول عن الاسكندرية فكان لزاماً على عمرو أن يحول وجهه شطر العاصمة الثانية وقتذاك وهي « بابلون » أو « مصر » ، فذهب اليها واتخذ الفضاء المجاور لها مقراً له ولجنوده .

هذه هي الأسباب الطبيعية التي دعت عمراً لاختيار هذا المكان ، غفل عن ذكرها مؤرخو العرب ، ولم يعرها اهتماماً مؤرخو الفرنج .

٢ - لم «ميت المدينة بهذا الاسم ؟

أما عن الأمر الثاني وهي الأسباب التي دعت لتسمية هذا المكان بالفسطاط فإن الآراء فيها وإن اختلفت وتشعبت فإنها كذلك لا تصل بنا إلى حل حاسم معقول .

أما مؤرخو العرب فيعتمدون جميعاً على قصة اليامة ، وأما مؤرخو الفرنجة فتقول غالبيتهم بأن كلمة الفسطاط قد أخذت عن الكلمة الاغريقية Fossatum أي المدينة ، وأن العرب نقلوها عن اليونان عند اتصالهم بهم في حروب الشام . غير انا نرى ان قصة اليامة مع طرافتها قد تبعد عن الصحة ، وذلك لأنهم يقولون ان عمراً قد أوصى أحد المصريين - في رواية - او صاحب القصر - في رواية اخرى - بالمحافظة على الخيمة « الفسطاط » حتى تفرخ اليامة وتطير صغارها ، وأنه عند رجوعه وجد الفسطاط في مكانه ، فنزل هو وجنده بجواره ، ونحن نشك في صحة هذا الخبر لأن عمراً ولو انه كان قد استولى على حصن بابلون فإن مصر لم تكن قد خضعت كلها لأمره ، ولذلك لا يعقل أن ذلك الرجل المكلف بالمحافظة على الفسطاط يبقى على عهده ويحافظ على وعده مع رجل فاتح لم يثق بعد انه قد أصبح الحاكم على مصر حتى يخشاه ويحافظ على حراسة فسطاطه من أجل يامة طول ذلك الوقت الذي استنفده عمرو في فتح الاسكندرية وما بين بابلون والاسكندرية من مدن .

(١) المقرئزي : المرجع السابق ص ٧٥ - ٧٦ .

ويقدمنا أيضاً إلى الشك في صحة هذه القصة ما هو معروف مشهود عن الطيور المختلفة وخاصة الحمام واليام من انها تتخير لأعشاشها وبيضها وفراخها الأماكن المنعزلة المهجورة البعيدة عن أن يطرقها إنسان أو تنالها الأيدي صونا للأعشاش وحفظاً للبيض وإبقاء على الصغار .

فهل من المعقول إذن أن تترك هذه اليامة العمرية تلك الأماكن الآمنة لتضع بيضها في معسكر دائم النشاط دائم الحركة ، وفي خيمة القائد وهي أنشط أماكن المعسكر بالحركة وأعمرها بالوافدين ؟

وإذا كانت هذه القصة صحيحة ففي أي مكان من الخيمة تبني اليامة عشها؟ والخيمة كما نعرفها جميعاً مصنوعة من قماش أملس وهي منحدرية الجوانب إذا نصبت (١) .

كل هذا يؤيد شكنا في صحة هذه القصة وكونها أصلاً للتسمية .

أما الرأي الثاني فيبدو كذلك بعيداً عن الصحة ، وذلك لأن ابن قتيبة يروي في كتابه « غريب الحديث » حديثاً للرسول نصه « عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط » (٢) . ونحن إزاء هذا نجد أنفسنا أمام احتمالين : إما أن يكون الحديث صحيحاً فيبطل الرأي القائل بأن العرب أخذوا كلمة الفسطاط عن الروم عند اتصالهم بهم في حروب الشام ، لأن حروب الشام واتصال العرب بالروم كان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي بعد ذكره لهذا

(١) يذكر هذه القصة بالتفصيل مؤرخو العرب جميعاً ، انظر مثلاً : المقرئ ، المرجع السابق ، ص ٧٦ ، وابن دقاق ، المرجع السابق ، ص ٢ ، ومرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ابريل سنة ١٨٤١ ، ج ٢ ص ٣٥٤ ، وأبو الحسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٤ - ٦٥ ، القاهرة سنة ١٩٢٩ . الخ غير أنه يتضح بعد مناقشتها أنها من وضع هؤلاء المؤرخين كغيرها من القصص التي تنسب لمهد الفتوح ، وخاصة قصة الفتاة التي كانت تقدم ضحية ليفيض النيل ، والخطاب الذي أرسله عمر ليلقى بدلاً من الفتاة .

(٢) ورد هذا الحديث أيضاً في : ابن دقاق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٢ ؛ أنظر أيضاً : ياقوت : معجم البلدان .

الحديث ، وإما أن يكون الحديث غير صحيح وبذلك يحتمل أن يكون رأي مؤرخي الفرنجة صحيحاً .

غير أننا نحب أن ندلي برأي يخالف هذين الرأيين ، وقد يكون أقرب منهما الى الحقيقة ، وذلك أن كلمة الفسطاط كلمة عربية معناها المدينة ، فإننا إذا رجعنا الى القاموس المحيط وجدنا ان « الفسطاط » بالضم « مجتمع أهل الكورة » ، ووجدنا ان الكورة هي « الصُّقْع أو المدينة » ، وبذلك تكون الفسطاط هي مجتمع أهل المدينة .

ويقول ابن قتيبة تعقيباً على الحديث السالف الذكر « والفسطاط المدينة »^(١) وينقل عنه المقرئ أيضاً في الخطط ما يلي : « قال ابن قتيبة : كل مدينة فسطاط »^(٢) .

ويقول المقرئ بعد هذا : « وأخبرني أبو حاتم الأصمعي إنه قال : حدثني رجل من بني تميم قال قرأت في كتاب رجل من قریش : هذا ما اشترى فلان بن فلان من عجلان مولى زياد اشترى منه خمسمائة جريب حيال الفسطاط يريد البصرة »^(٣) .

ويشبه هذه الرواية الأخيرة ويؤيدها قول ابن الفقيه : « وإنما سميت البصرة فسطاطاً على التشبيه بفسطاط مصر »^(٤) .

وقريب من هذا المعنى قول المقدسي «الفسطاط هو مصر في كل قول»^(٥) . فالراجح عقلاً بعد ذكر هذه الآراء جميعاً أن كلمة « فسطاط » كلمة عربية خالصة معناها « المدينة » .

(١) ابن دقاق - الانتصار ج ٤ ص ٢ .

(٢) يقول القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ : « قال ابن قتيبة ان كل مدينة تسمى فسطاط ، ولذلك سميت مصر الفسطاط » .

(٣) المقرئ ، المرجع السابق ج ٢ ص ٧٥ - ٧٦ .

(٤) ابن الفقيه ، كتاب البلدان ص ٦٧ .

(٥) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، المرجع السابق ص ١٩٧ .

وختلاصة القول الذي نريد أن نذهب إليه أن العرب اختاروا هذا المكان
اختياراً للأسباب السابق ذكرها ، وأنهم سموه « الفسطاط » أي « المدينة »
أو « مجتمع أهل المدينة » .

يقصدون بذلك المكان الذي يجتمعون فيه حول جامعيهم وحول
منزل قائدهم .

تكوين الشعب المصري الجديد^(١)

بعد الفتح العربي

كان الجيش العربي الذي قام بفتح مصر يتكون من نحو اثني عشر ألف مقاتل من القبائل العربية المختلفة ، وبعد الفتح ظل العرب يرحلون إلى مصر في أقواج كثيرة متتابة ، كان أكبرها هجرة قبائل من قيس في سنة ١٠٩ هـ. في خلافة هشام بن عبد الملك ، وولاية الوليد بن رفاعه على مصر .

ويبدو أن هجرة هذه القبائل من قيس كانت تتصل بالسياسة العامة لهشام في الدولة كلها ، إذ كان هشام يرمي إلى إضعاف شأن القبائل اليمنية بالاعلاء من مركز القيسية ، يقول الكندي إن عبيد الله بن الحبحاب لما ولي خراج مصر من قبل الخليفة هشام كتب إليه يقول :

« إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - قد شرف
الحي من قيس ونعشهم ، ورفع من ذكرهم ، وإني قدمت

(١) نشر هذا البحث في: (مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية، المجلد الرابع عشر، ١٩٦٠) .

مصر فلم أرَ لهم فيها حظاً إلا أحياناً من فَنَهم ، وفيها
كُؤَر ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ،
ولا يكسر ذلك خراجاً ، وهي ببليس ، فإن رأى أمير
المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس فليفعل ، فكتب إليه
هشام : أنت وذلك ، (١) .

ثم يذكر الكندي بعد ذلك أن هشاماً أرسل إلى البادية فاستقدم أربعمئة
أهل بيت من بطون قيس المختلفة ، وأوفدها إلى مصر ، فنزلت بالحواف
الشرقي حول ببليس .

« وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها
إليهم ، فاشترؤا إبلًا ، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، وكان
الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل ،
ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فجعل الرجل يشتري المهر ،
فلا يمكث إلا شهراً حتى يُركب ، وليس عليهم مؤونة في
إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة تمرعاهم ، فلما بلغ ذلك
عامة قومهم تحمّل إليهم خمسمئة أهل بيت من البادية ،
فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة فأقام نحو من خمسمئة
أهل بيت ، فمات هشام وببليس ألف وخمسمئة أهل بيت
من قيس ، (٢) .

واستمر توافد قيس على مصر ونزولهم بأرضها طوال الفترة الباقية من عصر
بني أمية ، وانتهى عهد الدولة بموت مروان بن محمد وبمصر :

(١) الكندي : الولاة والقضاة ، طبعة جست ، ص ٧٦ .

(٢) الكندي : المرجع السابق ، ص ٧٧ ، وانظر : المقرئ : الخطط ، مطبعة النيل ،

ج ١ ، ص ١٢٨ .

« ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا ، وقدم عليهم من البادية من قدم » (١) .

واستمرت رحلة القبائل العربية وهجرتهم متتابعة متلاحقة في العصور التالية ، وخاصة في عصر الدولة الفاطمية ، ففي خلافة المستنصر مثلا عظم شأن القبائل العربية النازلة في جنوب الشام حول غزة ، وكثرت ثوراتهم ، واشتدت وطأتهم على الولاة .

« فبعث الوزير الناصر للدين أبو محمد الحسن بن علي اليازوري إليهم في سنة ٤٤٢ يستدعيهم ، وأقطنهم البحيرة . . . فأتست أحوالهم ، وفخم أمرهم ، وعظم شأنهم . . . » (٢) .

ووفدت في نفس المهد قبائل أخرى ، غير أنها ما لبثت أن قامت ببعض الشغب والثورات ، فنقلت الدولة بعض هذه القبائل - وخاصة قبيلتي بني سليم وبني هلال - إلى الوجه القبلي ، وبعد قليل عمل الوزير اليازوري على نقل بني هلال إلى شمال أفريقيا لدأبهم على إثارة الشغب ، ورغبة منه في الانتقام من بني زيري الذين خرجوا عن طاعة الفاطميين في أفريقية .

وقدمت قبائل أخرى في خلافة الفائز الفاطمي ووزارة الصالح الطلائع بن رزّيك ونزلت في منطقة دمياط والبرلس ، ونزلت بطون من قبيلة جذام في منطقة زفتي وميت غمر .

من هذا البيان الموجز يتضح أن الهجرات العربية الأولى استقرت في جهات أسفل الأرض (الوجه البحري) ، فلما ضاقت هذه البلاد بسكانها نزلت القبائل العربية الوافدة ببلاد الصعيد ، وانتشرت في جميع نواحيه حول أسوان وجنوبها ، وفي منفلوط وأسيوط والأشمونين وإخميم ، وفي الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ، وخاصة صحراء عيذاب .

(١) الكندي : ص ٧٧ .

(٢) المقريزي : البيان والاعراب عن نزل بأرض مصر من الأعراب ، ص ٢٤ - ٢٥ .

وكان العرب في أول أمرهم جنوداً يقومون بالفتوح في الأقاليم المجاورة ،
أو بالدفاع عن مصر ، وكانت منازلهم في العاصمة (الفسطاط) أو في الثغور
كدمياط. وتنيس ودرشيد والاسكندرية ، أو على الحدود في الصحراء ، فلما
كثر عددهم وتوالي هجراتهم اشتغلوا أيضاً بالرعي على حافتي الوادي ، ثم لم
تلبث أن اجتذبتهم الحياة في وادي النيل نفسه ، فأقبلوا عليه ، واشتغلوا
بالزراعة ، واختلطوا بالأهلين ؛ وظلت للعرب هذه الصفة - صفة الرعي
أو الجندية - حتى كان عهد الخليفة العباسي المعتصم ، وكانت أمه تركية ،
فاستكثر من الجند الأتراك في عاصمة الدولة ، ثم لم يلبث أن أرسل إلى
كيدر نصر بن عبد الله ، واليه على مصر (٢١٧ - ٢١٩ هـ) .

« وأمره باسقاط مَنْ في ديوان مصر من العرب وقطع
أعطيتهم ، ففعل ذلك ... » (١) .

ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي ؛ ولما ولي أحمد بن
طولون على مصر استكثر من العبيد في جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة على
أربعة وعشرين ألف عتلام تركي ، وأربعين ألف أسود ، وسبعة آلاف حر
مرتزق .

وباسقاط العرب من ديوان الجند ومنع عطائهم انتشروا في أنحاء مصر وتم
اختلاطهم بالأهالي .

أما الأقباط فقد كانوا أكثرية وقت الفتح ، يقول المقرئ :

« اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها
مشحونة بالنصارى ، وهم على قسمين متباينين . في أجناسهم
وعقائدهم . أحدهما أهل الدولة ، وكلهم روم من جند
صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وحياتهم بأجمعهم

(١) الكندي: المرجع السابق ، ص ١٩٣ ؛ والمقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ١٥١ .

ديانة الملكية ، و كلنت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومي ،
والقسم الآخر عامة أهل مصر ، ويقال لهم القبط ، وأقسامهم
مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي
من الاسرائيلي الأصل ، من غيره ، وكلهم يعاقبة ، فمنهم
كتاب الملكة ، ومنهم التجار والبياعة ، ومنهم الأساقفة
والقسوس ونحوهم ، ومنهم أهل الفلاحة والزرع ، ومنهم
أهل الخدمة والمهنة ، وبين الملكية أهل الدولة من
العداوة ما يمنع مناكتهم ، ويوجب قتل بعضهم بعضاً (١) .

وقد دارت الحروب بين العرب والروم وقت الفتح ، أما القبط فكانوا
عوناً للعرب ، وبعد الفتح كتب عمرو أماناً لبنيامين بطرك الأقباط ، فخرج
من مخبئه في الصحراء ، وعاد إلى كرسي بطركيته بعد أن غاب عنه ثلاث
عشرة سنة ، واعتبر الأقباط أهل ذمة ، وفرض على كل من بلغ الحلم
ديناران (٢) - ويستثنى من هذه الضريبة النساء والصبية والشيوخ - ، وظل
الأقباط يدفعون هذه الضريبة دون أي شكوى نحو قرون من الزمان ، فلما
فكر بعض ولاة مصر في زيادة مقدار الضريبة ولو زيادة طفيفة كان الأقباط
يقومون بثورات مختلفة ، وكان الولا يضطرون إلى العمل على إخماد هذه
الثورات بالقوة والعنف :

١ - ففي سنة ١٠٥ هـ كان الوالي على مصر من قبل الخليفة الأموي هشام
بن عبد الملك هو الحر بن يوسف ، وكان عامل الخراج هو عبيدة الله بن الحبحاب ،
فكتب إلى هشام أن أرض مصر تحتل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطاً ،
فانتفضت بعض كور مصر (كورة تنو ، ورمى ، وقريط ، وطراينة)
وعامة الخوف الشرقي ، فبعث إليهم الحر بن يوسف بأهل الديوان (أي بالجند

(١) المقرئ : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٨٧ .

من العرب) فأخضعوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثائرين ؛ وكان هذا الانتفاض في سنة ١٠٧ ، وهو أول انتفاض للقبط^(١) بعد الفتح العربي .

وواضح مما ذكر ان الزيادة كانت في ضريبة الأرض لا ضريبة الرؤوس (اي الجزية) ، وأنها كانت زيادة طفيفة تبلغ قيراطاً على كل دينار ، وقد تكون دعت اليها حاجة البلد ، كما ان عامل الخراج ذكر للخليفة ان الأرض تتحمل هذه الزيادة ، ومع هذا فقد ثار القبط في بعض الكور وفي الحوف الشرقي ، لأن المسائل المالية كانت دائماً - في كل العصور وفي كل البلاد - مسائل حساسة تثير شعور الشعوب .

٢ - وكانت فتنة القبط الثانية جزئية كذلك في بعض بلاد الصعيد ، وذلك في سنة ١٢١ هـ في ولاية حنظلة بن صفوان الثانية على مصر من قبل هشام بن عبد الملك ، يقول الكندي :

« ثم انتقض أهل الصعيد ، وحارب القبط عما لهم في سنة احدى وعشرين ومائة ، فبعث حنظلة بأهل الديوان ، فقتلوا من القبط ناساً كثيراً وظفر بهم ... »^(٢)

ولكن الكندي لم يذكر سبب هذه الفتنة ، وإن كان المقرئ قد ذكر ان حنظلة عندما أتى مصر والياً للمرة الثانية تشدد على النصاري ، وزاد في الخراج ، وأحصى الناس والبهاشم ، وجعل على كل نصرائي وسمياً - صورة أسد - ، وتتبعهم ، فمن وجدته بغير وسم قطع يده ؛ فقد تكون هذه السياسة هي السبب في قيام هذه الفتنة .

٣ - وفي سنة ١٣٢ هـ عندما هزم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أمام جيوش العباسيين فر إلى مصر ، وفي مدة وجوده بها ثار بعض القبط

(١) الكندي الولاية والقضاة ، ص ٧٣ - ٧٤ ؛ والمقرئ : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٤

(٢) الكندي : الولاية والقضاة ، ص ٨١

بمدينة رشيد ، فبعث إليهم مروان بعثان بن أبي نسعة فهزمهم^(١) ولسنا نعرف أيضاً سبب هذه الفتنة ، وقد يكون أقباط رشيد انتهزوا فرصة القوضى التي صاحبت زوال دولة بني أمية وقيام الدولة الجديدة فقاموا بهذه الفتنة .

٤ - وفي سنة ١٣٥ هـ في ولاية أبي عون من قبل العباسيين :

« خرج أبو مينا القبطي بسمنود ، فبعث إليه (أبو عون)
بعبد الرحمن بن عتبة ، فقتل أبو مينا ... »^(٢)

وليس في المراجع تعريف بشخصية أبي مينا هذا ، ولا ذكر لأسباب خروجه .

٥ - وفي سنة ١٥٠ هـ في ولاية يزيد بن حاتم على مصر (١٤٤ - ١٥٢ هـ) من قبل الخليفة العباس أبي جعفر المنصور خرج القبط بمدينة سخا ، وانضم إليهم أهالي البلاد المجاورة ، فأرسل إليهم يزيد فرقة من أهل الديوان ، ولكن يبدو ان هذه الفتنة كانت قوية وخطرة ، فقد قتل في المعركة بعض قواد العرب ، وجرح البعض الآخر ، وانصرف الجيش الى الفسطاط منهزمين^(٣) .

٦ - وفي سنة ١٥٦ هـ ، في ولاية موسى بن علي على مصر من قبل أبي جعفر المنصور خرجت القبط ببلييب ، فأرسل إليهم الوالي جنداً هزموهم .

٧ - وفي سنة ٢١٦ هـ في ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل الخليفة المأمون ثار سكان أسفل الأرض (الوجه البحري) - عرباً وقبطاً - ، وكان سبب هذه الثورة كما يذكر الكندي « سوء سيرة العمال فيهم »^(٤) وبذل الوالي عيسى بن منصور ، والقائد العباسي الأفشين جهدهما لاختضاع هذه الثورة التي ظلت

(١) المرجع السابق ، ص ٩٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٢

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١١٧

(٤) المرجع السابق ، ص ١٩٠

قائمة نحو ثمانية شهور — من جمادى الأولى إلى نسي الحجة من سنة ٣١٦ هـ —
حتى اضطرت الخليفة المأمون أن يأتي إلى مصر بنفسه لاختضاع هذه الثورة ،
واخضعها وعاقب كلا من الخاكيم والحكّامين بما يستحق ؛ أما والي عيسى
بن منصور فقد عزله المأمون بعد أن عنّفه بقوله :

« لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك ،
حملتم الناس ما لا يطيقون ، وكنتموني الخبر حتى تفاقم الأمر
واضطربت البلد » (١) .

أما ابن عبيدس الفهري قائد الثورة من العرب فقد فرّ إلى الصعيد فظفرو
به وقتل ، وأما الثائرون من الأقباط « فنزلوا على حكم أمير المؤمنين ، فحكم
بقتل الرجال ، وبيع النساء والأطفال ، فبيعوا ، وسي أكثرهم ... » (٢)
يقول المقرئ :

« ومن حينئذ ذلت القبط في جميع أرض مصر ، ولم يقدر
أحد منهم يعد ذلك على الخروج على السلطان ، وغلبهم المسلمون
على عامة القرى ، فرجعوا من الحاربة إلى المكيدة واستعمال
المنكر والحيلة ، ومكيدة المسلمين ، وعملوا ككتاب الخراج ،
فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيرة ... » (٣)

هذا موجز لأهم الثورات التي قام بها الأقباط في القرنين الأول والثاني
للهجرة ، وقد أخضعت كلها بالقوة ، وكان من أهم نتائجها جميعاً أن اعتنق
عدد كبير من الأقباط الإسلام بعد كل ثورة — رغبة أو رهبة — .

وكان من الطبيعي — وهذه العوامل تعمل مجتمعة لإدماج الشعبين — أحدهما

(١) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٩٢

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٩٢

(٣) المقرئ : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٦

في الآخر - ان تنتشر اللغة العربية بين الأقباط ليسكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم ، وظل انتشار اللغة العويبية بطيئاً، طول القرن الأول للهجرة ، وقبل نهاية هذا القرن ، ابي في سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ م) ، وفي ولادة عبد الله بن عبد الملك ، على مصو من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك أمير الدواوين ، ففسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية (١) .

* ففي القرن الأول للهجرة كانت أوراق الدواوين تكتب باللغة اليونانية ، وكانت بعض الأوراق تكتب باللغتين العربية واليونانية ، ويرجع تاريخ أقدم ورقة مكتوب عليها بهاتين اللغتين إلى سنة ٢٢ هـ (٦٤٣ م) ، ويرجع تاريخ آخر ورقة إلى سنة ١٠١ هـ (٧١٩ م) ، كما يرجع تاريخ آخر ورقة بردية مكتوب عليها باليونانية فقط إلى سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) ، أما أقدم ورقة مكتوب عليها بالعربية فقط فتاريخها سنة ٩٠ هـ (٧٠٩ م) .

وظل هذا التحول من الكتابة باللغة اليونانية في الدواوين ، والتحدث بالقبطية بين عامة الناس إلى الكتابة والتحدث باللغة العربية ، ظل هذا التحول يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى إذا كان القرن الرابع (١٠٠ م) كانت غالبية الشعب المصري يتكلمون العربية ، ولا يفهمون القبطية ، يدلل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا في هذا القرن أن يلقوا مواعظهم في الكنائس باللغة العربية .

وليس معنى هذا أن اللغة القبطية تلاشت تماماً ، بل لقد ظلت موجودة ، بدليل ما يذكره المقرئ من أن الخليفة المأمون كان يتنقل في ريف مصر ومعه مترجم ينقل عنه وإليه ، وما يذكره المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» (ألفه حوالي سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحي مصر كانوا يتحدثون بالقبطية (٢) .

(١) الكندي : المرجع السابق ، ص ٥٨ - ٥٩ ، وجاء في دائرة المعارف الإسلامية مادة « ديوان » ومادة « قبط » ان الدواوين في مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم - ص ٨٠ .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض المسلمين تعلموا القبطية في هذا العهد الأول — عهد الاختلاط — ، يذكر الكتدي أن القاضي خير بن نعيم (ولي القضاء من ١٢٠ - ١٢٧ هـ) كان « يسمع كلام القبط بلغتهم ، ويخاطبهم بها » (١) ، كما يذكر أن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، والي الشرطة على القسطنطينية (سنة ١٤٤ هـ) كان يتكلم القبطية (٢) .

وذكر البلوي في كتابه « سيرة أحمد بن طولون » أن ابن طولون تغير على أحد رجاله ، ففر منه ، فأرسل ابن طولون أحد رجال دولته في طلبه ، وأوصاه أن لا يبحث عنه في داره بالقسطنطينية ، ولا في ضيعته ، بل أمره أن يبحث عنه في « الديارات وعند النصارى ... لأنه حاذق بالقبطية فصيح بها » (٣) .

ونستطيع الآن أن نلخص خطوات الاختلاط والتحول التي انتهت بتكوين الشعب المصري في العصور الوسطى في النقاط الآتية :

١ - امتاز القرن الأول للهجرة بكثرة الهجرات العربية المتتابة ، وكانت أكبر هذه الهجرات هجرة القبائل القيسية من سنة ١٠٩ إلى سنة ١٣٢ هـ (أي من عهد هشام بن عبد الملك إلى عهد مروان بن محمد) ، وقبيل نهاية هذا القرن أيضاً (في سنة ٨٧ هـ) كان تحويل الدواوين المصرية من اليونانية والقبطية إلى العربية .

٢ - ويمتاز القرن الثاني بثورات الأقباط المختلفة - (من سنة ١٠٥ إلى سنة ٢١٦ هـ) ، وكان من نتائج هذه الثورات دخول كثير من الأقباط في الإسلام .

(١) الكتدي : الولاية والقضاء ، ص ٣٤٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٣٣ .

(٣) البلوي : سيرة أحمد بن طولون ، نشر محمد كرد علي ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

٣ - وفي القرن الثالث أسقط العرب من ديوان الجند ، ومنعت أعطيائهم ، فانتشروا في القرى المصرية ، واشتغلوا بالزراعة ، وتزوجوا من المصريات .

ففي هذا القرن تم امتزاج الشعبين .

٤ - ولم يكد يبدأ القرن الرابع حتى كان في مصر شعب جديد - هو خليط من الشعبين العربي والقبطي - يدين معظمه بالدين الإسلامي ، ويتكلم السواد الأعظم منه - مسلمين وأقباطاً - باللغة العربية .

ونستطيع أخيراً أن نفسر اندماج الأقباط في العرب ، واعتناقهم الإسلام بالأسباب الآتية :

١ - يقول ابن خلدون « المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب » ، وهذه حقيقة ثابتة نشاهدها في تاريخ الشعوب المختلفة ، فليس من البعيد إذن أن يفكر بعض الأقباط في اعتناق الدين الإسلامي - دين الدولة الحاكمة - ، وأن يتعلموا اللغة العربية - لغة الحكام - رغبة في أن ترتفع مكانتهم ويسهل اتصالهم برجال الدولة ، ويتمتعون بما يتمتع المسلمون به من مركز مرموق

ولم يكتف نفر من الأقباط باعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية ، بل تغالوا فادعوا النسب العربي ، وبذلوا المال الكثير لإثبات هذا النسب في وثائق رسمية .

ذكر الكندي أن جماعة من القبط يسمون « أهل الحرس » سعوا لدى قاضي مصر عبد الرحمن بن عبد الله العمري (١٨٥ - ١٩٤ هـ) ليسجل لهم سجلاً بإثبات أنسابهم ، ودفعوا له ستة آلاف دينار ، فرفع العمري الأمر إلى الخليفة الرشيد ، وسافر رجلان من « أهل الحرس » إلى بغداد ، وأنفقا هناك مالاً كثيراً ، وادعوا أنهم ينتسبون إلى حوتكة بن أسلم بن الحاف بن قضاة ، وعند وصولهم إلى بغداد مات الرشيد ، وولي الخلافة ابنه الأمين ،

فرفعوا اليه قضيتهم ، وأيدهم في دعواهم جماعة من أهل الخوف الشرقي وبادية الشام .

ثم عاد الوفد ومعهم كتاب الأمين إلى العمري بالتسجيل لهم ففعل .

وقد ثار المجتمع العربي في الفسطاط لهذه القضية ، وأعلن عن غضبه على القاضي العمري في شعر كثير^(١) ينتقد فيه حكم هذا القاضي ، ويطلعن في قضاياهم ولم تهدأ تأثيرتهم حتى عزل العمري عن قضاة مصر ، ووليه هشام بن أبي بكر البكري (١٩٤ - ١٩٦ هـ) من قبل الأمين أيضاً .

وسافر وفد من العرب إلى بغداد للاطمئن في حكم العمري ونسبة « أهل الحرس » للعرب .

« فكتب محمد الأمين إلى البكري بكتاب يذكر فيه أنه لا يمنح أحداً من غير العتوب اللحاق بالعرب ، ويأمره أن يردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم »^(٢) .

فكتب البكري « أهل الحرس » ، وطلب منهم سجل قضيتهم الذي أثبت فيه العمري أنسابهم ، ثم أخرج مقراضاً من تحت مصلاه فقطع السجل به ، وقال لهم :

« العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاض ، ان كنتم عرباً فليس ينازعكم أحد »^(٣) .

٢ - كان الأقباط يتولون وظائف الدولة الصغرى والكبرى - في المدن وفي القرى - ، غير أنهم أخذوا يدخلون في الإسلام ، ويتعلمون اللغة العربية رويداً رويداً ، وخاصة بعد صدور الأمر بتدوين الدواوين في مصر باللغة العربية ، وكان الدافع الأكبر لقبالهم على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية

(١) أنظر هذا الشعر وتفاصيل القضية في (الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٢٩٧-٣٩٩) .

(٢) ، (٣) الكندي : المرجع السابق ، ص ٤٦٣ .

رغبتهم في الاحتفاظ بالوظائف التي يلونها ، فقد روى ساويرس بن المقفع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) أرسل إلى مصر كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن وظائفهم ما دلموا على دينهم ، ومن أراد الاحتفاظ بعمله فليدخل في دين محمد ، ولهذا سلم الأقباط ما بأيديهم من الأعمال والوظائف إلى المسلمين (١) .

ويؤكد هذه الرواية ما ذكره الكندي من أنه في خلافة عمر بن عبد العزيز « نزعوا موازيت القبط عن الكور ، واستعمل المسلمون عليهم » (٢) .

ومن البديهي أن نستنتج أن عدداً كبيراً من أقباط مصر قد دخلوا في الإسلام وتعلموا اللغة العربية للاحتفاظ بوظائفهم أو العودة إليها بعد تخليصهم عنها .

ومع هذا فإنه يبدو أن تنفيذ هذا الأمر لم يكن عاماً ، أو أنه لم يلتزم فيما تلا عصر عمر بن عبد العزيز من سنوات ، بدليل أن الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من وظائف الدولة ، بل لقد سئل بعض الموازيت يختارون من الأقباط ، فقد ذكر في إحدى الأوراق البردية المحفوظة في هيتلبرج ، وللمؤرخة بسنة ١٧١ هـ اسم مازوت قبطي (٣) .

٣ - ما كان يحدث عقب كل ثورة من دخول كثير من الأقباط في الإسلام طوعاً أو كرهاً - وخاصة بعد الثورة الكبرى التي حدثت في عهد المأمون .

٤ - اعتنق بعض الأقباط الإسلام فراراً من الضرائب التي كانت مفروضة عليهم ، وقد يؤيد هذا أن أول انتفاض للقبط في العهد الإسلامي (سنة ١٠٥ هـ) كان لأن عامل الخراج زاد على كل دينار قيراطاً

(١) ساويرس بن المقفع ، سير الآباء البطارقة ، ج ١٥ ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٢) الكندي ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٣) سيدة اسماعيل الكاشف : مصر في فجر الإسلام ، ص ٢٠٩ .

ولم يكفد ينتهي القرن الأول للهجرة حتى أحسّ والي مصر ما لكثرة دخول الأقباط في الإسلام من أثر في نقص قيمة الخراج ، فلما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) كتب إليه عامله على مصر أيوب ابن شرجيل يشكوا كثرة دخول الناس في الإسلام ، ويذكر له ما لهذا التحول من أثر في نقص قيمة الخراج ، ثم استأذنه في فرض الجزية علي من أسلم فرد عليه عمر رده المشهور :

« قبّح الله رأيك ، إن الله إنما بعث محمداً هادياً ، ولم يبعثه جابياً ، فضع الجزية عن أسلم ، ولعمري لعمري أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه ... »

هـ - وهناك سبب أخير قد يكون له من القوة ما يفوق الأسباب التسالفة مجتمعة ، وذلك أن دخول الأقباط في الإسلام كان دخولاً طبيعياً ، يسير مع التطور المنطقي للحوادث وللتاريخ في مصر بعد الفتح العربي ، وأنت الدين الاسلامي ببساطته وبساطة تعاليمه وعقائده قد جذب هؤلاء الأقباط اليه ، يقول بهذا الرأي شاهد من أهل الديانة المسيحية ، هو المؤرخ والمستشرق الانجليزي المعروف « سير توماس أرنولد » ، فقد قال في كتابه « الدعوة إلى الاسلام » :

« والحق أن كثيراً من مسيحيي مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التي اعتنقوا بها النصرانية في مستهل القرن الرابع الميلادي ... كما أن سرعة انتشار الاسلام في الأيام الأولى من الاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الاسلام .

وإن الأساس اللاهوتي لبقاء اليعقوبين حزباً منفصلاً ،

والشمائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها وقتاً طويلاً ،
ودفعوا ثمناً غالياً في هذا السبيل قد اجتمعت في عقائد كانت
صيغتها أشد ما تكون غموضاً وإيهاماً من الناحية الميتافيزيقية ،
ولا شك أن كثيراً من هؤلاء قد تحولوا - وقد أخذت الحيرة
منهم كل مأخذ واستولى على نفوسهم الضجر والاعياء من ذلك
الجدل السقيم الذي احتدم من حولهم - إلى عقيدة تتلخص
في وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد ^(١)

(١) توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام (الترجمة العربية للدكتور حسن ابراهيم حسن
رزميله) ص ٩٣ - ٩٤

نظام الوزارة في العصر الفاطمي^(١)

ظلت مصر منذ الفتح العربي ولاية تابعة للخلافة ، وفي منتصف القرن الثالث الهجري حاول ابن طولون المحاولة الاولى للاستقلال بمصر ، وفي عهد الدولتين الطولونية والاخشيديية اتخذ بعض حكام مصر الوزراء لأول مرة ، فكان ابو بكر محمد بن رستم الماذرائي وزيرا لخمارويه ، وكان ابو الفضل جعفر بن القرات وزيرا لكافور الاخشيدي .

ولفظ الوزارة كما يقول ابن خلدون : « يدل على مطلق الإعانة فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة ، أو من الوزر وهو الثقل ، .

وتنقسم الوزارة في العالم الإسلامي - ومنه مصر - إلى : وزارة تنفيذ وفيها يقوم الوزير بتنفيذ أوامر الخليفة ، ووزارة تفويض وفيها يكون الخليفة مغلوبا على أمره والأمور كلها بيد الوزير .

وقد كانت الوزارة في القرن الأول من الحكم الفاطمي في مصر وزارة تنفيذ كما كانت في القرن الثاني وزارة تفويض .

(١) نشر هذا البحث في (مجلة الثقافة ، العدد ٦٣٨ ، ١٩٦٩ مارس ، سنة ١٩٥١م) .

وأول من اتخذ وزيراً من الخلفاء الفاطميين هو العزيز بالله ، وكان وزيره هو يعقوب بن كلّس ، وذلك « لأن الامام المعز لدين الله - عليه السلام - كان يباشر التدبير بنفسه ، ولا يعول فيه على غيره » .

ولم يلقب بلقب الوزير في عهدي العزيز والحاكم إلا يعقوب بن كلّس وإنما كانت تطلق على وزارة هذين العهدين لفظ « وساطة » أو « سفارة » ، يقول المقرئ : « فلما مات ابن كلّس لم يستوزر العزيز بالله بعده أحداً ، وإنما كان رجل يلي الوساطة والسفارة » فاستقر في ذلك جماعة كثيرة بقية أيام العزيز وسائر أيام ابنه أبي علي منصور الحاكم بأمر الله ، ثم ولي الوزارة أحمد بن علي الجرجرائي في أيام الظاهر ... وما زال الوزراء من بعده واحداً بعد واحد وهم أرباب أقلام حتى قدم أمير الجيوش بدر الجمالي .

وكان وزراء العهد الأول من الحكم الفاطمي - كما يتضح من النص السابق - من أرباب الأقلام . أما وزراء العهد الثاني - أي من وزارة بدر الجمالي إلى وزارة صلاح الدين - فكانوا جميعاً من أرباب السيوف ، أي من رجال الجيش .

وكان زي الوزير من أرباب الأقلام : المناديل الطبقيات بالأحناك حتى حلوقهم ، والثياب القصار التي يقال لها الذرايع وهي مشقوقة امام وجهه إلى قريب من رأس الفؤاد بأزرار وعرى ، ومنهم من تكون أزراره من ذهب مشبك ، ومنهم من أزراره من لؤلؤ ، وهذه علامة الوزارة .

وكانت تحمل للوزير الدواة المحلاة بالذهب من خزانة الخليفة ويقف بين يديه الحجاب ، كما كان امره نافذاً في أرباب السيوف وأرباب الأقلام .

وكان آخر وزير من أرباب الأقلام هو الوزير ابن المغربي ، ثم ولي من بعده أول وزير من أرباب السيوف ، وهو الوزير بدر الجمالي ، وأصبحت الوزارة منذ عهده وزارة تفويض ، وأنشئ له سجل خاص بهذا التفويض جاء فيه :

« وقد قلّدتك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وثا ط بك النظر في كل ما وراء سريره ، فباشر ما قلّدتك أمير المؤمنين من ذلك ، مديراً للبلاد ، ومصلحاً للفساد ، ومدمراً لأهل العناد » ، واصبحت الأمور كلها مردودة اليه ، والاتصال بينه وبين الخليفة اتصالاً مباشراً ، وجعل له تعيين قاضي القضاة وداعي الدعاة ، وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجواهر مكان الطوق ، وزيد له في الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور ، وهو زي قاضي القضاة ...

ولقب بالقاب كثيرة ، منها : كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، وأهم هذه الألقاب : « السيد الأجل » ، أمير الجيوش » ، وهو اللقب الذي توارثه من بعده وزراء التفويض من ارباب السيوف في العهد الثاني من الحكم الفاطمي ..

ولم يحدث أن ولي الوزارة ابنٌ بعد أبيه في العهد الاول ، وإنما حدث هذا في العهد الثاني ، فولي الوزارة بعد بدر الجمالي ابنه شاهنشاه ، فوزر للمستنصر ثم للمستعلي ، وفي عهد هذا الخليفة الاخير لقب شاهنشاه بالأفضل ، واضيف هذا اللقب للوزراء من بعده ..

ومنذ عهد الخليفة الحافظ لقب الوزير بلقب « الملك » ، وأول من لقب به رضوان بن ولّحشي ، فقليل له : « السيد الاجل الملك الافضل » ، وذلك في سنة ٥٣٠ هـ ، ولقب به من أتى بعده من الوزراء ، فقليل للصالح طلائع بن رُزَيْك « الملك المنصور » ، ولقب ابنه رزيك بن طلائع « بالملك العادل » ، ولقب شاور « بالملك المنصور » ، ولقب صلاح الدين - وهو آخر وزراء الدولة « بالملك الناصر » ، وظل يحمل هذا اللقب حتى آخر حياته ، بل لقد أصبح هذا اللقب تقليداً يتبع طول عهدي الدولتين الايوبية والمملوكية ، وإنما للسلطين لا للوزراء .

وخير ما تدل عليه هذه الالقاب أن الوزير في العهد الثاني من الحكم الفاطمي أصبح هو كل شيء في الدولة ، فقد أصبح السيد الاجل ، ثم أمير

الجيش ، ثم الأفضل ، ثم الملك . يقول المقرئزي : « وصار وزير السيف من عهد أمير الجيش بدر إلى آخر الدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد ، وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية » .

وكان من زي الوزير في العهد الثاني الذؤابة المرخاة والطيلسان المقوّر ، وهو زي قاضي القضاة ، كما كان يتقلد السيف وذلك « إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف والأقلام » .

وكان مقرر الوزير في العصر الفاطمي ثلاثة آلاف دينار في الشهر منها ألف وخمسمائة دينار كراتب ، وألف دينار لنيابته في العلامة ، وخمسمائة دينار رواتب لمائة غلام يرسم مجلسه وخدمته ، لكل غلام منهم خمسة دنانير في الشهر ، كما كانت تدر عليه إقطاعاته نحو خمسين ألف دينار في السنة . ولم يكن يسمح لأحد بالجلوس في حضرة الخليفة إلا للوزير ، فكان يجلس على عین الخليفة ، وتطرح له نخدة تشریفاً ، كذلك كانت له مرتبة خاصة معدة لجلوسه عند باب قاعة الذهب من القصر الكبير .

وفي العهد الثاني من حكم الفاطميين بنيت في القاهرة دار خاصة للوزير سميت دار الوزارة الكبرى ، قيل إن الذي بناها هو أمير الجيش بدر الجمالي ، وقيل إنما بناها ابنه الأفضل شاهنشاه - وهو الأرجح - ، وكانت هذه الدار تشتمل على عدة قاعات ومساكن وبستان ، وكان فيها عشرون مقسماً للماء الذي يجري في بركها ومطابخها ، وكان يحيط بها سور من الحجارة . يقول المقرئزي : « وما زال وزراء الدولة الفاطمية أرباب السيوف من عهد الأفضل ابن أمير الجيش يسكنون بدار الوزارة هذه . إلى أن زالت الدولة ، فاستقر بها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب » ، وظلت هذه الدار مقراً لسلطين بني أيوب حتى عهد الملك الكامل محمد فنقل مقر الحكم إلى قلعة الجبل .

وقد كان لسياسة التسامح الديني - التي امتازت بها الدولة الفاطمية - أثرها في اختيار بعض الوزراء أو الوسطاء من المسيحيين واليهود. فمن تولى الوزارة أو الوساطة من المسيحيين : زرعة بن نسطوروس ، وأخوه صاعد بن عيسى ابن نسطوروس - في خلافة الحاكم بأمر الله - ، وأبو سعد منصور في خلافة المستنصر ، ومن تولاهما من اليهود : يعقوب بن كلس في خلافة العزيز وأبو منصور صدقه بن يوسف الفلاحى ، وابن أبي سعد ابراهيم بن سهل التستري - في خلافة المستنصر - غير أن هؤلاء جميعاً لم يلوا الوزارة وهم على دينهم ، بل أسلموا قبيل توليها

مظاهرة النساء في القاهرة^(١)

قبل مظاهرة النساء في باريس بسبعة قرون .

في سنة ١٧٨٩ قام الفرنسيون بثورتهم الكبرى التي غيرت مجرى تاريخ ، وأثّرت في تاريخ العالم اجمع ، فقد حملت الى الشعوب جميعاً المبادئ الانسانية الثلاث : الحرية والاخاء والمساواة .

وحوادث هذه الثورة مليئة بصفحات المجد والبطولة . ولعل أروع هذه الصفحات ما سجله نساء باريس في مظاهراتهن التي قمن بها في ٥ أكتوبر سنة ١٧٨٩ من باريس إلى فرساي ، وقد تقدمت هن فتاة تحمل في عنقها طيلة تدقها منادية « الخبز .. الخبز ... »

عنى المؤرخون والأدباء من كل الشعوب بهذه الصورة فرسموها بأقلامهم بمجدين المرأة الفرنسية وشعورها الوطني ، أما نحن ففي تاريخنا صفحات مجيدة كثيرة لا نعلم عنها شيئاً وإن علمنا فإننا نمر بها مر الكرام دون أن نشيد بها

(١) نشر هذا الفصل في مجلة الثقافة العدد ٦٢٠ ، ١٣ نوفمبر ١٩٥٠

وننشرها لمواطنينا ونستغلها لإذكاء الروح وإحياء النفوس ، كل ذلك لأن تاريخنا القومي لم يكتب بعد .

وإن كان المؤرخون والكتاب قد مجدوا وطنية المرأة الفرنسية وبطولتها وهم يؤرخون لمظاهرة النساء في باريس في القرن الثامن عشر الميلادي فما أحرانا نحن أن نمجد وطنية المرأة المصرية وشجاعتها وقد سبقت أختها الفرنسية بسبعة قرون فقادت مظاهرة القاهرة تنادي نفس النداء «الخبز..الخبز...» ، وكان لهذه الظاهرة أثرها الفعال ، فقد دفعت أولى الأمر الى اتخاذ التدابير الحاسمة لانقاذ الشعب المصري من مجاعة طاحنة كانت توشك أن تقضي عليه .

كانت مصر ولا تزال هبة النيل ، هذا النهر الخالد المبارك الغدوات والروحات ، يحمل الى الوادي المقدس الخصب والري والخير ، وفي سنة ١٥٧ هـ (١٠٦٤ م) - في خلافة المستنصر الفاطمي - قصر النيل في فيضانه ، فقلّت المحصولات واختفت الاقوات - وخاصة القمح والخبز - من الاسواق ، واستغل التجار الجشعون الفرصة كالعادة واختزنوا الغلال والدقيق ليبيعهما في السوق السوداء ، يطلبون بذلك الثراء الحرام الفاحش .

وظل النيل على قصوره سبع سنوات طوالا ، والحالة تتطور من سيء إلى أسوأ ، سنة بعد سنة ويوماً بعد يوم حتى اختفى الخبز تماماً من أسواق القاهرة والفسطاط ، وطلب الناس الرغيف الواحد بخمسة عشر ديناراً (سبعة جنيهات ونصف تقريباً) فما وجدوه ، فأكل المصريون بعضهم البعض الآخر وجمعوا الكلاب والقطط من الطرقات واختطفوا الأطفال الصغار يأكلونها .

ويروي التاريخ ^(١) أن سيدة غنية من نساء القاهرة آلمها صياح أطفالها الصغار وهم يبكون من الجوع ، فلبّأت إلى حجرتها الخاصة وفتحت صندوق

(١) اخذت المادة التاريخية لهذا المقال من كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة لتقي الدين المقرئ » ، وقد قام على نشره كاتب هذا المقال مع الدكتور محمد مصطفى زيادة .

حليها وأخذت تقلب ما به من در ولؤلؤ وذهب وعقيق ، إنها تملك ثروة طائلة. ولكنها لا تستطيع شراء رغيف واحد ، واختارت السيدة من هذه الحلى عقداً ثميناً من اللؤلؤ قيمته ألف دينار وخرجت تطوف به أسواق القاهرة والفسطاط تعرضه للبيع فما رضي أحد أن يشتريه ، وأخيراً استطاعت أن تقنع أحد الباعة. فأخذه منها وباعها به كيساً صغيراً من الدقيق .

واستأجرت السيدة بعض الرجال يحملون لها هذا الكيس من النهاية حتى تصل إلى بيتها ، ولكنها لم تكذب تخطو بعض خطوات حتى هاجمها الجوع من كل ناحية ، فاغتصبوا الكيس وما فيه ورأت هي هذا المنظر فهجمت مع الهاجمين واختطففت لنفسها حفنة من الدقيق وانطلقت تجري بها حتى وصلت إلى دارها .

وآلم السيدة ما حدث ، وأحست في نفسها دافعاً قوياً أن تفعل شيئاً من أجل بلدها وشعبها ، فنسيت أطفالها وجوعهم ، وعجنت هذه الحفنة من الدقيق قرصة صغيرة وخبزتها ثم أخفتها في ملابسها وخرجت إلى الشارع وفي عنقها طيلة كبيرة تدقها وهي تنادي : « الجوع .. الجوع .. الخبز .. الخبز .. » .

والتفت حولها الرجال والنساء والأطفال ، واتخذت الجوع طريقها إلى قصر الخليفة المستنصر . وأعلنت المرأة نهداً من الأرض أمام القصر وأخرجت القرصة من طيات ثيابها ورفعتها في يدها وصاحت : « أيها الناس : فلتعلموا أن هذه القرصة تقومت علي بألف دينار ، فادعوا معي لمولاي السلطان » . وسمع الخليفة صياح الصائحين ، فأطل من شرفته وعلم ما حدث فاشتد به الجزع على شعبه ، وأرسل فاستدعى والي القاهرة ، وأمره أن يتخذ التدابير الحاسمة الحازمة كي تخرج الغلال إلى الأسواق وإلا فصل رأسه عن جسده .

وكان والي ماكرراً ، وزاده الحرص على الحياة مكرراً ودهاء. فخرج في

الحال ، وأرسل فاستدعى جماعة من المجرمين المحكوم عليهم بالسجن سنوات طوالاً ، وألبسهم ملابس التجار الأثرياء وحجزهم في غرفة من داره ، ثم أرسل فاستدعى تجار القمح والدقيق والخبز بالقاهرة والفسطاط فلما تكامل عددهم أمر حاجبه فأحضر واحداً من أولئك المجرمين ، ولم يكد الرجل يدخل وهو يرفل في ثيابه الأنيقة كأنه أغنى التجار وأوسعهم رزقاً حتى فاجأه الوالي بقوله : « ألم يكفك أيها الرجل أن عصيت أمر مولانا الخليفة حتى نهجت الغلال ومنعتها عن الأسواق وتسببت في هذه المجاعة التي كادت تؤدي بالمصريين ؟ » وقبل أن يفيق الرجل من ذهوله ، وقبل أن يفتح فيه للدفاع عن نفسه أمر الوالي السياف فقطع رأسه .

واستدعى الوالي مجرمًا آخر ففعل به ما فعل بزميله . وهنا علت التجار ضفيرة الموت وخرجوا ركعاً يتوسلون إلى الوالي أن يعفو عنهم على أن يخرجوا القمح والدقيق إلى الأسواق في الحال ، وعلى أن يرخصوا الأسعار فيبيعوا الخبز كل رطل بدرهم . ولكن الوالي لم يقبل ، بل طلب اليهم أن يبيعوا كل رطلين بدرهم ، فاسرعوا باجابته إلى طلبه .

وفي ساعات قليلة امتلأت الأسواق بالقمح والدقيق والخبز ووقف الباعة أمام حوانيتهم ينادون على الخبز كل رطلين بدرهم وطعم الشعب وفرح .

وخرجت سيدة الأمس العظيمة - التي لم يحفظ لنا التاريخ اسمها - فقادت مظاهرة أخرى تهزج أهازيج الفرح والسرور وتغني أغاني الشعب والرضى ، وتنشد أناشيد الشكر للخليفة أمير المؤمنين .

شاعر من البيت الأيوبي يموت في سن الشباب

مات نجم الدين ايوب ليلة الثلاثاء سابع عشر ذي الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وترك من الاناث اثنتين ، هما : ست الشام ، وربيعه خاتون ، ومن الذكور ستة ، هم : الملك الناصر يوسف صلاح الدين وهو البطل المعروف مؤسس الدولة الايوبية ، والملك العادل سيف الدين أبو بكر ، وشمس الدولة توران شاه - وهو أكبرهم - وشاه شاه ، وسيف الاسلام 'طفنتكين' ، وتاج الملوك بوري وهو أصغرهم .

وقد كان لكل واحد من هؤلاء الذكور شأن اي شأن في التاريخ ، فأسس صلاح الدين دولة حكمت مصر والشام والنوبة والمغرب واليمن ، وخلف العادل أولاد صلاح الدين وحكم هذه الامبراطورية (٥٩٦ - ٦١٥) ، وفتح ثالثهم توران شاه اليمن وحكمها (٥٦٩ - ٥٧٧) وخلقه في ولاية اليمن - بعد موته - أخوه 'طفنتكين' (٥٧٧ - ٥٩٣) ، أما شاه شاه فكان من قواد

نور الدين ، وقتله الفرنج سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة « لما كانوا منازلين دمشق^(١) .

وحديثنا في هذا الفصل عن أصغر هؤلاء الاخوة الأجداد تاج الملوك بوري ابن أيوب .

ولد بوري في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة ، ونشأ في كنف الدولة النورية ، وفي رعاية أب وإخوة كلهم رجال حرب ونضال ، فلا عجب أن ترعرع شاباً موفور الصحة ، كامل النشاط ، شجاعاً مقداماً طموحاً للمجد ، وكان إلى هذا « مليح الأعطاف ، عذب العبارة ، حلو الفكاهة ، مليح الرمي بالقوس ، والطعن بالرمح ، شجاعاً بأسلاً ، مقداماً على الأهوال ، وكان قد جمع إلى ذلك الكرم ، والتفنن في الأدب^(٢) .

ويتفق مؤرخو الدولة الأيوبية جميعاً على مدح تاج الملوك ، ونعتيه بهذه السجايا وكثير غيرها . والحقيقة أنه كان أحد أرباب السيف والقلم ، ولو قدر له أن يمتد به العمر لبنة إخوته وأبناء عمومته ، فقد كان بطلاً صنديداً وشاعراً ممتازاً ، ولكنه لقي حتفه ولما يتم الثالثة والعشرين من عمره ، بعد أن أصيب في حومة الوغى ، وبعد أن ترك لقراء العربية ديواناً يضم ما قاله من شعر تغلب عليه العاطفة الجامحة المحلقة ، ولا غرو فقد نظم شعره هذا وهو في ميعة الصبا وريعان الشباب .

حدث نزاع بين صلاح الدين وعماد الدين زنكي ابن سيده نور الدين ، وتحصن عماد الدين بقلع حلب ، وأكثر من الجند ، ورام مقاتلة صلاح الدين ، ولكن السلطان الأيوبي كان حفاظاً للجميل ، فدبّر في نفسه أنه يستطيع الاستيلاء

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ١١ أ ، وهو مخطوط مجهول المؤلف ومنه صور شمسية بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٤٠٣١ .

(٢) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ .

على حلب دون قتال ، « ولكن الشباب وجهال الأصحاب راموا القتال ، وأحبوا النزال ، وتقدموا وأقدموا ، والسلطان ينهزم فلا ينتهون ، وكانت فيهم تاج الملوك بوري أخو السلطان ، فطعن في فخذ^(١) » .

فمن هذا يتبين أن تاج الملوك كانت تدفعه حماسة الشباب وفورته إلى الإقدام والمخاطرة ، بل لقد كان دائماً في مقدمة الجيش إذا حارب ، وإلى القارىء وصف القاضي الفاضل لبوري وشجاعته من كتاب له :

« نزلنا تل خالد يوم الثلاثاء ثاني عشر المحرم ، وكان قد تقدمنا لأجل تاج الملوك إليها ، وأننا عليها ، وقابلها وقتلها ، وعالجها ولو شاء لعاجلها^(٢) » .

وبعد الاستيلاء على تل خالد تقدمت الجنود الأيوبية وفي مقدمتها تاج الملوك نحو حلب ، ونزلوا خارجها في سادس عشر المحرم سنة ٥٢٩ وفي نفس اليوم أصيب في ركبته إصابة خطيرة .

ولما أحاطت جند صلاح الدين بحلب تحقق عماد الدين أنه ليس له قبل بها ، وسفر بينه وبين صلاح الدين الأمير حسام الدين طمان ، فاتفقا على أن تسلم حلب للسلطان على أن يعطى عماد الدين سنجار . وأعد صلاح الدين وليمة لابن زنكى ، وبينما هما في سرور والجند حولهما يأكلون ما لذ وطاب ، ويتبادلون الشهي من الحديث إذ حضر أحد الحجاب فأسر إلى صلاح الدين خبر وفاة أخيه تاج الملوك متأثراً بالجرح الذي أصابه ، فلم يزد صلاح الدين على أن قطب وجهه ثم بش ثانية ، وعاد إلى ما كان عليه . ولم يتغير لذلك ولا اضطرب ، ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح . وبذل الاحسان ، وأمر بستر ذلك ، وتوعد عليه إن ظهر ، وكظم حزنه ، وأخفى رزيته ،

(١) الروضتين ج ٢ ص ٤٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

وصبر على مصيبتيه ، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر ، (١) ،
فانقض الجمع ، وتفرق الجند ، وانفرد صلاح الدين بخصاسته ، واسترجع
الحادث ، وبكى حزناً على أخيه ، فكان كما كان دائماً عند ملاقاته الخطوب ،
ومقابلة الأرزاء ، جليداً صبوراً ، بطلاً كظيماً لأله وحزنه ليسر الغير
ويسعدهم .

هذا هو صلاح الدين تزينه أخلاق الملوك ، وهذا هو أخوه بوري الجندي
والقائد . أما بوري الشاعر فقد ترك لقراء العربية ديواناً فياضاً بالعواطف
(هذا الديوان مفقود الآن) تقتبس كتب التاريخ التي ترجمت له بعض أبياته ،
ومن دراستها نستطيع أن نحكم أنه كان شاعراً فذاً ، موفور الذكاء ، فياض
الشعور ، خفّاق القلب ، عذب اللفظ ، حلو الحديث ، محباً يحيد وصف ما
يخس من ألم البعد ولذعة الصد ، وكان بوري أيضاً يحب مصر وغيد مصر ،
ويفضل نيلها وماءه على الفرات ومائه إذ يقول :

شربت من الفرات ، ونيل مصر أحب إليّ من ماء الفرات
ولي في مصر من أصبو إليه ، ومن في قربه أبداً حياتي
فقلت وقد ذكرت زمان وصل تماضى بعده روح الحياة
أرى ما أشتهيه يفر مني ، وما لا أشتهيه إلي يأتي (٢)

وأكثر ما يقول بوري في الغزل ، فمنه قوله :

يا هذه وأماي النفس قريبكم ، يا ليتها بلغت منكم أمانها
إن كانت العين منذ فارقتم نظرت إلى سواكم ، فخانتها أمانها (٣)
وينقل عنه صاحب الشفاء هذين البيتين ، ويُعلق عليها بقوله : « وإثمه

(١) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ والشفاء ص ١٤ أ .

(٢) الشفاء ص ١٢ أ .

(٣) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ .

عليه ساحه الله :

يا غزالا يُميتُ طوراً وُيحيى ، وهو برؤ السقامِ سقم الصحيح
هذه المعجزات ليست لظيِّ إنما هذه فعالُ عيسى المسيح^(١)

وقريب من هذا المعنى ويزيد عليه وصفه للحبيب في قوله :

يا حياتي حينَ يرضى ، ومماي حين يسخط
آه من وردٍ على كُخذٍ يثك بالمسك منقط
بين أجفانك سلطانٌ على ضعفي مسلط
قد تصبَّرتُ وإن برَّح بي الشوقُ وأفرط
فلعلَّ الدهرَ يوماً بالتلاقي منك يفلط^(٢)

وقد كان حياة الجنديّة التي عاشها بوري أثر بالغ في شعره ، فهو يكثر من استعمال ألفاظ الحرب كالسيف ، والعضب ، والرمح ، والطنع ، والضرب ، ومن ذلك قوله : —

أيا حامل الرمح الشبيه بقده ، ويا شاهراً سيفاً حكى لحظه عضبا
ضع الرمح واغمد ما سللتَ فربما قتلت ، وما حاولت طعناً ولا ضرباً^(٣)
وقوله : —

بليتُ بمن لا يعرف العطفَ قلبه ولا يسمع الشكوى لمن كان شاكياً
من الترك مياس القوام كأنه يجرّد لي لحظاً من السيف ماضياً
يعانديني فيه الزمانَ تعمداً ، فيا عجباً ما للزمان وما ليا
يخالفني في كل شيء أريده ، فلا القلب مسروراً ولا العيش صافياً

(١) الشفاء ص ١٣ أ .

(٢) ابن خلكان ، الوفيات ، طبعة رفاعي ج ٣ ص ٨٩ .

(٣) الشفاء ص ١٣ أ ، وابن خلكان المرجع السابق نفس الصفحة .

فلولا شقائي ما بليتُ بخائن عهودي، ولا صافيت من لا صفاليا
ولاني لاستشفي من الموت بالردى ، وحسبك داء أن ترى الموت شافيا^(١)
ويبدو أنه قال هذه الأبيات قبيل موته ، فإن صاحب الشفاء يُعقَّب
عليها بقوله : « وكان فالاً عليه » .

كذلك ملك ركوب الخيل على تاج الملوك لبته وقلبه في ميداني الحرب
والحب ، رأى أحد مماليكه مقبلاً من ناحية المغرب وهو يركب فرساً أشهب
فقال : —

أقبل من أعشقه راكباً من جانب الغرب على أشهب
فقلت : سبحانك يا ذا العلا أشرقت الشمس من المغرب^(٢)

ومات بوري كما ذكرنا ثالث. عشرين صفر سنة ٥٧٩ هـ. عن اثنتين وعشرين
سنة وأيام . وبكاه صلاح الدين بعد انتهاء الحفل وهو يقول : « ما وقت
حلب بشجرة من أخي تاج الملوك بوري » ، وكان يقول أيضاً : « ما أخذنا
حلب رخيصة^(٣) » ، وأمر به ففُسل ودُفن بمقام إبراهيم بظاهر حلب ، ثم
حمه بعد ذلك إلى دمشق ودفنه بها .

(١) الشفاء ص ١٣ ب .

(٢) ابن خلكان ، المرجع السابق ص ٨٨ .

(٣) الشفاء ص ١٤ أ وابن خلكان ص ٩١ وأبو المحاسن ، التجوم ج ٦ ص ٩٥ .

ابن عنين^(١)

٥٤٩ - ٦٣٠ هـ .

الشاعر الوحيد الذي هجا البطل صلاح الدين

حياة الشاعر ابن عنين أعجوبة من الأعاجيب ، فهو رجل طوَّف شمالاً وجنوباً وشرقاً ، أصله من دمشق ، وجاب بلاد المشرق ، فزار العراق والجزيرة وخراسان وأذربيجان وخوارزم ، حتى إنه ليقول :

أشقق قلب الشرق حتى كأني أفتش في سودائه عن سنا الفجر
وارتحل إلى مصر ، ومنها إلى اليمن ثم الهند ، وعاد من الهند إلى مصر ، وترك مصر إلى وطنه .

كان شاعراً مجيداً قال في الخمر والغزل والوصف والدعابة والفخر ، ومدح كثيراً ، ولكنه كان مولعاً بالهجاء وبه اشتهر ، واشتغل بالتجارة ، ثم اتصل في آخر حياته ، بالمعظم عيسى بن العادل أبي بكر في دمشق ووزر له .
وعرف عنه حبه لابنة العنقود ، وقيل انه يُنخل بالصلاة ، ورُمي بالزندقة ،

(١) نشر هذا الفصل في « مجلة الثقافة » العدد ٢٥٤ ، ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٣

ولكنه اتصل بالإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي، وتلمذ له ومدحه، وتاب في السنين الأخيرة من حياته ، وبني مسجداً دُفن فيه بعد وفاته .

هو أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن نصر بن الحسين بن عـنـين الأنصاري الملقب شرف الدين^(١) ، أصله من الكوفة من الحطة المعروفة بمسجد ابن النجار^(٢) ، وولد في دمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسة .

لا نعرف شيئاً كثيراً عن نشأته الأولى أو عن المعاهد التي تلقى العلم فيها، أو الأساتذة الذين تتلمذ عليهم ، وكل ما يذكره عنه المؤرخون أنه كان : « من أفاضل العصر لغوياً أديباً شاعراً مجيداً » وأنه كان غزير المادة من الأدب مطلعاً على معظم أشعار العرب ، وأنه « أخذ عن الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وغيره وهو يستحضر كتاب الجهرة لابن دريد وبرع في الشعر وحل الألغاز » وأنه « كان من أظرف الناس وأخفهم روحاً وأحسنهم مجوناً » .

ويبدو أيضاً أنه لم يقتنع بهذا القدر من الثقافة ، فارتحل — شأن العلماء في ذلك العصر — إلى العراق والجزيرة وخوارسان وأذربيجان وخوارزم ، فاتصل بمشايخ تلك الأقطار وعلمائها وشعرائها وأدبائها ، وتعدل سيرته على أنه كان ذكياً ممتازاً في ذكائه ، نشيطاً موفور النشاط ، ولعله عاد بعد هذه الرحلة واسع العلم غزير المادة ، فحاول أن يتخذ لنفسه مقاماً علياً بين قومه في دمشق ، وكان قد تركهم وهو نكرة لا يلتفت إليه إنسان فأبوا عليه

(١) انظر ياقوت ، معجم الادباء، ج ١٩ ص ٨١ طبعة دار المأمون ، وابن خلكان، وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٥ - المطبعة النيمية - القاهرة سنة ١٣١٠ هـ .

(٢) ياقوت المرجع السابق نفس الجزء ص ٨١ - ٨٢ وابن خلكان المرجع والجزء السابق ص ٢٥ و ٢٧ وان كان ابن تغوي بردي ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٩٣ يذكر أن أصله من حوران .

سعيه ، فاستثار هذا الإباء عنده غريزة الدفاع عن النفس وانطلقت شاعريته ،
وهجا فأقذع في الهجاء .

وكان صلاح الدين بن أيوب قد قضى على دولة بني فاطمة في مصر ، وبدأ
يكون لأسرته فيها دولة جديدة ، فاجتذبت هذه الدولة الفتية الشاعر المقتن
ابن عنين إليها ، كما اجتذبت غيره من الشعراء والفقهاء والصوفية والقادة
والوزراء ، فارتحل إليها ينشد مجداً وجاهاً وثراء ، ولكن صلاح الدين لم
يكن خلي البال ليتخذ لنفسه بطانة من الشعراء ، فأعرض عن ابن عنين ومن
شابهه من الشعراء والندماء ، الذين كانوا يطعمون أن يصدق عليهم العطاء ،
كعمارة اليمنى مثلاً ، فقد كانت في مصر ثلة من بقايا الدولة الفاطمية المحتضرة
تود أن تقضي عليه وأن تعيد الحياة إلى الدولة التي زالت ، ليعود إليها هي
أيضاً مجدها .

وكان على القرب منه في بلاد الشام الصليبيون رابضين متحفزين ، فعقد
العزم ، وأخلص النية أن يعد الجهد كله والفكر كله والمال كله للقضاء على
هذين الخطرين . لهذا نجد اليأس يتسرب إلى نفس عمارة - بعد سمي ملح
ليكون من رجال صلاح الدين - فينضم إلى أعدائه في مصر ، ويشترك في
مؤامرتهم التي يفتضح أمرها ، فيقضي عليه بالشنق ، أما ابن عنين فكان
أقل جرأة ، فاتخذ من لسانه سلاحاً يهاجم به صلاح الدين ورجال دولته
فيقول (١) :

سلطانا أعرج ، وكاتبه أعشى ، والوزير منحذب
وصاحب الأمر خلقه شرس ، وعارض الجيش داؤه عجب

(١) ابن الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، ص ١٥ به ، منه صور شمسية في
مكتبة جامعة فؤاد الاول ، وانظر أيضاً ابن تقوي بردي ، المرجع والجزء السابق ص ١١٣ ،
وابن خلكان ، المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة حيث يذكر أن السلطان نكاه من دمشق
بسبب وقوعه في الناس - وعندي أن الرأي الأول أرجح .

والدولعي الخطيب منقلب وهو على قشر بيضة يثيب
ولابن باقي وعظ يغر به الناس ، وعبد اللطيف محتسب
وبلغ هذا القول صلاح الدين فنفاه إلى الهند ، فأذعن وسافر ، ولكنه
أرسل إليه هذين البيتين :

فَعَلَّامَ أَبْعَدْتُمْ أَخَا ثَقَةٍ ، لم يقترف ذنباً ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم ، إن كانت يُنفى كل من صدقا
واشتغل في الهند بالتجارة ، وأفاد منها ، ولكنه كان شديد الحنين إلى
وطنه دمشق ، وإلى أهله ، فكان يقول فيها الشعر الكثير ، فمن ذلك قصيدته
الطويلة في دمشق التي مطلعها :

ألا يا نسيمَ الريح من قلِّ راهطٍ وروض الحمى كيف اهتديت إلى الهند؟
ومنه هذان البيتان أرسلهما إلى أخيه :

سأحت كتبك في القطيعة عالماً أن الصحيفة لم تجد من حامل
وعذرت طيفك في الجفاء لأنه يسري فيصبح دوننا بمراحل
والبيت الثاني للمعري استعمله هنا مضمناً هذا التضمين اللطيف .

ولما اشتد به الحنين إلى وطنه احتال للعودة ، فغادر الهند إلى اليمن
واتصل هناك بسلطانها الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخي
صلاح الدين - (ولي اليمن من ٥٧٧ - ٥٩٣ هـ) ومدحه بغرر القصائد ،
فأحسن إليه وأجزل صلته ، واكتسب من جهته مالاً وافراً وخرج به من
اليمن ، فلما وصل إلى الديار المصرية وسلطانها يومئذ الملك العزيز عماد الدين
عثمان بن السلطان صلاح الدين ، (حكم مصر من ٥٨٩ - ٥٩٤ هـ) ألزمه
أرباب ديوان الزكاة بدفع الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته ، فقال في
ذلك : -

ما كلُّ من يتسمّى بالعزیز لها أهلٌ، ولا كلُّ برقٍ سُحبُهُ غَدِرَقَه
 بین العزیزین بَوْنٌ في فعالها ، فذاك يُعطى ، وهذا يأخذ الصدقة
 ويتضح من هذه الرواية أن ابن عنین بقي في اليمن ولم يفكر في العودة
 إلى مصر ، أو إلى دمشق خوفاً من صلاح الدين ، فلما علم بوفاته جمع ماله
 ومتاعه ومتاجره وعاد إلى مصر عن طريق الحجاز^(١)، ولكنه لم يلقَ من ولد
 صلاح الدين ، أو على الأصح من حكومته خيراً مما لقي من صلاح الدين نفسه ،
 غير أن العزیز عثمان لم يعمر بعد ذلك طويلاً ، ومات سنة ٥٩٤ هـ وخلفه ابنه
 الملك المنصور محمد ، ثم أتى من بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب فتولى
 عرش مصر سنة ٥٩٧ هـ .

وطمع ابن عنین في نخل العادل وعطفه ، وكان رجلاً سياسياً داهية يبغي
 كثيراً لتتألف القلوب ، وكان ابن عنین قد غاب عن وطنه دمشق وعن أهله
 وأصدقائه سنين طويلة، وأحسَّ الشوق الشديد إلى العودة إلى مسقط رأسه ،
 ولهذا نرى قصيدته التي أرسلها إلى العادل يستعطفه ويستأذنه في العودة إلى
 الشام جميلة كل الجمال ، رقيقة غاية الرقة ، قوية بالغة في القوة فهو يبدوها
 بهذا الغزل اللطيف :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى؟ وعليهم لو ساءحوني بالكرى
 جنحوا إلى قول الوشاة وأعرضوا والله يعلم أن ذلك مفترى
 يا معرضاً عني بغير جنابةٍ إلا لما نقل العذولُ وزوراً ...
 هبني أسأتُ كما يقول ويفترى ، وأتيت في حبيك شيئاً منكراً
 ما بعد بعدك والصدود عقوبة يا هاجري ما آن لي أن تغفرا
 لا تجمعن عليَّ عتبك والنوى ، حسب الحب عقوبة أن تهجرا
 عبء الصدود أخفُّ من عبء النوى
 لو كان لي في الحب أن أتخيراً

(١) ياقوت ، المعجم ١٩ / ٨٢ .

ثم ينتقل من هذه الديباجة الجميلة إلى هدفه الأصلي فيقول :
فسقى دمشق وواديا والحمى متواصل الإرهام منقصم العرى
إلى أن يقول :

أرضٌ إذا مرت بها ريحُ الصبا حملت على الأغصان مسكاً أذفرا
فارقتُها لا عن رضا ، وهجرتها لا عن قلى ، ورحلت لا متخيرا
أسمى لرزقي في البلاد مشقتي ، ومن العجائب أن يكون مقترا (١)
وأصون وجه مدائحي متقنعا ، وأكف ذيل مطامعي متسترا (٢)

ثم ينتقل من هذا إلى الشكوى ومديح العادل فيقول :

أشكو إليك نوى تمادى عمرها ، حتى حسبت اليوم منها أشهراً
لا عيشتي تصفو ، ولا رسم الهوى يعفو ، ولا جفني يصفحه الكرى
ومن العجائب أن يُقيل بظلمكم كل الورى ، ونبتت وحدي بالعرى

ويقول ابن خلكان (الوفيات، ج ٢ ص ٢٦) : « وهذه القصيدة من أحسن الشعر ، وعندى هي خير من قصيدة أبي بكر بن عمار الأندلسي التي أولها « أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... الخ »

ولكن ابن عنين لم يكده يستقر في دمشق حتى عادت إليه طبيعته الجارحة الشموس فبدأ يعتز بنفسه ويهجو فقال :

هجوت الأكابر في جلّقي ، ورعت الوضيع بسب الرفيح
وأخرجت منها ، ولكنني رجعت على رغم أنف الجميع
وتمادى في الهجاء حتى هجا الملك العادل نفسه بقوله :
إن سلطاننا الذي نرتجيه واسع المال ضيق الإنفاق

(١) ر (٢) لعل في هذين البيتين تأييداً لرأينا الذي أبديناه في أول المقال .

هو سيفٌ كما يقال ، ولكن قاطعٌ للرسوم والأرزاق ...

وهجا أناساً كثيرين من خيرة رجال الدولة كالمحدث الفاضل بن دحية الكلبي . ودفعته طبيعته الثائرة إلى نظم قصيدة طويلة كلها هجاء مقذع ، وسماها « مقراض الأعراض » تفنن فيها كما يقول ياقوت « بأساليب السب والثلب » فأورد ما لا يحسن إيراده .

وتتابعت السنون ، وخفت حدة ابن عنين ، وقلَّ هجاؤه ، واستقر في دمشق ، وإن كان يغادرها أحياناً إلى بلدان أخرى قريبة ، ولكنه كان لا يلبث أن يعود إليها ، وقد اتصل في هذه الرحلات القصيرة في تلك الفترة من الزمن بالإمام فخر الدين الرازي ، وحضر مجالسه وحلقات درسه وتلمذ عليه ومدحه مدائح كثيرة^(١) .

وتتابعت السنون ثم تتابعت ، والكبر ينال من ابن عنين ويفل من شوكرته ، ويضعف من قوته ، فهذه سنة ٦١٦ هـ . وقد بلغ ابن عنين السابعة والستين من عمره . — وقد مات العادل أبو بكر ، وانفرد ابنه المعظم عيسى بحكم دمشق ، وحدثت بينه وبين القاضي الوقور زكي الدين وحشة ، فأراد أن ينال من مقامه فأرسل إليه بقعة فيها قباء وكلثوث (وهما من ملابس الجند) ، وأمره أن يحكم بين الناس وهما عليه ، « فلبسها من خوفه » ، ولكن هذا الحادث آذى القاضي ونال منه ، فمرض ، ويعقب صاحب شفاء القلوب على هذا بقوله^(٢) : « وكان ابن عنين الشاعر قد تزهد ، فبعث إليه المعظم قنينة خمر ونرداً ، وقال : سبح بهذه » فقال ابن عنين في ذلك :

(١) ياقوت ، المعجم ، ج ٩ ص ٨٢ - ٨٣ و ٨٨ وابن خلكان ج ١ ص ٤٧٤ - ٤٧٥ و ج ٢ ص ٢٦ ، وانظر السبكي ، طبقات الشافعية ، المطبعة الحسينية بالقاهرة ج ٥ ص ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ .

(٢) ص ٧٧ أ وقد روى هذه القصة كذلك السبكي - طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ٨٨ عند ترجمته للقاضي زكي الدين .

يا أيها الملكُ المعظمُ سنّةٌ أحدثتها تبقى على الآباد
تجري الملوك على طريقك بعدها: خِلَعُ القضاةِ و'تحفة' الزهاد
فأين هذا من هجائه العنيف للبطل القديس صلاح الدين وللحاكم الداهية
القدير العادل أبي بكر .

٦١٧ - ٦١٨ هـ . وعجلة الزمن تدور ، وبلغ ابن عنين التاسعة والستين
من عمره ، ولكن روحه لا زالت قوية تحس معاني الجهد وتمتدّ بنصر المسلمين
أقوى وأشدّ اعتزاز ، فقد وصلت أخبار انتصار المسلمين بقيادة الملك الكامل
محمد عند دمياط ، فكان ابن عنين أول المهثين ، وكانت قصيدته درة الدرر
يومذاك ، نقرأها فنحسّ أن قائلها شاب باسل في عنفوان شبابه خاض غمار
الوغي وامتطى صهوة الجياد ، وامتشق الحسام ، استمع إليه وهو يقول^(١) :

سلوا صهوات الخيل يومَ الوغي عنّا إذا جهلت آباتنا والقنّا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جَحْفَلَا من الروم ، لا يُحصي يقيناً ولا ظنّاً
قد اجتمعوا رأياً وديناً وهمةً ، وعزماً ، وإن كانوا قد اختلفوا سِنّاً
تداعوا بأنصار الصليب ، وأقبلت جموعٌ كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرورٌ ، فأرقلوا إلينا سراعاً بالجهاد وأرقلنا
فما برحت 'سمر' الرماح تنوشهم بأطرافها ، حتى استجاروا بنا مِنّا
إلى أن يقول :

سرى نحو دمياط بكل سميعٍ إمامٌ يرى حسن الثنا المغنم الأسنى
مآثرُ مجدي خدرتها سيوفه ، طوال المدى ، يفني الزمان ولا تفنى
وقد عرفت أسياقنا ورقابهم مواقعها منا ، فإن عاودوا عُدنا
منحناهم منا حياةً جديدةً فعاشوا بأعناقٍ مقلدةٍ منا

(١) شفاء القلوب ص ٨٣ أ و ٨٣ ب ، والسلوك المقريري نشر الدكتور زيادة ، ج ١
ق ١ ص ٢١١ .

ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا - ولو غة ، ولكنا ملكنا فأسجحننا

ويبدو من هذه القصيدة أن العلاقة بين ابن عنين وبني أيوب قد تحسنت . ،
وحل الصفاء محل الجفاء ، فقرّبه المعظم عيسى إليه ، وأرسله في سفارات
له ، فابن خلكان يروي أنه قابل ابن عنين في مدينة إربل سنة ٦٢٣ هـ ولم
يأخذ عنه شيئاً ، « وكان قد وصل إليها رسولا عن الملك المعظم شرف
الدين عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق » ، ثم يقول في آخر ترجمته
لابن عنين : « وتولى الوزارة بدمشق في آخر دولة المعظم ومدة
ولاية الملك الناصر بن المعظم (٦٢٤ - ٦٢٦ هـ .) » ، وانفصل منها لما
ملكها الأشرف (أي سنة ٦٢٦ هـ .) ، وأقام في بيته ، ولم يباشر بعدها
خدمة^(١) .

لا زالت عجلة الزمن تدور ، ولكنها دورات بطيئة مسرفة في البطء :
٦٢٧ - ٦٢٨ - ٦٢٩ ، وفي سنة ٦٣٠ بلغ ابن عنين الحادية والثمانين من عمره ،
وبلغ الكتاب أجله ، فانتقل الشاعر إلى جوار ربه في التاسع من شعبان من
تلك السنة ، ودفن بمسجده الذي بناه بأرض المزة وهي قرية على باب دمشق ،
قال ابن الدبيشي : « زرت قبر بلال مؤذن رسول الله ﷺ بمقابر باب الصغير
ظاهر دمشق ، فلما خرجت من تربته ، وجدت على الباب قبراً فقيل لي هذا
قبر ابن عنين ، فوقفت وترجعت عليه^(٢) » .

هذا ولم يعرف عنه أنه ألق أو قال غير الشعر ، وإن كان ابن خلكان

(١) الوفيات ، ج ٢ ص ٢٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦ - ٢٧ .

يقول : « ولم يكن له غرض في جمع شعره ، فلذلك لم يدونه ، فهو يوجد مقاطيع في أيدي الناس ، وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً لا يبلغ عشر ما له من النظم ، ومع هذا ففيه أشياء ليست له^(١) » .

(١) ابن خلكان ، الوفيات ج ٢ ص ٢٧ ، وقد نشر مقالنا هذا لأول مرة في ١٩٤٣ ، وفي سنة ١٩٤٦ نشر ديوان ابن عنين نشرة علمية محققة ، عنى بنشره وتحقيقه المرحوم خليل مردم بك ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

الجاناسوسية. في حروب بني أيوب

منذ أقدم العصور وتاريخ الحرب يصاحب تاريخ الإنسانية ، وكان قواد الجيوش في كل حقبة من حقبة التاريخ يعتمدون - لإحراز النصر - على الجاسوسية أكثر مما يعتمدون على الخطط الحربية وإعداد الجيوش . فالجواسيس هم الذين يزودون الخصم بمواطن الضعف في جيش خصمه ونواحي النقص في جنده وسلاحه ، وهم الذين يدعون له في نفوس الشعب الذي يحاربه ، ويمهدون له السبيل ليسهل عليه النصر ، وهم أخيراً الذين يقدمون للقواد الوصف المسهب لأصلح الطرق وأقربها وأوهنها لتسير الجيوش عبرها .

ولقد كان تاريخ ملوك بني أيوب جميعاً تاريخ حرب وجهاد فسطح نجم مؤسس الدولة صلاح الدين في ميادين القتال ، وظل خلفاؤه جميعاً في نضال يتممون رسالته ، وقضى آخر عظيم منهم وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو يبذل الجهد أكبر الجهد لصد الفرنسيين عن مصر . وفي تراجع هؤلاء الأفاضل صفحات مجيدة من تاريخ الجاسوسية فيها صور واضحة لما كان يسديه جواسيس المسلمين من خدمات جليلة إلى جيوشهم ، كان لها دائماً فضل

كبير في كسب المعارك وإحراز النصر ، وسنحاول في هذا الفصل عرض بعض هذه الصور :

كان الصراع على أشده بين جنود المسلمين وجنود الصليبيين في الشام ، وأعدّ صلاح الدين لعدوه ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل ، وحشدت أوروبا رجالها وصفوة شبابه وأرسلتهم وفوداً بعد وفود يقودهم جميعاً أعظم ملوك هذه القارة .

وفي سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) حاصر الفرنج ثغر عكا براً وبحراً واشتدوا في حصارها وضيقوا عليها الخناق نيفاً وسنتين ، ولاقى المسلمون داخل حصونها المحن والشدائد وهم يجاهدون في سبيل الله . وقلق صلاح الدين فكان دائم التفكير في أخوته سكان عكا من أهلين وجنود ، فكان يرسل إلى مصر يأمر رجاله بها أن يبعثوا إلى عكا بالسفن محملة بالقوت والذخيرة ، وخرجت هذه السفن تحميها شواني الأسطول المصري ، وحملت إلى المحاصرين الزاد والمؤونة ، وكان صلاح الدين يختار من العوام من اشتهر بالمهارة في السباحة يحملهم المال والكتب يربطونها على أوساطهم ثم يعومون بها إلى أن يصلوا عكا ويعودون إلى قائدهم البطل بأجوبة الرسائل وأخبار المدينة وأهلها وجنودها .

وكان في معسكر صلاح الدين جندي شغف حباً بتربية الحمام الزاجل يرسله ليطير ويطوف بخيمته ، وأقام له برجاً من خشب ليرتحل طول نهاره ثم يعود فيحط عليه ، فكان صحبه من الجنود يتندرون عليه ويقولون: ما لهذا الرفيق يولع بما لا فائدة فيه. وطائل تحته ، فلما كان هذا الحصار المضروب حول عكا أفاد هذا الحمام كل الفائدة ، فكان يطير بالرسائل بين السلطان وجند المسلمين داخل أسوار عكا ، فساعده هذا على معرفة أخبار العدو تباعاً ، فكان يدبر له الخطط التي تقصد عليه ما يبذل من جهد لتضييق الحصار على المدينة .

وكان أجراً هؤلاء الساجين بين معسكري المسلمين مسلم من أهل الساحل

اسمه عيسى ، وهب نفسه للجهاد ، فكان يخاطر بروحه ويلقي بنفسه في الم
فيتخذ طريقه في البحر سرياً بين سفن العدو المحاصرة للمدينة يحمل إلى مسلمي
عكا المال والرسائل ، وكان إذا ترك البلد عائداً أطلق الحمام بالرسائل تفيد
خبر رحيله ، ولكنه عام مرة ليلاً نحو عكا وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها
ألف دينار وكتب للعسكر ، ومضت أيام وقد أبطأ في العودة والمسلمون
يرتقبون على الشاطئ أن يروه كالعادة يغالب الموج في عودته ظافراً بأخبار
المدينة والبشر والفرح يطفحان على وجهه - ولكنه لم يعد ، وتقوّل عليه
البعض وتناولته الظنون أن يكون قد خان جيشه ودينه .

ولكن عيسى كان أنبل نفساً وأقوى روحاً ، فقد قضى عليه البحر
ومات شهيد الواجب والجهاد وظلت الأمواج تتقاذفه حتى القته بعد أيام على
ساحل عكا والأموال والرسائل كما هي على وسطه لم يمسه إنسان .

وفطن الفرنج لهؤلاء السابحين وحاولوا ان يفسدوا على المسلمين طريقهم في
استطلاع أخبار المدينة ، ويقضوا على هؤلاء الجواسيس فنصبوا الشباك في
البحر ، فكان إذا خرج سابح وقع فيها ، فقبض على البعض بهذه الطريقة
وتخوّف، البعض الآخر فامتنعوا عن السباحة وأحجموا عن المخاطرة بأرواحهم .

واشتد الضيق ثانية بأهالي عكا وانقطعت أخبارهم عن السلطان ، وبعث
قراقوش - والي المدينة والمدافع عنها - على أجنحة الحمام يشكو قلة الميرة ،
فليجأ صلاح الدين إلى طريقة أخرى تعتبر في الحق من أحدث طرق الجاسوسية :
أعدّ للسلطان بطسة (سفينة) كبيرة وملاها بنقر من نصارى بيروت الذين
أسلموا ، فأمرهم فتزيوا بزي الفرنج ، وحلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على ظهر
البطسة ورفعوا الصليبان ، وخرجت السفينة بهم ، فاعترضتها سفن الفرنج
وحسبوها من سفنهم فقالوا : « نراك قاصدين البلد ؟ » - قالوا : - « أو
ما أخذتموه بعد ؟ » قالوا : « لا » - قالوا : « وراءنا بطسة أخرى

ردوها ، ، فذهبوا عنهم فردوا القلاع إلى البلد ودخلوا الميناء (عكا) ،
وكبر المسلمون^(١) .

هذا ما حدث إبان حصار عكا في عهد صلاح الدين ، وشبهه به ما حدث
سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) عند حصار الفرنج لمدينة دمياط في عهد الملك
الكامل الأيوبي ، فقد أحاطوا في هذه السنة بالثغر المصري ، وأهله يدافعون
عنه الدفاع المجيد ، ويبذلون الأرواح فداءً لبلدهم ، مع قلة الأوقات وغلاء
الأسعار .

وكان الملك الكامل يعسكر يحيشه جنوب المدينة ، وتحایل ليعرف
أخبارهم ، فلم يستطع حتى تقدم له رجل أصله من بعض قرى حماة واسمه علم
الدين شمائل ، وسعى حتى صار يخدم في الركاب السلطاني جانداراً « فكان
يخاطر بنفسه ويسبح في النيل - ومراكب الفرنج به محيطة ، والنيل قد
امتلات به شواني الفرنج - فدخل إلى مدينة دمياط ويأتي السلطان بأخبار
أهلها . فإذا دخل إليها قوًى قلوب أهلها ، ووعدهم بقرب وصول النجيدات^(٢) .
وقد أعجب السلطان به ويجرأته فشمله بعنايته ورقاه حتى صار أمير
جانداره ، ثم عينه أخيراً والياً على القاهرة .

ويقول صاحب شفاء القلوب إن المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر
كان يختار الجواسيس - أثناء جهاد الأيوبيين ضد الصليبيين - ليأتوه بالأخبار ،
وكان هؤلاء الجواسيس - شأن الجواسيس في كل زمان ومكان يعتمدون على
النساء في تصيد الأخبار ، فقد جاء في هذا الكتاب أن جواسيس المعظم في
جبل عكا كانوا قد اتفقوا مع بعض نساء الفرنجة بها أن يشرن اليهم بالشموع
ليلاً لينقلن اليهم أخبار العدو ، فإذا عزم الفرنجة على إخراج مائة جندي

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ١٤٥ .

(٢) المقرئ ، السلوك ، نشر الدكتور زيادة ج ١ ص ١٩٨ .

أوقدت المرأة شمعة واحدة ، وإن كانوا مائتين أوقدت شمعتين وهكذا ، ثم تشير المرأة بهذه الشموع إلى الجهة التي يريد الجند قصدها ، وكان المعظم لا يضمن بالمال الوفير يُعطى لهؤلاء النسوة جزاء لما يؤدين من خدمة جليلة ، فحدثه بعض الخاصة مرة منتقداً بقوله : « هذا إسراف لا يحل » فقال : « أنا أفدي الكثير باليسير » .

ويروي المعظم عن نفسه أن الانبرور (يقصد الامبراطور فردريك الثاني) لما عزم على غزو الشام بغتة أرسل فارساً من لدنه يستطلع له الأخبار ، فبعثت امرأة فرنجية جميلة - كانت على اتصال بهذا الفارس - بالخبر إلى المعظم ، فأرسل اليها « الثياب الحرير وعذراً وأشياء كثيرة » فلما عاد الفارس ووجد هذه الهدايا عندها ، سألها عن مرسلها فأخبرته ، فذعر أول الأمر ، ولكنها ما زالت به تلاطفه وتتودد اليه حتى اتفقا ، فكان إذا أتاه خطاب بعد ذلك من الامبراطور حمله اليها فترسله إلى المعظم مختوماً كما هو .

وقد أرسل الملك المعظم عيسى مرة إلى واليه على الشوبك يأمره بنفي راهب كان يسكن الجبل منفرداً يتعبد فنفاه ، وبعد قليل جاءه خطاب المعظم يأمره بإعادة الراهب ويوصيه به خيراً ، ويقول الوالي إنه عجب لهذا التصرف : « فبحثت عن القصة فإذا به قد بعثه بكشف أخبار الانبرور ، وإنما نفاه لئلا يُتهم ، وأطلق له أرضاً ، وأعطاه مائة دينار » .

وبعد فهذه صور طريفة مما حفظه المؤرخون عن أخبار الجاسوسية في حروب الأيوبيين بينها وبين أساليب الجاسوسية الحديثة شبه كبير ، فهل نستطيع أن نقول مع القائلين : إن التاريخ يعيد نفسه وإن اختلفت المسوح التي يبدو فيها في كل عصر عنها في العصر الآخر .

الاحتفال بوفاء النيل

في مصر الانلامية (١)

كان المصريون منذ أقدم العصور يحتفلون بوفاء النيل ، ويفتنون في هذا الاحتفال الذي كان يتخذ أشكالاً متباينة وصوراً مختلفة ، تبعاً لاختلاف العصور والحكومات والأديان .

أما المصريون القدماء فقد ألهوا النيل وعبدوه ، لأنه مصدر الخير والبركة ، يشربون من مائه العذب السلسبيل ، وإذا قاض سقى أراضيهم ورواها ، وبعث فيها الحياة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وعلى صفحته تسير قواربهم تصيد الأسماك ، وسفنهم الشراعية تحمل التجارة من حبّ وفاكهة إلى أهالي الشمال من الجنوب ، وإلى أهالي الجنوب من الشمال .

وتقول الرواية العربية التي تنقلها جمهرة المؤرخين المسلمين عن ابن عبد الحكم :

أن المصريين كانوا يزينون للنيل فتاة بكراً جميلة ، فيطيبونها ويعطرونها

(١) نشر هذا البحث في مجلة (الثقافة) العدد ١٤٠ بتاريخ ٢ سبتمبر ١٩٤١ .

ويحملونها أجمل حلبيها ولائتها وجواهرها ، ثم يلقونها إلى النيل قربانا ، فلا يلبث أن يزيد ماؤه ويفيض ويغطي الأرضين ، غير أن معظم المؤرخين المحدثين يشكّون في صحة هذه الرواية ، وبرهان شكهم أن العرب دخلوا مصر وهي مسيحية حكومة وشعبا ، فلو قرض أن مصر الفرعونية الوثنية كانت تقترف هذا الإثم ، فليس من المعقول ان تستمر على إبادة اقترافه المسيحية ، وهي دين سماوي يمنع قتل النفس دون جريرة ، غير أن الأمر الذي لا شك فيه أن الحكومات المختلفة التي توالى على مصر كانت تهتم الاهتمام كله بمقاييس النيل لتتقرب وفاءه ، ولتحتفل بهذا الوفاء ، لأن فيه صلاح الأرض وخصبها ، وحياة النباتات وإزهارها وإثمارها ، وكيف يستطيع المصري الحياة إذا قصر النيل ، ولم تنبت الأرض ؟؟ .

مقاييس النيل :

وقد تغيّر مكان المقياس في العصور المختلفة ، وإن كان المتفق عليه بين مؤرخي العرب أنه قد كان بمصر قبيل الفتح مقاييس كثيرة في بلدان مختلفة ، غير أننا لا نستطيع تحقيق أماكنها أو أسماء الملوك الذين أنشأوها ، فالمسعودي يقول مثلاً :

« ووضعت « دلوكة » العجوز ملكة مصر بعد فرعون مقياساً بأنصنا ، صغير الأذرع ، ووضعت مقياساً آخر بإخميم ، ووضعت الروم مقياساً بقصر الشمع » .

ويقول القضاعي : —

« ثم جاء الإسلام ، وفتحت مصر والمقياس بمنف » .

ويذكر القلقشندي أن مكان المقياس كان بمنف معروفاً حتى عهده (القرن التاسع الهجري — الخامس عشر الميلادي) فيقول . —

« وموضع المقياس بمنف إلى الآن معروف على القرب من الأهرام اليوسفية من جهة البلدة المعروفة بالبدرشين » .

وبقي النيل بعد دخول العرب بمدة يقاس بمنف ، ويدخل القياس إلى القسطنطينية فينادى به ، ثم بنى عمرو بن العاص مقياساً بأسوان ، وآخر بدندرة ، وفي أيام معاوية بنى مقياس ثالث بأنصنا ، ولما ولي عبد العزيز بن مروان حكم مصر ، واتخذ مدينة حلوان مقراً لحكمه ، بنى بها مقياساً صغير الأذرع ، كذلك بنى أسامة بن يزيد التنوخي سنة سبع وتسعين من الهجرة (٧١٥ م) في عهد ولايته لمصر مقياساً في جزيرة الروضة (أو جزيرة الصناعة كما كانت تسمى) . وذلك بأمر سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي - ويقول صاحب صبح الأعشى :-

« ثم بنى المتوكل مقياساً أسفل الأرض بالجزيرة المذكورة (جزيرة الروضة) في ستة سبع وأربعين ومائتين (٨٦١ م) في ولاية يزيد بن عبد الله على مصر وهو المعمول به إلى زماننا هذا » (القرن التاسع الهجري) . ونضيف نحن أيضاً أن هذا المقياس هو المعمول به إلى سئتنا هذه .

وكان المتفق عليه في تاريخ مصر الإسلامية أن يحتفل بوفاء النيل إذا بلغ ستة عشر أو سبعة عشر ذراعاً ، ويعتبر النيل مقصراً إذا قل الرقم الأول ، ويعتبر الفيضان خطراً إذا زاد عن الرقم الثاني ، وفي هذا المعنى يقول الصلاح الصفدي :

قالوا : علا نيل مصر في زيادته حتى لقد بلغ الأهرام حين طما فقلت : هذا عجيب في بلادكم أن ابن ستة عشر يبلغ الهرما !

وكانت النصارى تتولى قياس النيل منذ الفتح العربي إلى زمن المتوكل ، فعزلهم واختار له رجلاً مسلماً صالحاً يسمى عبد الله بن عبد السلام من أبي الرداد المؤدب ، وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ

سبعة دنانير في كل شهر، وبقيت هذه الوظيفة في نسل هذا الرجل حتى القرن التاسع هجري، كما يقرر ذلك السيوطي في حسن المحاضرة، والمقريزي في الخطط، والقلقشندي في صبح الأعشى.

وكان النيل إذا بلغ ستة عشر ذراعاً، وهو المعبر عنه بماء السلطان، كُسر خليج القاهرة، ولكسر الخليج كما يقول المقريزي:

« يوم معدود، ومقام مشهود، ومجتمع خاص، يحضره العام والخاص ». ويقول عنه القلقشندي هو:

« يوم مشهود، وموسم معدود، ليس نظير في الدنيا، وفيه تكتب البشارات بوفاء النيل إلى سائر أقطاب المملكة، وتسير بها البرد ».

ويقول السيوطي:

« جرت العادة كل سنة إذا وفي النيل أن يرسل السلطان بشيراً بذلك إلى البلاد، لتطمئن قلوب العباد، وهذه عادة قديمة، ولم يزل كتاب الانشاء ينشئون في ذلك الرسائل البليغة . . »

ويورد السيوطي بعد ذلك أربع رسالات في هذا المعنى: إحداها من إنشاء القاضي الفاضل، والثانية من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، والثالثة كتبها صلاح الصفدي، والرابعة كتبها الأديب تقي الدين أبو بكر ابن حجة.

حفلات الوفاء:

حافظ المصريون بعد إسلامهم على تقاليدهم القديمة، فعنوا بمقاييس النيل والاحتفال بوفائه، وإن كانوا قد أدخلوا على هذا الاحتفال بعض التعديل الذي يتفق والدين الجديد، وأقدم وصف عثرت عليه لهذا الاحتفال هو لابن رُسْتَنَة (جغرافي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري -

التاسع الميلادي) في كتابه « الأعلاق النفيسة » ، وهذا الوصف يبين جمال الاحتفال وبساطته في أول العهد ، فقد كان الموكلون بمقياس النيل يرقبون الزيادة إصبعا إصبعا ، وذراعا وذراعا ، فإذا وفى ساروا في موكب جليل إلى المسجد الجامع (جامع عمرو) ، يحملون الزهور والرياحين ، ويقفون هناك حلقات حلقات ، يعلنون وفاء النيل ويشكرون الله ، ويتراشقون بالأزهار . ولا شك عندي انهم كانوا يعلنون هذا كله في أهازيج وانشيد خاصة ، ويبدو أن المتولين أمر المقياس كانوا ينادون في الناس معلنين الزيادة إصبعا إصبعا ، وذراعا ذراعا ، حتى أتى المعز لدين الله الفاطمي ، فمنع من النداء بزيادة النيل ، وأن لا يكتب بذلك إلا اليه ، وإلى القائد جوهر ، فإذا بلغت الزيادة ستة عشر ذراعا أباح النداء ، وكسر الخليج ، ويقول المقريري في الخطط معلقا على هذا التعديل :

« فتأمل ما أبدع هذه السياسة ، فإن الناس دائما إذا توقف النيل في أيام زيادته أو زاد قليلا يقلقون ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل ، فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر ، ويحتهد من عنده مال في خزن الغلة ، إما لطلب السعر أو لطلب إدخار قوت عياله ، فيحدث بهذا الغلاء ، فإن زاد الماء انحل السعر ، وإلا كان الجذب والقحط ، ففي كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجل عائدة . »

وكانت الحفلات التي تقام والمهرجانات التي تعقد ابتهاجا وسرورا بوفاء النيل في عهد الفاطميين بالغة الحد الأقصى من الجمال والبهجة والروعة والأناقة ، وأهم هذه المواكب موكبان : أحدهما لتخليق المقياس عند وفاء النيل ، والثاني لكسر الخليج ، وبينهما ٣ أو ٤ أيام ، وكانت الدولة كلها ، خليفاتها ووزرائها وقضاها وقوادها وفقهاؤها وشعراؤها وفنانوها وموسيقيوها وشعبها أخيرا ، كان هؤلاء جميعا يشتركون في هذه المواكب الحافلة ، فلا غرو أن قامت للأدب والفنون دولة عظيمة الشأن في هذا العصر ، ولا غرو إذا أن سعد الشعب المصري ونعم وأحسن السرور في جنبات حياته تحت حكم الفاطميين .

وفي كتب المؤرخين صور واضحة لهذه المواكب ، نحاول هنا نقل صورة لها لجماها وروعتها :

موكب التخليق :

كان الموكتون بالمقياس يرفعون إلى ديوان الانشاء كل يوم رقعة بها مقدار الزيادة ، فلا يطلع عليها إلا الخليفة والوزير ، فإذا بلغت الزيادة ستة عشر ذراعاً أمر بان يبيت في جامع المقياس ليلة الوفاء قراء الحضره والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر لحتم القرآن الكريم ، وتمد لهم الاسمطة وتوقد الشموع الكثيرة ، وفي الصباح يلبس الخليفة الحلل الفاخرة ، والتاج الذي فيه اليتيمة ، ويخرج من القصر في موكب زاخر ، وفي ركابه الوزير والامراء والجنود ، فيشق القاهرة ويمر من باب زويلة إلى الصليبة ، ثم يعرج على جامع ابن طولون إلى أن ينتهي به السير إلى دار الصناعة ، ويشق القسطاط حتى يصل إلى شاطئ النيل ، وتكون سفينته الخاصة (الحراقة) معدة في النيل :

« وقد حمل إليها من القصر بيت مثنى من العاج والابنوس ، كل جانب منه ثلاثة أذرع ، وطول قامته رجل تام ، فيركب في السفينة وعليه قبة من خشب يحكم الصنعة ، وهو وقبته ملبس صفائح الفضة المذهبة ... » ، ثم يخرج الخليفة ومعه الوزير وبعض خاصته إلى هذه السفينة ، ويجلسون في هذا البيت المثنى ، وتسير بهم إلى المقياس ، ويصلي كل منهم ركعتين وحده ، ثم يتناول الخليفة إناء بيده ويذيب فيه الزعفران ، ويتناول صاحب بيت المال فيعطيه لابن أبي الرداد متولي المقياس ، فيلقى هذا بنفسه وهو بلباسه في الفسقية ، ويمسك بالعمود برجليه ويده اليسرى ، ويخلق المقياس بيده اليمنى ، وبعد التخليق يعود الخليفة إلى حراسته التي تنقله إلى البر حيث يعود إلى القاهرة .

« ويكون في البحر ذلك اليوم نحو ألف مركب مشحونة بالناس للتفرج وإظهار الفرح ... »

موكب كسر الخليج :

وبعد ٣ او ٤ أيام تقام في بيت المال موائد من :

« التماثيل المختلفة من الغزلان والسباع والفيلة والزرارييف وغيرها ، منها ما هو ملبس بالعنبر ومنها ما هو ملبس بالصندل .. مفسرة الأعين والأعضاء بالذهب ، وكذلك تعمل أشكال التفاح والأترج وغير ذلك . »

وتخرج خيمة الخليفة الكبيرة فتتنصب على البر الغربي للخليج عند منظر السكرة ، وتنصب بحريها خيام أخرى للأمراء والخاصة حسب مراتبهم .

وفي الصباح يلبس الخليفة ثوباً يسمى البدنة ، وهو حرير مرقوم بذهب لا يلبسه غير ذلك اليوم ، ويخرج في مثل موكبه السابق في أجل هيئة وأكمل أبهة ، ويسير الخليفة في موكبه من القصر وحوله الوزير والاستاذون المحنكون في الطريق السالف الذكر إلى أن يصل جامع ابن طولون ، حيث يجد قاضي القضاة والشهود في انتظاره على بابه ، فيسلم عليهم ، وينضمون إلى موكبه الذي يستأنف السير إلى أن يصل إلى الخيمة ، فيترجلون ويجلسون على نظام خاص مقرر ، وقراء الحضرة هناك يتلون القرآن الكريم لمدة ساعة ، فإذا انتهوا استأذن صاحب الباب للشعراء ، فيدخلون حسب مراتبهم ، وينشد كل واحد فيما يناسب الحفل ، والحضور ينتقدون ما يسمعون ، فيقرظون شعر البعض ، ويجرحون شعر البعض الآخر . وفي المقرئ (الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ ، طبعة النيل) صورة طريفة لهذا المهرجان الأدبي وآراء الحاضرين في نقد ما قيل فيه من شعر .

عاشوراء (١)

اليوم هو عاشوراء ، والأمس كان تاسوعاً ، وفيها احتفل المصريون بالموسم ، وإن كان الكثيرون منهم لا يعرفون ما هو هذا الموسم ولم كان موسماً .

وإنما هم حريصون الحرص كله على الاحتفال به بذبح الطيور ، ومعد الموائد ، وشراء الحلوى والفاكهة والتوسعة على أولادهم ، ولهذا اليوم قصة لعله من المفيد أن نرويها هنا للسادة المستمعين .

فعاشوراء هو اليوم العاشر من المحرم ، وهو اليوم الذي قتل فيه أبو الشهداء الحسين بن علي - رضي الله عنه - في موقعة كربلاء ، وقد حزن الشيعة لمقتله حزناً شديداً ، وظلوا يقيمون المآتم في هذا اليوم من كل عام ، ويعتبرونه يوم حزن عام ، يطوفون فيه بالأسواق يندبون ويبكون وينشدون ، ولا زال الأمر على هذا في إيران والعراق حيث يسود المذهب الشيعي .

ولما قامت الدولة الفاطمية في مصر - وهي دولة شيعية - اتخذ الاحتفال

(١) اذيع هذا الحديث في اذاعة اسكندرية بمناسبة الاحتفال بموسم عاشوراء .

بهذا اليوم شكلاً رسمياً ، وأصبحت الدولة تحتفل به وتعتبره عيداً من أعيادها الرسمية ، ولكنه على العكس من الأعياد الأخرى كلها كان عيد حزن وبكاء — ففي هذا اليوم كانت تعطل الأسواق ، وتقف الدكاكين ، ويخرج الناس ومعهم المنشدون إلى الجامع الأزهر ، وتتعالى أصواتهم بالنحيب والنوح والنشيد ، وعندما نقلت رأس الحسين إلى القاهرة وبنى لها المشهد الحسيني في أواخر الدولة كان خروج الناس إلى هذا المشهد لا إلى الجامع الأزهر .

وكانت صفة الاحتفال أن يحتجب الخليفة عن الناس ، وفي أول النهار يركب قاضي القضاة والشهود بملاّبس عادية ، ويذهبون إلى المشهد الحسيني فإذا جلسوا فيه ومعهم قراء الحضرة والمتصدرون في الجوامع جاء الوزير فيجلس في الصدر ، وعلى جانبه القاضي والداعي ، ويبدأ القراء في قراءة القرآن ثم ينشد جماعة من الشعراء شعراً في رثاء أهل البيت عليهم السلام ، وذلك لمدة ثلاث ساعات يُستدعون بعدها إلى القصر ، فيدخل قاضي القضاة وداعي الدعاة ومن معها إلى باب الذهب ، فيجدون الدهاليز قد فرشت بالحصر بدل البسط ، فإذا اكتمل هذا الجمع بدأ القراء يقرأون ، والمنشدون ينشدون للمرة الثانية ، ثم يُمد سباط يسمى سباط الحزن ، لأنه يختلف عن أسبطة الأفراح والأعياد ، فلا تقدم فيه الحلوى والأطعمة الفاخرة ، وإنما تقدم فيه ألف زبدية من العدس الأسود ، والعدس المصفى ، والملوحات والمخللات ، والأجبان والألبان الساذجة ، وعسل النحل ، والخبز والفطير المصنوعان من الشعير وقد غير لونها قصداً ، ويدعى الحضور والناس للأكل من هذا السباط ، وفي ذلك الوقت يمر النشّواح بأسواق القاهرة يرفعون أصواتهم بالبكاء والنحيب والإنشاد .

ولما زالت الدولة الفاطمية وقامت دولة صلاح الدين الأيوبي — وهي دولة سنية — تغيرت طريقة الاحتفال بهذا اليوم ، واعتبر ملوك بني أيوب هذا اليوم يوم فرح وسرور ، يوسعون فيه على عيالهم ، ويكثرون من الأطعمة

الفاخرة ، ويصنعون ألوان الحلوى ، ويكتحلون ، ويدخلون الحمام ، يقول المؤرخ المصري المقرئزي إنهم فعلوا ذلك جرياً على عادة أهل الشام التي سنّها لهم الحجاجُ في أيام عبد الملك بن مروان ليرغموا بذلك آثاف الشيعة .

وظلّ هذا للتقليد - وهو الاحتفال بيوم عاشوراء على النمط الذي رسمه الأيوبيون - متبعاً في عصر المماليك ، وفي العصور التالية حتى وقتنا الحاضر .

غير أن هذا الاحتفال صحبه خلال العصور المختلفة نشوء كثير من الخرافات التي انمحي بعضها الآن نتيجة لانتشار التعليم والثقافة وبقي البعض الآخر متداولاً بين أولاد البلد في القرى وفي الأحياء الوطنية من المدن الكبرى .

فمن هذه الخرافات أن العامة في مصر كانوا يعتقدون أن الجن يزورون بعض الناس في إحدى الليالي العشر من المحرم ، وفي اعتقادهم أن الجن يظهرون أحياناً على هيئة سقّا يسمى : « سقّا العشر » ، وأحياناً أخرى على هيئة بغلة تسمى : « بغلة العشر » ، فإذا ظهر الجنى في شكل سقا فإنه يطرق باب النائم بعد منتصف الليل فيسأل هذا : « مَنْ بالباب ؟ » فيجيبه الجنى : « أنا السقا ، أين أفرغ القربة ؟ » فيقول له : « أفرغ في الجرّة » ، وبعد خروجه يجد صاحب المنزل الموعود الجرّة مملأى بالذهب .

أما بغلة العشر في اعتقادهم فإنه من المعتاد أن تأتي عليها خُرْج مملوء ذهباً وفوقه رأس قتيل ، وفي عنق البغلة أجراس صغيرة تحركها عند باب الشخص الذي أتت لتجلب له الثروة والغنى ، فإذا كان هذا الرجل مجدوداً فإنه يخرج ولا يخاف عند رؤية رأس القاتل ، بل يأخذها ويفرغ الخُرْج ، ثم يملأه تبناً أو نخالة ، ويضعه ثانية على ظهر البغلة ويقول : « اذهب يا مبارك » .

ومن هذه العادات المتبعة في هذا اليوم البخور ضد الحسد ، وهذه العادة

لا زالت متبعة في مصر حتى اليوم ، وهي أن يطوف بعض الباعة في شوارع القاهرة - وقد رأيت بعضهم في شوارع الاسكندرية - يبيعون الميعة المباركة ، وهم ينادون عليها بصوت ملحن : « يا بخور عاشورا المبارك » ، « يا بركة عاشورا المبارك » ، « أبرك السنين على المؤمنين يا ميعة مباركة » ، ويحمل البائع عادة على رأسه صينية مستديرة يغطيها بقطع من الورق المختلف الألوان ، ويضع عليها هذه الميعة وهي خليط من أنواع البخور ، ويتوسط الصينية عادة كوم من مادة حمراء اللون ممزوجة بقليل من « الميعة » والكزبرة والحبة السوداء ، ويحيط به أكوام خمسة صغيرة ، ثلاثة منها من الملح الملون باللون الأزرق والاحمر والاصفر ، والرابع من الشيح ، والخامس من تراب اللبان ، وهذه جميعاً تكون الميعة المباركة .

وينادي المشتري البائع إلى داخل المنزل ، فيضع هذا الصينية على الأرض ويتناول صحناً أو قطعة من الورق ، ويضع فيها قليلاً من كل صنف ، ويلقى أثناء ذلك نشيداً طويلاً يبدأ بقوله : « باسم الله وبالله ، لا غالب إلا الله ، رب المشارق والمغارب ، كلنا عبيده ، يلزمنا توحيدده ، وتوحيدده جلاله »

ثم يثنى على مزايا الملح ، ويبدأ يرقى أصحاب المنزل بأقوال غريبة مضحكة لا شيء فيها إلا أنها تعتمد على السجع ، فيقول مثلاً : « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، ومن كل عين حاسد ، بسم الله أرقيك ، والله يشفيك ، من كل نفس أو عين أرقيك ، من عين البنت ، أحمى من الخشت ، ومن عين المرة أحمى من الشرشرة ، ومن عين الولد أحمى من الزرّاد ، ومن عين الراجل أحد من المناجل ... الخ »

ثم يروي بعد ذلك كيف أبطل سليمان حسد العين ، ويأخذ في تعداد أثاث المنزل ورقيته واحداً واحداً ، فيقول مثلاً : « بخرت السلام ، من عين أم سالم ، بخرت الكرسي من عين أم مرسى ، بخرت اللحاف من وجع الأكتاف ... الخ » .

ومن العادات التي لا تزال متبعة حتى الآن لون من الحلوى يصنعه الناس في هذا اليوم ويسمونه « عاشورا » ، وهو نوع يصنع من الحبوب أو من القمح عادة الذي يُطبخ على شكل البليلة المعروفة ، ثم يصفى ويضاف إليه اللبن والسكر وبعض النقل مثل الجوز واللوز والبندق ، ويُغرف في الأطباق بعد ذلك .

وبعد ، فهذا عيد من الأعياد القومية التي كان يحتفل بها المصريون في العصور الماضية ، وهذه بعض الخرافات والعادات التي صحبتها ، زال بعضها وبقي البعض الآخر ، وخاصة التوسعة على العيال ، وذبح الطيور ، وإقامة الموائد ، وطبق عاشوراء ، وعلل العامة هذه التوسعة فقرنوا بين لفظ توسعة ولفظ تاسوعا ، وهو اليوم السابق لعاشوراء ، مع أن اللفظين من أصلين مختلفين ، ولا علاقة بينهما إلا التشابه في الحروف ، وقد يتساءل الناس عن السر في احتفال المسلمين بهذا اليوم ، وقيل في الرد على هذا السؤال أقوال كثيرة ، منها أنه اليوم الذي تقابل فيه آدم وحواء لأول مرة بعد طردهما من الجنة ، ومنها أنه اليوم الذي خرج فيه نوح من سفينته ، ومنها أن العرب كانوا يصومون هذا اليوم قبل الإسلام وظل المسلمون الأوائل يصومونه ، ولكن السبب الأكبر لتقديس المسلمين لهذا اليوم هو أنه استشهد فيه الحسين رضي الله عنه ، ثم تغير احتفالهم به من احتفال حزن إلى احتفال فرح عند السنين ابتداء من العصر الأيوبي .

عيد الأضحى في التاريخ

في اليوم العاشر من ذي الحجة يحتفل المسلمون في جميع أنحاء الأرض بالعيد الإسلامي الأكبر ، عيد الأضحى ، عيد القداء ، وهم إذ يحتفلون بهذا العيد ، إنما يحتفلون بكثير من المعاني السامية والمثل العليا .

ولهذا العيد جذور عميقة تمتد في التاريخ إلى آماذ بعيدة ، وننتهي إلى عصر إبراهيم الخليل أبي الأنبياء ، وتتصل قصة هذا العيد بمصر اتصالاً وثيقاً ، فقد كانت هاجر زوج إبراهيم وأم ولده إسماعيل مصرية .

كان إبراهيم عراقياً ، وكان أبوه نجاراً يصنع الاصنام ويبيعها لقومه ، فيعكفون عليها عابدين ، ولما بلغ إبراهيم مبلغ الشباب بدأ الشك يساوره في قيمة هذه الاصنام التي كان يشترك مع أبيه في صنعها ، وتحدث بهذا الشك إلى أبيه وإلى قومه ، فلم يستمع إليه أحد منهم ، وأراد أن يسخر من هذه الآلهة المصنوعة ، فحمل فأسه وحطمها صنماً صنماً إلا كبيرها ، فقد تركه قائماً ، فلما سأله : « أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ » - رد عليهم رداً

كله سخرية لاذعة بهم وبآلهتهم : « قال بل فلعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

وقضى إبراهيم فترة من الشك والحيرة يبحث عن ربه بعد أن صدف عن عبادة الأصنام ، وأيقن أنها عبث من العبث ، وأنها لا تأتي خيراً ولا تمنع ضرراً ، وكان كلما رأى آية من آيات الخالق الكبرى في كونه ظنّها الإله الحق ، وظل صريع هذا القلق إلى أن هداه الله إلى الدين الحق ، إلى الحنيفية السمحة إلى الإسلام الأصيل ، وعند ذلك آمن بالله الحق الواحد الأحد ، خالق الكون جميعاً ، وفاطر السموات والأرض ، وقد صوّر القرآن الكريم هذه التجربة القاسية التي مرّ بها إبراهيم أبدع تصوير في قوله تعالى : « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الأفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهيني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

ودعا إبراهيم قومه إلى هذا الدين الجديد ، فلم يستمعوا له ، بل ألغوه في النار ، فأنجاه الله منها ، وخرج بعد ذلك من وطنه وفي صحبته زوجته سارة ، واتجه إلى فلسطين وسنها إلى مصر - وكانت مصر حينذاك يحكمها ملوك الهكسوس ، وكان من عاداتهم أن يغتصبوا كل زوجة جميلة - وكانت سارة رائعة الجمال ، فخشي إبراهيم أن يقتله الملك ليتخذها زوجة له ، فادعى أن سارة اخته ، ومع ذلك فقد سمى الملك للزواج من ساره ، ولكنه رأى فيما يرى النائم أنها ذات بعل ، فردّها إلى إبراهيم بعد أن عاتبه وقدم له بعض الهدايا ، ومن بيتها جازية مصرية اسمها هاجر ، وكانت سارة قد قضت سنين طويلة دون أن تنجب من إبراهيم ، فأشارت عليه أن يدخل بها هاجر ، ففعل ، ولم تلبث هاجر أن ولدت له إسماعيل ، وبعد أن شبّ إسماعيل وكبر ولدت سارة إسحق .

وتوالت الايام ورأى إبراهيم في منامه ان الله يأمره ان يذبح ابنه ، وان يقدمه قرباناً له ، وكان هذا المنام إشارة من الله سبحانه وتعالى اراد بها ان يتمتع طاعة نبيه وعبداه إبراهيم في اعز من عنده في ابنه ووحيداه إسماعيل الذي رزقه على كبر وبعد يأس ، وان يتمتع طاعة الابن لأبيه في اعز ما يملك ، بل في كل ما يملك ، في روحه وحياته ويقائه ، قال تعالى :

« فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام اني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتلّاه للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا هو البلاء المبين وقديناه بذبح عظيم . »

وهكذا بدأت قصة الذبح والفداء ، وهكذا ظل أتباع دين إبراهيم يحتفلون بذكراها ، وهكذا أحيا الإسلام سنة الاحتفال بهذه الذكرى العظيمة ، لما تتضمنه من معاني سامية ، ولما تشتمل عليه من مثل عليا ، لعل أقواها وأبرزها مثل التضحية والفداء ، ومن هنا سمي هذا العيد في الاسلام بعيد الأضحى .

وتسير القصة في مسراها الطبيعي لتمام قصورها ، فقد شب الوليد الجديد إسحاق إلى جانب أخيه الأكبر إسماعيل ، ولكن الغيرة بدأت تدب في نفس الزوجة الاصيله سارة ، منذ رأت إبراهيم يساوي في معاملته بين ولديه : إسحق ابنها ، وإسماعيل ابن أمتها ، وأحس إبراهيم أن العيش لن يطمئن له مع وجود المرأتين في كنفه ، فصحب هاجر وابنها واتجه جنوباً حتى وصل إلى الوادي الذي تقوم فيه مكة اليوم ، وكان هذا الوادي ملتقى القوافل حين تنفصل من اليمن إلى الشام أو من الشام إلى اليمن ، أما فيما عدا هذا من أوقات السنة فقد كان خلاء قل أن ينزل به انسان .

وفي هذا الوادي ترك إبراهيم هاجر وابنه ، وخلف لها بعض الماء وبعض ما يقتاتان به ، ثم كر راجعاً .

ونفذ الطعام ، ونفذ الماء ، وأحس الطفل العطش ، وأخذت هاجر تجيل طرفها فيما حولها ، وبدأت تهول في الوادي بين الصفا والمروة ، تلتمس لوليدها شربة من ماء دون جدوى ، وأتمت السعي سبعا ، وعادت واليأس يكاد يقتلها ، ولكنها فوجئت بابنها وهو يفحص الأرض بقدمه ، والماء ينبع من تحتها ، وكانت تلك بشر زمزم التي لا يزال الحجيج من المسلمين يحرصون حتى اليوم أثناء أدائهم للفريضة على الشرب منها شفاء وبركة .

واستهوت بشر زمزم بعد ذلك افئدة من قبائل العرب ، فاتخذت هذه البقعة المباركة لها مقراً ومقاماً ، وتردد إبراهيم بعد ذلك على هذا المكان لزيارة ابنه إسماعيل ، وتعاون الاب والابن على إقامة الكعبة بيت الله الحرام ، وهو أول بيت وأقدم مسجد ذكر فيه اسم الله ، يقول الله سبحانه وتعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات ، مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً » .

وكان بناء البيت الحرام عاملاً آخر قوياً من العوامل التي دفعت الناس إلى الحج إلى هذه البقعة المباركة والمقام بها وعمرانها ، قال تعالى :

« وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات من آمن بالله واليوم الآخر ومن كفر فامتنعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

ثم جاء محمد عليه السلام بدين الاسلام مجدداً لدين إبراهيم فلا عجب

أن جعل الله سبحانه وتعالى البيت الحرام القبلة التي يتجه إليها المسلمون في صلاتهم : « فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ولا عجب أن جعل الله سبحانه وتعالى الحج إلى بيته ركناً من أركان الإسلام . « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

* * *

هذه المعاني التاريخية السامية تحتشد كلها اليوم في نفوس المسلمين جميعاً وهم يحتفلون بعيدهم الأكبر ، عيد التضحية والفداء ، وهم يرددون نشيداً من أناشيد الإسلام القوية التي يستجيبون فيها لدعوة الله ، ويمجدون فيها قدرة الله ، ويحمدون فيها الله ، ويوحدون فيها الله الواحد الأحد الذي لا شريك له .

بهذا النشيد وبهذه التلبية ارتفعت أصوات المسلمين منذ كان الإسلام ، وسترقع دائماً في هذا اليوم إلى أن يشاء الله مرددة :

« لبيك اللهم لبيك
لبيك لا شريك لك — لبيك
ان الحمد والنعمة لك
والملك ، لا شريك لك »

طريقة مسح الأراضي وتقدير الخراج في مصر الإسلامية^(١)

كانت الحكومات الملكية المختلفة التي تعاقبت على حكم مصر من أقدم العصور تعتبر الأرض المصرية عامة ملكاً خالصاً للملوك الحاكمين ، ولما كان هؤلاء الملوك لا يستطيعون زراعة هذه الأرض والعناية بأمرها وجمع خراجها بواسطة رجالهم فحسب ، فقد كانوا يتركونها للفلاحين-الذين أتقنوا صناعتهم- يعنون بأمرها ويفلحونها ويدفعون أموالها .

وكانت هذه الحكومات تشهر خراج الأقاليم المختلفة لبيعها بالمزاد العلني ، وذلك لكي تنجو بنفسها من تحمل المرتبات الضخمة التي تدفعها للجباة ، ولتضمن الحصول على الأموال التي تريدها في ميعاد معين . أما الملتزمون الذين تنتهي اليهم صفقات هذه الأراضي فقد كانت تترك لهم الحرية التامة في كثير من الأحيان والمحددة في بعض الأحيان - للعناية بري الأرض وصرفها وزراعتها وجباية أموالها .

(١) نشر هذا البحث في مجلة الثقافة ، السنة الثانية العدد ٩٧ الثلاثاء ٥ نوفمبر ١٩٤٠ .

وكان الحاكم يحفظ لنفسه نصيباً من هذه الأرض - هو أجود الأنصبة دائماً - كما كان يمنح أمراءه وجنوده وحرسه الخاص الإقطاعات المختلفة التي تدر عليهم الربح الوفير بدلاً من المرتبات الواجب صرفها لهم .

ولما دخل العرب مصر واستوطنوها وحكموها وامتزجوا بأهلها وانتشروا في ربوعها لم يدخلوا في نظمها شيئاً من التجديد اللهم إلا فيما يتعلق بالشئون الدينية كالصلاة والصوم ، وقوانين المعاملات ، كالزواج والطلاق وغيرها ... أما النظم الاقتصادية وخاصة ما تعلق منها بالأرض وريعها وزراعتها وجباية أموالها فقد آثروا اتباع الطريق التي اتبعها سلفهم من قبل ، فكان يجلس متولي الخراج كما يروي المقرئ :

« في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تنهياً فيه قبالة الأراضي وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل فينادي على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدي فتولي الخراج يكتبون ما ينتهي إليه مبالغ الكور والصفقات على ما يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظم والاستبحار وغير ذلك ، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من تقبل أرضاً وضمناها إلى ناحيته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه في إيانته على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قبائله وضمائنه تلك الأراضي ما ينفق على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها ، بضاربة مقدرة في ديوان الخراج ، ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقربين يقال لما تأخر من مال الخراج البواقي - وكانت الولاة تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة ، فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة - حولوا السنة وراكوا البلاد كلها ، وعدلوها تعديلاً جديداً ، فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ، ونقص فيما يحتاج إلى التنقيص منها ، ولم يزل ذلك يعمل في جامع عمرو بن العاص . إلى أن عمّر أحمد بن طولون جامعاً ، وصار العسكر

منزلاً لأمرأء مصر ، فنقل الديوان إلى جامع أحمد بن طولون ، ثم نقل أيام العزيز بالله نزار إلى دار الوزير يعقوب بن كلّس ، فلما مات الوزير نُقِلَ الديوان إلى القصر بالقاهرة ، واستمر به مدة الدولة الفاطمية ، ثم نقل منه بعدها ... » (١)

هذه وثيقة نادرة تبين في وضوح مسائل هامة ، تلخصها ليسهل فهمها فيما يأتي :

١ - أن متولي الخراج كان يجلس في الوقت الذي تنهيا فيه قبالة الأرض - في المسجد - وكتّاب الخراج بين يديه .

٢ - كان للخراج سجلات خاصة أدرجت فيها أسماء الكور ومبالغ الصفقات .

٣ - أن الناس كانوا يحضرون من مختلف الجهات ، فتعرض الصفقات للضمان بطريق المزاد العلني .

٤ - أن المتقربين كانوا يتقبلون الأرض لمدة اربع سنوات .

٥ - أن كل من تقبل أرضاً كان يتولي زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها :

أ - بنفسه ب - وأهله ج - ومن ينتدبه لذلك .

٦ - أن المتقبل كان : « يحمل ما عليه إبانته (أي في وقته المحدد) على أقساط ، (وأحسبها على أقساط سنوية في أشهر الحصاد ...) .

٧ - ويحسب له من مبلغ قبالتة وضمانه لتلك الأراضي (أي يخصم مما يدفع) ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خليجها ، بضريبة مقدرة في ديوان الخراج (أي بنسبة معينة في هذا الديوان) .

(١) المقرئ ، الخطط ، مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ . ج ١ ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

٨ - وأن بعض المتقلبين كانوا يتأخرون في دفع الاقساط إما عجزاً أو تهرباً ، وأن الولاة كانوا يتشددون في جمع هذه البواقي^(١) مرة ويتسامحون مرة أخرى .

٩ - ان الولاة كانوا يتبعون نظاماً دقيقاً مقررأ ، وذلك أنهم يروكون البلاد - أي يمسخونها - كل ثلاثين سنة ، ويعملونها تعديلاً جديداً ، فيزيدون فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ، ويقصون فيما يحتاج إلى التنقيص منها ، وهذه سياسة دقيقة قوية ، لأنها تدل على يقظة النظام المتبع الذي فطن الى جواز زيادة الأرض المنزرعة إذا 'عني' صاحب الضمان بإصلاح وسائل الري وضم الأراضي البور المجاورة لأرضه ، وإلى جواز نقصان هذه الأرض في بعض النواحي إذا ظهر فسادها أو بعدها عن المجاري المائية^(٢) .

١٠ - وأن عملية بيع الخراج كانت تحدث في المسجد الجامع ، فإنه كان يعتبر كديوان للمالية ، فكان الديوان أول الامر في مسجد عمرو ، ثم نقل إلى مسجد أحمد بن طولون بعد بنائه ، وفي عهد العزيز بالله نقل الديوان الى قصر وزيره ابن كلس ، وبعد وفاة الأخير نقل الديوان الى القصر الخلفي .

ويبدو أن هذا النظام استمر متبعاً في عهود الدولتين الفاطمية والأيوبية ، وأن القواعد المقررة من جعل المدة بين كل روكين ثلاثين عاماً رويت في عهد الدولة الفاطمية ، فإن المقريري يذكر نقلاً عن الأمير جمال الدين والملك موسى

(١) قدرت البواقي في زمن الوزير الناصر للدين الحسن بن علي اليازوري بمائتي ألف دينار هي عبارة عن « معلول ومنكسر على موتى وهراب ومفقود » . المقريري ، الخطط ج ١ ص ١٣٣

(٢) ولقد كان لنظام الروك فائدة أخرى جليلة اذ يستطيع الباحث بعد قراءة سجلات كل روك ان يعرف بالضبط عدد جنود الجيش المصري في كل عهد ريكته فيه البلاد ، أي كل ثلاثين سنة ، وفيما يلي نص له قيمته يذكر بوضوح عدد الفرسان في الجيش المصري زمن الناصر محمد بن قلاوون : « وعساكر مصر في الدولة التركية على قسمين : أجناد الحلقة ، والمهاليك السلطانية ، وأكثر ما كانت أجناد الحلقة في أيام الناصر محمد بن قلاوون ، فانها بلغت على ما رأيته في جرائد ديوان الجيش بأوراق الروك الناصري أربعة وعشرين ألف فارس » (المقريري ، الخطط ، ج ١ ص ١٥٣) .

ابن مأمون البطائحي في تاريخه من حوادث سنة إحدى وخمسة أن الأفضل بن أمير الجيوش رآك البلاد المصرية ، فحلّ جميع الإقطاعات وراكها ، وأمر الضعفاء من الأجناد أن يتزايدوا فيها ف وقعت الزيادة في إقطاعات الأقوياء إلى أن انتهت إلى مبلغ معلوم .

وكتبت السجلات بأنها باقية في أيديهم إلى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد»^(١) .

والوثيقة الأولى التي نقلناها عن المقرئزي هامة كل الأهمية لدراسة نظام الروك أو مسح الأراضي المصرية ، وتقدير خراجها ، وطرق جباية هذا الخراج ، وتحديد مدة الضمان بأربع سنوات ، وتحديد المدة بين كل روكين بثلاثين سنة ، غير أن الأمير البحاث عمر طوسون لم يشر إلى هذه الوثيقة عند الكلام على الخراج في كتابه « مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » ، ولذلك لم يتناول بالبحث نظام الروك في هذا الفصل من كتابه ، كما أنه ذكر أن مصر ريككت في العهد الاسلامي خمس مرات فحسب^(٢) ، يذكرها بالترتيب ، ويعمل آخرها الروك الناصري ، ولكنه لم يذكر من بينها الروك الأفضل^(٣) السابق ذكره ، وروكا آخر تم في عهد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي^(٤) .

(١) المقرئزي - خطط ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) عمر طوسون مالية مصر ، مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية ١٩٣١ ص ١٩٧ .

(٣) نسبة إلى الأفضل بن أمير الجيوش ، وقد لاحظت أن أحداً من تناول هذا الموضوع بالبحث لم يشر إلى هذا الروك ولا إلى الروك الصلاحي .

(٤) ذكر هذا الروك صاحب صبح الأعشى (ج ٣ ، ص ٤٥٢) نقلاً عن ابن مماتي فقال: « فذكر ان قطيعة القمح كانت إلى آخر سنة سبع وستين وخمسة عن كل فدان ثلاثة أردب ، ثم انه تقرر عند المساحة في سنة اثنتين وسبعين وخمسة أردبان ونصف أردب » . وانظر أيضاً المقرئزي - الخطط ج ١ ، ص ١٦٣ .

والمعلومات التي أثبتتها مؤرخو العرب عن كيفية مسح الأراضي المصرية في هذه المرات السبع (وقد تعثر على أكثر منها ما دام المقرئ يقرر أن الأرض كانت تراك كل ٣٠ سنة) قليلة جداً ، اللهم إلا الروكين الأخيرين : الحسامي والناصري ، فقد أفاض المؤرخون بعض الشيء في ذكر أخبارهما .

وتمّ كتاب خاص يتحدث عن الروك الناصري ، ومؤلفه هو الشيخ أشرف الدين بن يحيى بن المقر بن الجيعان .

وفي الفصل التالي حديث مفصل عن هذا الروك الناصري .

الروك الناصري^(١)

ينسب ابن الجيعان^(٢) في مقدمة كتابه « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية »^(٣) هذا الروك إلى الأشرف شعبان ، غير أنه من الواضح جداً أن هذا الروك هو الروك الناصري ، كما أثبت ذلك كل من P. Moritz^(٤) في المقدمة الفرنسية التي قدم بها كتاب « التحفة السنية » ، والأمير عمر طوسون في كتابه « مالية مصر »^(٥) .

(١) نشر هذا البحث في مجلة الثقافة ، السنة الثانية العدد ٩٧ ، الثلاثاء ٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠ .

(٢) يترجم له ابن اياس (ج ١ ص ١٩٦) في كلمات قليلة فيقول : « وفي جمادى الأولى توفي القاضي شرف الدين يحيى ابن الجيعان مستوفي ديوان الجيش ، وهو يحيى بن شاكر بن عبد الغني الشافعي وكان عالماً فاضلاً رئيساً حليماً ، وله اشتغال بالعلم والفرائض » .

(٣) طبعته دار الكتب المصرية في المطبعة الأهلية سنة ١٨٩٨ ، وأشرف على نشره وقدم له بالفرنسية (P. moritz) .

(٤) المرجع السابق المقدمة ص IV - I .

(٥) عمر طوسون (مالية مصر) ص ٢٥٢ .

والكتاب المذكور ليس إلا ثبتاً حافلاً بأسماء الجهات ومساحاتها ومقدار خراجها ، ونستطيع أن نحس هذه الأهمية إذا عرفنا أن المؤلف كان مستوفي ديوان الجيش كما يذكر ابن أياس ، فهو ينقل عن السجلات التي بين يديه ، غير أن الكتاب تنقصه ناحية أخرى طريفة لم يتعرض لذكرها البتة ، وهي كيفية الروك ونتائجه ، وقد تناول المقرئ في الخطط هذه الناحية بشيء من الإسهاب ، فسدّ هذه الثغرة في كتاب ابن الجيعان ، وأصبح كل من المرجعين يكمل أحدهما الآخر ...

وسنحاول هنا أن نلخص كيفية التي اتبعها الناصر محمد بن قلاوون في روكه الأخير في النقاط الآتية :

١ - يذكر المقرئ أن الذي ساعد الناصر في إعداد معدّات هذا الروك وإتمامه هو القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش ، فقد أعدّه أوراقاً :

« بما عليه عبر النواحي ومساحتها ... » (١)

٢ - وقسم الناصر الديار المصرية إلى أربعة أقسام :

أ - الغربية

ب - الشرقية

ج - المنوفية والبحيرة

د - الوجه القبلي

وانتدب لمسح كل قسم منها الأمراء والكتاب والمستوفين والقياسين ، وكان هؤلاء يسترشدون في مهمتهم في كل قرية بمشايع البلاد ودلائلها ، وعدولها ، وقضاتها ، وسجلاتها .

(١) المقرئ ، الخطط : ج ١ ، ص ١٤٢ .

٣ - وأنهم أتمموا عملهم هذا في مدى خمسة وسبعين يوماً :

« وقد تحرر في الأوراق المحضرة حال جميع أرض مصر ومساحتها وعبرة أراضيها ، وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة وصنف (١) » .

٤ - وأن الناصر أبطل بعد انتهاء هذا الروك كثيراً من المكوس الجائرة المجحفة ، يذكر المقرئ منها أربعة عشر مكساً ، ويتحدث عن كل واحد منها على حدة ، ومن هذا الحديث نستطيع أن نلمس مقدار الجور الذي كان يتحمله المصريون قبل هذا العهد .

(٥) أن السلطان قسم الإقطاعات أربعة وعشرين قيراطاً (قسماً) ، احتفظ لنفسه منها بعشرة قراريط ، وترك للأمرء والأجناد أربعة عشر قيراطاً .

٦ - وكان غالبية الكتاب والأدلاء من الاقباط ، والمقرئ لا ينسى أثر مكرهم ودهائهم في هذا الروك ، فيقول :

أ - بأنهم : بدأوا بأن أضعفوا عسكر مصر ، ففرقوا الاقطاع الواحد في عدة جهات ، فصار بعض الجبل في الصعيد ، وبعضه في الشرقية ، وبعضه في الغربية ، إتعاباً للجندي ، وتكثيراً للكلفة .

ب - « وأفردوا جوالي الذمة من الخاص ، وفرقوها في البلاد التي أقطعت للأمراء والأجناد ، فإن النصاري كانوا مجتمعين في ديوان واحد ، فصار نصاري كل بلد يدفعون جاليتهم إلى مقطع تلك الضيعة ، فاتسع مجال النصاري ، وصاروا يتنقلون في القرى ، ولا يدفعون من جزيتهم إلا ما يريدون ، فقل متحصل هذه الجهة بعد كثرتة » .

ج - « وأفردوا ما بقي من جهات المكوس برسم الحوائج خاناه التي

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

تصرف للمسايط ، ليتناولوا ذلك ، ويوردوا منه ما شاءوا ، ثم يتولوا صرف ما يحصل منه في جهات تستهلك بالأكل ... »

٧ - وأن الناصر - بعد أن تم له هذا الأمر - جلس بايوانه في القلعة في المحرم من سنة ست عشرة وسبعمائة ، وكان يستعرض كل يوم أميرين من الامراء المقدمين بمضافيها ، وكان نقيب الجيش يقدمهم واحداً واحداً إلى السلطان ، فيسأله دون وساطة : « عن اسمه ، وأصله ، وجنسه ، ووقت حضوره إلى ديار مصر ، ومع من قدم ، وإلى من صار من الامراء وغيرهم ، وعن مشاهدته التي حضرها في الغزو ، وعمّا يعرفه من صناعة الحرب ، وغير ذلك من الاستقصاء ، فإذا انتهى استفهامه إياه ناوله بيده مثلاً من غير تأمل ، بحسب ما قسم الله له . . »

وتدل هذه الطريقة التي اتبعها الناصر في توزيع الاقطاعات على نزاهته التامة ، بل لقد تبادى الناصر في هذه النزاهة ، وذهب فيها إلى أبعد حد ، فأخذ - كما يقول المقرئ - في مواربة الامراء ، فما أثنوا على أحد في مجلس العرض إلا وأعطاها السلطان مثلاً باقطاع رديء ، فلما علموا ذلك أمسكوا عن الكلام معه جملة ...

٨ - كان من الطبيعي - إتباعاً لطريقة الاقتراع - أن يخرج لبعض الامراء إقطاعات لا تروقهم ، وأن يخرج لغيرهم إقطاعات تسرهم ، وكان من الطبيعي أيضاً أن يثور من لا يرضى عن إقطاعه ، ويبدي امتعاضه وغضبه ، ولكن الناصر - لكي يضمن السمع والطاعة من أجناده وأمرائه - أمر أن لا يرد أحد مثلاً أخذه من السلطان ، ولا يشفع أمير في جندي ، وان من خالف ذلك ضرب ، وحبس ، ونفي ، وقطع خبزه ، فعظمت مهابة السلطان وقويت حرمة (١) ... »

(١) كان الناصر حازماً كل الحزم في إصداره هذا الأمر ، غير أنه كان إلى ذلك قاسياً كل القسوة مع كل من تعرض لنظام الورك بالنقد ، وليس أدل على شدته وقسوته من قصة مضحك الذي ربطه إلى الساقية وأمر أن تدور به مدة ساعة كاملة حتى أشرف على الموت ، وذلك لأنه حاول أن يضحك الناصر بنكتته فيها نقد لنظام الورك ، انظر : المقرئ - خطط ج ١ ص ١٤٦ .

وأخيراً ، يتضح من دقة هذه الاجراءات وسرعتها ، والنزاهة والحزم اللذين اتبعنا في توزيع الإقطاعات ، أن هذا الروك كان عملاً عظيماً يستحق الاعجاب والتقدير ، لذلك يعلن الأمير عمر طوسون إعجابه به فيقول :
« وهذا الروك كان محكماً في بابه ، ولم يكن فقط أكثر استيفاء من المساحات التي سبقته في العهد العربي ، بل كانت عملاً متقناً تفتخر به أي مصلحة من مصالح المساحة الحالية (١) » . وقد قام الأمير بمهمة شاقة حين أحصى جهات كل إقليم كما ذكرها ابن الجيعان ، ثم أحصى خراجها ، وأعد لذلك ثبناً خاصاً خرج منه بهذه النتيجة الطيبة :

١٨٢٨	النواحي التي ذكر خراجها ومساحتها
٢٣١	النواحي التي ذكرت مساحتها ولم يذكر خراجها
٦٣	النواحي التي لم يذكر خراجها ولا مساحتها
١٩٧	النواحي التي ذكر خراجها ولم تذكر مساحتها
٢٣١٩	الجملة

ثم حاول الأمير سد هذا النقص بفروض تقريرية خرج منها بنتائج قريبة أو تكاد تكون قريبة من الحقيقة .

وإذا عرفنا أن كتاب ابن الجيعان ليس إلا ثبناً بالأسماء والأرقام ، أدركنا الجهد الكبير الذي عايناه الأمير عند تركيز هذه الأسماء والأرقام حتى انتهى إلى هذه النتيجة الطيبة في جداول واضحة تبين مساحة كل إقليم ومقدار خراجها ، متوخياً في نفس الوقت سد النقص الموجود في كتاب ابن الجيعان ..

* * *

وبعد فهذه محاولة ضعيفة حاولت بها نشر صفحة من صفحات الحياة الاقتصادية في مصر الإسلامية كما حاولت بها أيضاً توجيه الأنظار إلى طرافة هذا النوع من البحث وأهميته ، وارجو أن أكون قد وفقت فيما حاولت بعض التوفيق .

(١) عمر طوسون (مالية مصر) ص ٢٥٩ .

الأساطيل المصرية^(١)

ومحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس

في عهد السلطان المملوكي جقمق

لم تكن محاولات سلاطين المماليك للاستيلاء على جزيرة رودس الصغيرة ، أثناء القرن الخامس عشر الميلادي ، مجرد حركة أريد بها إشباع شهوة اعتدائية غاشمة ، بل إن ما قام به أولئك السلاطين من الأعمال الحربية بشرق البحر الأبيض المتوسط في ذلك القرن ، كاستيلاء على جزيرة قبرص أولاً ، ثم التثنية على ذلك بمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس ، لم يكن في الواقع إلا ردّاً — وإن جاء بعيداً — على ما أنزلته هاتان الجزيرتان وأحلافهما الأوربيون من الدمار بالشواطئ المصرية وثغرها الإسكندري قبل ذلك بخمسين سنة تقريباً. ثم إن تلك الأعمال الحربية المملوكية أملت حين ذاك — في غير شك — رغبة

(١) كتب هذا الفصل أصلاً باللغة الانجليزية الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وقد قمت بترجمته الى اللغة العربية ، ونشرت هذه الترجمة لأول مرة في : (مجلة الجيش المصري ، عدد ٣٢ مجلد ٢٨ يناير ١٩٤٦) — جمال الدين الشيال .

خالصة في تأمين التجارة- المصرية من عبث- القبارصة وأضرابهم من متحرّسة البحر ، وهذا فضلا عما انطوت عليه من عزم لتصفية ما تبقى ماثلا مثولاً ماديا من الحروب الصليبية وفكرتها بالشرق ، في شخص ملوك لوزيان (Lusignans) بحزيرة قبرص ، وجماعة الفرسان الاسبتارية (Knights Hospitallers) بحزيرة رودس .

على أن اهتمام سلاطين الممالك بهاتين الجزيرتين لم يكن جديدا ، بل تبدو جزيرة رودس — كما تبدو أختها قبرص — بالحوليات الإسلامية الأولى ميدانا من الميادين التي شهدت جهود المسلمين ، ليجعلوا لدولتهم الجديدة قوة بحرية وسيطرة بشرق البحر المتوسط . ففي سنة ٦٥٣ م — أي بعد أربع سنين من الفتح الإسلامي الأول لجزيرة قبرص — استولى المسلمون على رودس ، وظلوا بها حتى سنة ٦٥٨ م ، عدا فترات قصيرة بين هذين التاريخين . ثم تطلب الأمر فتحها ثانية سنة ٦٧٢ م ، على يد القائد « جناد بن أبي أمية » ، وذلك قبيل حصار المسلمين للقسطنطينية للمرة الأولى من مرات محاولاتهم الكثيرة ضد العاصمة البيزنطية . ثم أعقب الخليفة معاوية ذلك الفتح الثاني لجزيرة رودس بإقامة جالية إسلامية بقيت بها على مضض حتى اعتلى عرش الخلافة ابنه يزيد الأول ، فأشفق يزيد على المسلمين من الخطر الذي يهددهم من سكان تلك الجزيرة ، وما قد تبينه الإمبراطورية البيزنطية ضدهم ، فأذن بعودتهم إلى أوطانهم ، ومن المحتمل أنهم عادوا قبيل وفاته سنة ٦٨٢ م . ولم يمض على ذلك خمسة وثلاثون عاماً حتى كانت الدولة الإسلامية أعدت العدة في البر والبحر للقيام بآخر محاولة ضد القسطنطينية في تلك العصور ، واستولى الأسطول الإسلامي وهو في طريقه إلى تلك المحاولة الشهيرة على جزيرة رودس مرة أخرى سنة ٧١٧ م ؛ على أن النار الإغريقية والأنواء التي أنقذت العاصمة البيزنطية من يد المسلمين تلك السنة أدت أيضاً إلى عودة رودس إلى حظيرة الامبراطورية . ثم حدث في سنة ٨٠٧ م أن قام أسطول هارون الرشيد بقيادة حميد بن قحطبة بهجوم مفاجئ على تلك الجزيرة ، ولكن المغيرين لم ينجحوا

في الاستيلاء على مينائها ، فاكتفوا بتخريب ما استطاعت أيديهم أن تمتد إليه ، وأبحروا عنها محملين بغنائم وفيرة وعدد كبير من الأسرى .

انقضت خمسة قرون بين تلك الأحداث وبين مقدم الفرسان الاسبتارية من الشام إلى جزيرة رودس سنة ١٣٠٩ م ، وهم المعروفون أيضاً باسم فرسان القديس يوحنا ؛ وعانت الجزيرة صنوف العدوان خلال تلك القرون على يد التجار البنادقة ، برغم تبعيتها للامبراطورية البيزنطية ، وانتهى الأمر بانتقالها إلى بعض المغامرين الإيطاليين في أوائل القرن الثالث عشر ، بعد أن طردت الامبراطورية البيزنطية عن القسطنطينية على يد الصليبيين ، ولم يبق منها إلا ما هو معروف باسم إمبراطورية نيقية بناحية من آسيا الصغرى ، وما هو معروف باسم إمبراطورية طرابزون بناحية أخرى من ذلك الإقليم .

ولقد غدت رودس منذ قدم إليها الاسبتارية - كما غدت قبرص منذ قامت بها مملكة اللوزنيان - حصناً من الحصون الباقية لحكم الصليبيين بشرق البحر المتوسط . وكان طبيعياً وضرورياً أن تتحد أغراض الاسبتارية واللوزنيان ، وأن تقوم بينهما سياسة تعاونية متبادلة ، أمام الخطر المشترك الذي يهدد كيان كل منهما تهديداً واضحاً ، وهو ما قد تعزمه الدولة المملوكية بمصر والشام ضدهما صونا لمصالحها وسواحلها بشرق البحر الأبيض المتوسط ، أو ما قد تنتويه نحو إحداها أو كليهما دولة الاتراك العثمانيين الرابضة بآسيا الصغرى .

ولذا أضحي من مصلحة الجزيرتين أن تعملوا معاً يداً واحدة ، ونتيجة لذلك التشابه في الأغراض وحفظ الكيان بات تاريخ الواحدة منها - وخاصة في السياسة الخارجية - مختلطاً بتاريخ الأخرى ، وأصبح نشاطها يكمل بعضه بعضاً . غير أن ذلك ينطبق على رودس تحت حكم الاسبتارية أكثر مما ينطبق على قبرص وملوكها اللوزنيان الذين بدت مملكتهم في حال من الانحلال منذ أواخر القرن الرابع عشر ، مما دلت عليه أعمال الحملات المصرية الحاسمة بين

سنتي ١٤٢٤ و ١٤٢٦ م . يضاف إلى ذلك أن قبرص كانت قد 'دفع بها في غمار المنافسة التجارية بين جمهوريتي جنوة والبندقية ، فأمست جهودها موجهة ضد احتكارات الجمهوريتين أكثر من توجيهها نحو مدافعة القوى الإسلامية المهددة لوجودها ، بله القيام بحروب صليبية من الطراز القديم ، أو ما يشبهه . ويلاحظ هنا أيضاً أن جنوة والبندقية أخذتا تدعوان حينذاك إلى سياسة تجارية جديدة ، مؤداها أنه تجب العناية بتنمية التجارة مع المدن والموانئ المملوكية والعثمانية ، مع اليقظة إلى كبح الاعتداءات التي عساها تأتي من هاتين الناحيتين . أما الاسبتارية بجزيرة رودس فقد ظلت تنظر إلى المسلمين - « الكفرة » في عرفها - بالروح القديمة ، كأعداء للمسيحية من الواجب سلبهم واستعبادهم أو قتلهم ، حيث كانوا وأيا كانوا . واعتنق هذه الفكرة كل رئيس تولى أمرهم ، واعتقد أن واجبه الأول لا يقف عند صيانة الجزر التابعة للاسبتارية ، بل يتعداه إلى الدفاع عن جميع القوى المسيحية بالشرق كأنه قائد عام مندوب لها .

وكانت قبرص على وجه الخصوص موضع عناية الاسبتارية ، لما لهم بالجزيرة من مصالح مادية هامة تتمثل في بعض الإقطاعات والضياح التي أطلق عليها إجمالاً « دائرة الاسبتارية بجزيرة قبرص » ، ومركزها بلدة كولوس قرب ليماسول ، وذلك فضلاً عن الصلات الروحية التي تربطهم باللوزنيان إخوانهم في الدين والحماسة الصليبية قديماً . ولذا كان من القواعد المقررة عند كل رئيس من رؤساء الاسبتارية أن « أي إنسان يدبر لملك قبرص إيذاءً أو ضرراً أو تعدياً ، أو ينال منه على أية صورة ، أو من ممتلكاته ، أو من رعيته ، فإن عليه أن يدرك أنه قد فعل أو أوشك أن يفعل ذلك بنا وبممتلكاتنا ، وإننا سنساعد الملك وندافع عن ممتلكاته بكل ما لدينا من قوة » ، أي أن هذه القاعدة انطوت على نوع من التعاون الدفاعي والهجومى . ولذا اشتمل الاسطول المسيحي الذي فاجأ الإسكندرية بقيادة بطرس الأول لوزنيان سنة ١٣٦٥ م على بوارج من رودس وبوارج من قبرص أيضاً ، ومع ان تلك الحملة لم تؤد إلى

نتيجة حاسمة ، فإن تجارة مصر الخارجية اضطربت بسببها فترة من الزمن ،
مما دعا السلطنة المملوكية سنة ١٣٦٧ م إلى اقتراح عقد معاهدة تجارية مع
قبرص ورودس معاً ، من شروطها أن يكون للجزيرتين قناصل يتحولون سلطة
القضاء في شؤون رعاياهما بالإسكندرية . وتطوعت كل من جنوة والبندقية
للقيام بدور الوسيط في المفاوضات لحل الجزيرتين على قبول تلك المعاهدة
السخية ، ولكن بعض الاعتداءات على تجار الجنوية والبنادقة بالشعر الاسكندري
دفعت بالجمهوريتين إلى الانضمام لأهل رودس وقبرص في أعمال عدائية جديدة
بشواطئ مصر والشام ، مما أدى الى عرض السلطنة لمعاهدة أسخى شروطاً
عن ذي قبل . وظلت تلك المعاهدة الثانية قائمة حتى أوائل القرن
الخامس عشر ، وبعقبها معاهدة بمائة لها سنة ١٤٠٣ م بين الرئيس نايلاك
(Naillac) والسلطان فرج بن برقوق ، فانشئت قنصليات لروودس
بالإسكندرية ودمياط والرملة وبيت المقدس ، ووضع نظام للتجارة بين رودس
والإسكندرية ودمياط ويافا وبيروت وطرابلس ودمشق ، فضلاً عن نظام
لسفر الحجاج الذاهبين من رودس الى فلسطين ؛ وبمقتضى هذه المعاهدة ساد
السلام بين الاسبتارية وسلطنة المماليك أربعين عاماً ، توفي خلالها الرئيس
نايلاك . وخلفه في الرئاسة في رودس فلوفيان (Fluvian) مدير الممتلكات الاسبتارية
بقبرص سابقاً ، فجاء تعيينه سبباً لازدياد اهتمام الاسبتارية بشؤون الجزيرة .
وإتباعاً لنصيحته رضي الملك جيمس الأول لوزنيان بعقد معاهدة سلمية بين
قبرص وجنوة سنة ١٤١٤ م ، بل صرف فلوفيان كل ما في وسعه من أجل
قبرص خلال الحملات المملوكية سنة ١٤٢٤ - ١٤٢٦ م . ونتيجة لتدخله
الحربي هاجم المماليك مركز الاسبتارية في كولوس ، وهي المعروفة في المراجع
العربية بإسم إسلسا ، وانتقموا من أصحابها . يهدم المنازل وقطع الأشجار
واقلاع الكروم ، حتى غدت تلك الادارة خراباً بعد أن كانت اغنى ممتلكات
الفرسان . ولكن تلك الاعمال التخريبية لم تفت في عضد الرئيس فلوفيان
أو تقلل من عزيمته في الاخذ بناصر جزيرة قبرص ، فشارك بأكبر نصيب في

تدبير فدية الملك جانوس لوزنيان الذي أقتاده المماليك أسيراً الى القاهرة .
ولقد خشي الرئيس فلوفيان ان انتصار المماليك بجزيرة قبرص ربما حفزهم على الإقدام على محاولة مشابهة لإخضاع رودس ، ولم تكن مخاوفه مبنية على مجرد الظن ، فإن السلطان برسباي أشار عرضاً أثناء المفاوضات التي جرت بالقاهرة لفدية الملك جانوس إلى عزمه لتدبير حملة ضد رودس . وعلى أساس هذه الإشارة كلف فلوفيان رسوله الذي رافق وفد الفدية من قبرص بأن يعقد مع السلطان معاهدة جديدة ، وأن يستوعده ألا يشن حرباً على رودس .
وجاء الرسول إلى حضرة السلطان ، وقدم إليه هدية قدرت بستائة دينار ؛ ويبدو من سياق الحوادث انه نجح في مهمته ، إذ غادر مصر إلى قبرص في حاشية الملك بعد اقتدائه . على ان فلوفيان رأى ان يكون على حذر برغم ما أخبره به رسوله من وعد برسباي ، فأخذ في تحصين رودس لكيلا يؤخذ على غرة إذا نكث السلطان وعده ، وكان جواسيس الاستتارية بالاسكندرية قد روجوا ذلك الاحتمال غير ان السلطان برسباي لم يقم بشيء في تلك الناحية ، وذلك رغماً عن الحوادث المتكررة التي قام بها بعض القراصنة والمتحرمة من الفرنجة ، والتي كانت أشباهها بعضاً من الاسباب التي أدت إلى غزو قبرص .
ذلك أن برسباي كان وقتذاك في شغل شاغل بالملك شاه رخ بن تيمورلنك والأمير عثمان قرايلك زعيم قبيلة آق كيونلو التركمانية ، وقد سار برسباي نفسه لمحاربة قرايلك في ربيع سنة ١٤٣٣ م ؛ ثم حلت بالبلاد المصرية في السنين الباقية من عهد برسباي جملة من الطواعين والمجاعات والقلاقل المملوكية وارتفاع الاسعار ، ومات برسباي في يونيه سنة ١٤٣٨ م ، وقبل ذلك بعام تقريباً مات فلوفيان ، وانتخب من بعده لاستيك (Lastic) رئيساً للاستتارية .

أما برسباي فقد خلفه ابنه يوسف ، ثم عزل هذا الابن بعد أشهر من توليته نزولاً على الطريقة المملوكية المعروفة ، وآلت السلطنة من بعده إلى جقمق . وقد كان جقمق رجلاً تقياً محباً للسلام ، كما يستدل من تمنياته عند اعتلائه العرش سنة ١٤٣٨ م أن يسود السلام العالم الاسلامي ، وكما تشهد به الوفود

الاجنبية المختلفة التي جاءت إلى القاهرة لتنهشته . ولكنه لم يكن من المنتظر أن تؤدي التقوى وحب السلام بالسلطان جقمق إلى الإغضاء عن متحرمة الفرنج ، او الوقوف مكتوف اليدين إزاء غاراتهم المتكررة على سواحل بلاده وعلى السفن الاسلامية بشرق البحر الابيض المتوسط ، بل انه - على قول السخاوي المؤرخ المعاصر - ذكر ما أنزله سلفه برسباي بجزيرة قبرص ، وارتغام الفرنج كافة بذلك ... [و] أحب تجديد العهد بما فيه ذلهم ، أو بعبارة أخرى انه كان يتمنى أن يستقيم له مثل ما استقام لبرسباي من نصر ، وأنه وجد ضالته في القرصنة الضاربة بالمياه المملوكية ليجعل منها سبباً لغزو رودس في السنة الاولى من سلطنته . ولهذا أعد جقمق العدة من سفن ورجال للقيام بحملة ليس مقصدها رودس بالذات ، ولكن لتكشف عن حقيقة أصحاب الغارات الفرنجية الأخيرة على الشواطئ المصرية ، أو تلتقي بهم في عرض البحر ؛ كما أعلن برسباي عشية همت حملته الأولى بالرواح الى جزيرة قبرص . ولا بد ان جقمق في دخيلة نفسه رحب بتلك الفرصة التي وافته في مستهل حكمه ، والتي لا يمكن إلا أن تزيد في مكانته بين المسلمين ، ويضيف المؤرخ فرتو (Vertot) الى ذلك كله ان السلطان العثماني مرادا الثاني حرص جقمق على إنفاذ تلك الحملة الى رودس ، رغبة منه في صرف الاستبارية الى الدفاع عن جزيرتهم ، بدلاً من الانضمام إلى الحلف المسيحي الذي كان على وشك القيام بحرب كبرى ضد العثمانيين بالبلقان .

ولقد علم الرئيس لاستيك بنخب ذلك التحريض العثماني للسلطان جقمق ، قرأى قبل أن يتورط في البدء بالعداء أن يتأكد تمام التأكد من حقيقة ما وقع بين العثمانيين والمماليك من اتفاق ، وأرسل إلى مراد الثاني رسوياً يعرض عليه رغبته في تجديد المعاهدة التي عقدها الاستبارية مع سلفه . غير أن مراد الثاني رفض في لباقة أن يدخل في مفاوضات جديدة ، ما دامت المعاهدة القديمة كافلة لسلام الطرفين ؛ ولذا عاد هذا الرسل إلى رودس ليخبر الرئيس لاستيك « أن مصر وإن لم تعلن الحرب ، فإن السلم لم يعد من المحتمل طويلاً » . وبذا

لم يبق لدى الرئيس لاستيك إلا أن يتعرف مدى استعداد المماليك ، فأرسل وكيل الاستتارية في سفينتين لكشف أخبار السواحل المصرية ؛ وعلم الوكيل بكل ما يجري من الاستعداد لغزو رودس من مسيحي من أهل دمياط ، وأبحر من ثم صوب الشواطئ الشامية ، وهاجم سفينة من سفن المطوعة التابعة لبحر دمياط ، وذلك في يولييه سنة ١٤٣٩ م . ثم عاد الوكيل إلى رودس ، وأخبر أن الجزيرة لن تلبث طويلاً قبل أن تغير عليها السلطنة المملوكية بكل ما لديها من قوة ؛ واعتماداً على تقديره أعدّ لاستيك ثمانية غلايين وأربعة شوان وجملته من النقالات وشحنها بالمقاتلة ، وباتت رودس وممتلكاتها على أهبة للدفاع وردّ المغيرين .

أما القوى البحرية المملوكية التي غادرت بولاق في اليوم الثامن من شهر أغسطس سنة ١٤٤٠ م ، فقد تألفت من خمس عشرة سفينة من الطراز المعروف إذ ذاك باسم الغراب ، وعليها مائتان من الجند بقيادة الأميرين تغري برمش السلاح دار ويونس الحمودي أمير آخور . وازداد عدد أولئك المحاربين بانضمام كثير من المطوعة من أهل القاهرة ودمياط ، حتى بلغ عددهم قرابة ألف محارب حين أقلمت الاغربة من دمياط إلى جزيرة قبرص مباشرة . وفي قبرص امدّت الملك حنا الثاني تلك الحملة المملوكية بالمؤن ، فتوجهت منها إلى العلایا بالساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، حيث امدّها أميرها أيضاً بسفينتين من طراز الإبريق وعدد من الجند .

ومن ثم أقلمت الحملة إلى مدينة رودس ذاتها ، فوصلتها في الخامس والعشرين من شهر سبتمبر ، وُهِبَت الجند حين وجدوا المدينة مهيأة للقتال . ولما تحقق المماليك من استحالة اقتحام الثغر ، أرسوا سفنهم بالقرب من الرأس الرملية بأقصى الشمال من الجزيرة ، فدهمهم اسطول رودسى مؤلف من عشر سفن أكثرها صغير الحجم ، وبعد معركة متقطعة لم ينتصف فيها أحد الفريقين أبحر المماليك في غسق الليل يتعقبهم الرودسيون . وفي الصباح التالي وقعت بين الفريقين معركة أخرى غير فاصلة على مقربة من ساحل آسيا الصغرى ، فيمم

المماليك بعدها نحو مصر ، وقلوبهم مفعمة بالخيبة والبغضاء ؛ على أنهم تمكنوا في طريقهم من تخريب قرية رودسية عزلاء ، قنهبوا بها مصنعا للسكر ، وأسروا عماله وغيرهم من السكان الذين وجدوهم في الحقول المجاورة . ثم عادوا إلى دمياط وصعدوا في النيل صوب القاهرة ، فبلغوها في الثامن عشر من أكتوبر ؛ وقبل ذلك بأحد عشر يوماً وصلت السلطان أخبار زائفة تنبئه بانتصار الحملة ، ولكن السلطان جقمق لم يلبث أن علم الحقيقة ، حين قص عليه الجند قصة محزنة خلاصتها أنهم لم يكونوا أنداداً للروديسين .

والواقع أن هزيمة المماليك نفخت في كبرياء أهل رودس ، فعمتوا عتواً كبيراً ، وازدروا قوة السلطان علانية ؛ ولذا عزم جقمق على إعداد حملة ثانية تكون أشد بأساً وأعز نفراً . ويقال إنه حدثت وقتذاك مناقشة دينية في حضرة السلطان ، جاء في غضوننا ذكر لحديث شريف عن نزول المسلمين الأولين بجزيرة رودس في عهد الخليفة عثمان ، فحفز ذلك الحديث جقمق إلى العمل ، فأمر أن يصلح ما لديه من سفن قديمة ، وأن تصنع سفن جديدة ، بالغة النفقات ما بلغت ؛ وباتت دور الصناعة في شغل بإعداد السفن عدة شهور . وقد أحب السلطان أن يخفي نيته حتى يتم الاستعداد ، كما رأى أن يمهّد طريق النجاح للحملة بضمان الحياد من جانب جيران رودس المشكوك في موقفهم من السلطان إذا ما قامت الحرب ، فأبرم معاهدة مع فانتين كوريني صاحب جزيرة كوس ، ولم يلق صعوبة في عقد مثل تلك المعاهدة مع حنا الثاني ملك قبرص ، حتى إذا اطمأن من هذه الناحية أيضاً انفذ جماعة من الجند في خمس سفن ليأتوه بالأخبار عن مدى الاستعداد بجزيرة رودس . ذلك أن الرئيس لاستيك كان قد عكف على تهيئة الحصون بجزيرة رودس وممتلكاتها للحرب من بعد رجوع الحملة المملوكية الأولى خائبة إلى مصر ، لأن جواسيسه أعلموه بما يجري في مصر سراً من الاستعداد لحملة ثانية ، بل إنه أرسل القصاد إلى معظم ملوك أوروبا يطلب منهم العون . على أن الردود التي وصلت من مختلف الملوك لم تتعدّ « عبارات فارغة لا ننبئ عن شيء سوى

العطف الذي لا فائدة فيه » ، كما قال المؤرخ فرتو ؛ ولم يتحرك لمخالفة رودس سوى حنا الثاني باليولوجوس إمبراطور الدولة البيزنطية في أشد أيامها ضعفاً ، ولذا لم يكن لذلك الحلف نتيجة أو أثر . ويظهر أن لاستيك نالت منه الحيرة وقتئذ حتى أنه حاول الدخول في مفاوضات سلمية مع السلطان لاجتناب الحرب ، ولكن رسله الذين وصلوا إلى القاهرة في أواخر أبريل سنة ١٤٤٣ م - محملين بالهدايا وصحبتهم جملة من الأسرى المسلمين - لم يجدوا من أحد أذنًا صاغية ، بل قبض عليهم وأودعوا سجن « المقشرة » قرب باب الفتوح الحالي ، مع أرباب الجرائم .

وبعد شهرين فقط من ذلك التاريخ كانت السفن - وعليها من الجند ألف عدا المطوعة - قد تجهزت للإبحار ، تحت قيادة الأمير « إينال العلاني » الذي قدر له أن يصبح سلطاناً فيما بعد . وهكذا أقلت الحملة الثانية على رودس من دمياط ، في أواسط أغسطس سنة ١٤٤٣ م ، قاصدة الشواطئ السورية ، لتجمع إليها الأمداد من طرابلس . وقد صادفتها في طريقها رياح وأنواء اضطرتها إلى التفرق شذر مذر ، فوصل بعضها إلى بيروت ، ووصل البعض الآخر إلى طرابلس ، حيث علم الأمير إينال العلاني أن الأمداد السورية خشيت طول الانتظار ، وأنها سبقت إلى المياه القبرصية . وفي قبرص اجتمعت القوى المملوكية كلها ، وأرست أخيراً قبالة ثغر لياسول للامتيار ، وذلك في أواخر أغسطس .

غير أن لياسول فزغت لمقدم الحملة ، مما يدل على أن أخبارها لم تكن ذاعت ، وأن حنا الثاني ملك قبرص أخفى ما عنده من قرب وصولها إلى الجزيرة ، أو غير ذلك من الاحتمالات . ولذا لم تكد الحملة تنزل بعض جنودها إلى الساحل حتى أسرع أهل لياسول وحاكمها إلى الهرب بما استطاعوا حمله من المتاع ، وهنالك سنحت الفرصة للمماليك للتخريب والتدمير ، بعد أن اتهموا أهل لياسول بالخيانة وخلف الوعد ، فامتدت أيديهم إلى السلب والنهب . بلا

زاجر ولا رادع ، على حين شرب بعضهم مما وجدوا من الأنبذة حتى ثملوا .
وبينا الحال على هذا المنوال وصلت رسل حنا الثاني ملك قبرص ، وأخبرت
بأن المؤن المطلوبة تنتظر الحملة في بلده بافوس ، وتقدم الرسل الى القائد إينال
العلائي بالاعتذار عن هرب أهل لياسول ، وأكدوا له أن أهل قبرص قد عمهم
السروور لخبر الحملة على رودس . وفي ذلك اليوم لوحظت سفينتان فرنجيتان
تحومان من بعيد لاستطلاع قوة المماليك ، غير أنها تركتا وشأنها ، إذ لم يكن
أحد من الملاحين أو الجند مستعداً للخروج إليهما .

ثم أبحرت الحملة إلى بافوس ، حيث كانت الميرة في انتظارها ، فألقت
مراسيها بالقرب منها ، وأخذت حاجتها من الماء والزاد واستمع إينال إلى
شكوى رسل الملك من انتهاب لياسول الشنيع ، فاعتذر بأن ما حدث كان
من فعل بعض غير المسؤولين من الزعر والحرافيش بغير علمه ، وأن أولئك
معذورون ، إذ لم يسرع أحد من أهل البلد لمقابلته وتقديم المؤن اليه وتأكيد
ولاء القبارصة للسلطان .

ومن بافوس تقدمت الحملة نحو أضاليا بالساحل الجنوبي من آسيا الصغرى ،
ومنها إلى فنيكا ، ثم إلى قشتيل الراج (Chateauroux) أي الحصن الأشهب
حيث إرست السفن المملوكية على مرأى من الحامية الاستتارية هناك .
ثم نزل المماليك إلى البر في السابع من أكتوبر سنة ١٤٤٣ م ، فحيتهم الحامية
من أبراج الحصن تحية ساخرة بطلقة واحدة من مدفع ، أعقبتها طلقات صغيرة
متباعدة إمعاناً في السخرية ، فضلاً عن عبارات بذيئة ترامت على الجند من
مختلف الأبراج . فأثار ذلك حفيظة المماليك وحماستهم للقتال ، وأصروا على
الاقتصاص من « الكفرة » لبذاءة ألسنتهم ، على الرغم من نصيحة إينال أن
يتجاهلوا ذلك ويقلعوا نحو رودس ، وهي هدفهم الأول ؛ واضطر إينال
أخيراً إلى النزول على إرادتهم وإلحاقهم ، وألقى الحصار على حصن
قشتيل الراج .

وقد حاول المماليك في أول الامر أن يأخذوا الحصن عنوة في هجوم عام ، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن ذلك عبث في غير أمل ، فآلقوا عليه الحصار . ثم نجح النقاؤون في إحداث ثغرة بالسور ، وما زالوا به حتى اقتحموه ، وتم لهم النصر بتسليم الحامية . ودقت الكوسات وضربت الطبول ، وهرع المماليك إلى الأبراج يرفعون فوقها رايات الإسلام ، ثم توجهوا لنصرهم ذلك اليوم (١٢ أكتوبر سنة ١٤٤٣ م) بهدم القلعة كلها وتسوية أبراجها بالأرض . غير أن موسم القتال كان قد أوشك على الانتهاء باقتراب الشتاء ، ولهذا لم تستطع الحملة أن تواصل عملها بالإغارة على رودس ، وقرر الأمير إينال تمضية الشتاء بثغر ماكرى بشاطيء آسيا الصغرى ، مما يرجح تبعية ذلك الثغر وقت ذاك للدولة العثمانية ، أو لغيرها من أصدقاء الدولة المملوكية بشرق البحر الأبيض المتوسط . لكن الزوابع والأعاصير ألحّت الحملة إلى العدول عن تلك الخطة وتقرير الذهاب إلى قبرص ، ثم اضطرتها الرياح الغربية إلى العدول عن ذلك أيضاً واعتزام العودة إلى مصر على أن طريق العودة لم يخل من متاعب البحر وشدة الرياح ، فوصلت سفن الحملة أبعاضاً متفرقة إلى دمياط والإسكندرية ورشيد ، وهبّت في طريقها بفرعي النيل ريح مريسية لافحة عاقبتها طويلاً ، فلم تلق مراسيها في بولاق حتى اليوم الحادي والعشرين من شهر ديسمبر ، ومعها مائتان من الأسرى « أغلبهم من الشيوخ والنساء » ، وكمية من أثاث قلعة قشتيل الراج . واستعرض جقمق جنود الحملة بالقلعة ، وخلع على القواد خلع الشرف المعتادة ، وفي قلبه حسرة أن ما بذله من مجهود في إعداد تلك الحملة الثانية ذهب مع الرياح العاتية وضعفته البحار العاصفة . على أن تلك الحملة الثانية قد جاءت - في نظر المعاصرين - بنتائج مهما تكن فهي أفضل من نتائج الحملة الأولى ، إذ قالوا إنها نصر مبتور ، وإنه لا بد من استكمال ذلك النصر .

ولهذا أخذت فكرة القيام بحملة ثالثة تختمر في رأس السلطان جقمق ، ويبدو أن توفيق سلفه برسباي في فتح قبرص على يد حملة ثالثة شجعه على

المضي في معاودة الكرة على رودس ، بل الواقع أن جقمق اتخذ من أعمال برسباي في تلك الحملة الثالثة على رودس نموذجاً ، إذ فصل القيادة البحرية عن القيادة البرية وعين الأمير ترمباي مقدم الحلقة لأموور البحر ، وقصر الأمير إينال العلائي قائد الحملة السالفة على أمموور البر . ثم أمر جقمق أن تنضم كثير من القوات المملوكية التابعة للنيابات الشامية إلى تلك الحملة ايضاً ، وبذا بلغت ما يزيد عن ألف وخمسمائة من الجند عدا المطوعة ، وبدأت كما هو منتظر أوفر عدداً وعدة من قوى الحملتين السابقتين . وكان بين المطوعة شخصيتان معروفتان ، وهما برهان الدين البقاعي ونور الدين الكردي ، وكل منهما قد اشترك في الحملتين السابقتين واعطاً ومثيراً لمجاسة الجند أثناء القتال . وبينما الاستعدادات قائمة على قدم وساق لم يستطع البقاعي أن يظل بلا عمل ، فشغل وقته بنظم سيرة النبي ﷺ حتى أتمها ، قبل إبحار الحملة الثالثة على رودس من الشواطئ المصرية بأيام .

وفي أواخر شهر أبريل سنة ١٤٤٤ م تمت كل الاستعدادات بالقاهرة ، وصدرت الأوامر إلى رؤساء البحر لإحضار الثقافات من الإسكندرية ودمياط لنقل الجند من بولاق . ورحلت الحملة أخيراً من بولاق في اليوم الثالث من شهر يولييه ، وأقلعت من دمياط في العشرين من ذلك الشهر ، وانضمت إليها القوى السورية عند طرابلس . ومن طرابلس أبحرت الحملة كلها صوب مدينة رودس ، فوصلتها وألقت عليها الحصار في منتصف أغسطس . وقد نزل المماليك إلى البر تلك المرة بعد وصولهم مباشرة ، وأقاموا آلات الحصار من مجانيق ومقاليع في سرعة ملحوظة ، كما نصبوا الخيام فوراً عند اللسانين الممتدين إلى الجنوب الشرقي من كنيسة الفديس أنطون ، وهي أكبر كنائس رودس . ثم توغلت فرقة من كبار المماليك إلى الداخل قليلاً ، وأخذت مكانها حول الكنيسة نفسها لترى تطور الحصار عن كثب ، ولتكون على أهبة لنجدة القائمين على الحصار بخوض المدخل الضحل لمرقأ مدينة رودس ؛ وهذا على حين انتشرت ثلة من اتباع الجيش والحراقيش الذين لا هم لهم من

الحرب إلا النهب والسلب ، قتقرقت هذه في البساتين والضياع تعيث فيها فساداً .

ثم بدأت أعمال الحصار بالرمي بالمجانيق على حصن القديس نيقولا ، وهو أهم الاستحكامات الخارجية حول مدينة رودس ، وسرعان ما تهدمت أركان الابراج المربعة ، وتصعدت الباشورة الممتدة من طرف الحصن الى برج القديس بطرس في أقصى الطرف الآخر من الميناء . لكن المعركة ظلت غير حاسمة ، وقتل الكثير من رجال الطرفين تحت وابل القذائف المتبادلة بينهما . ولم تشأ الاسبتارية إلا أن تلتزم خطة الدفاع ، خشية ألا يأتي الانقلاب الى الهجوم بنتيجة محمودة ، وهذا على الرغم مما جاءهم من نجدة من بعض سفن البرجنديين والكتلان التي صادف وصولها وقت ذاك الى جزيرة رودس . على أن الأسطول الاسبتاري تشجع - فيما يبدو - بوصول تلك السفن ، إذ هاجم السفن المملوكية وكاد يأخذها على غرة لولا أن الأمير يلخجا كان بالمرصاد ، فاستطاع أن يرد تلك الحركة رداً عنيفاً ، وكلفه ذلك ثلاث سفن مملوكية ذهبت في اليم .

وبعد ذلك بقليل خرجت فرقة من الاسبتارية من حصن القديس نيقولا ، وباغتت فئة المماليك المعسكرة حول كنيسة القديس أنطون ، وأعملت السيف فيهم قبل أن يتمكنوا من سلاحهم ، فلم ينج منهم إلا القليل الذي استطاع الفرار عبر المخاضة للحاق بالقوات المحاصرة للحصن ، وقد فت ذلك في عضد الجيش المملوكي الذي نالت منه متاعب الحصار . ثم ظلت المعركة حامية من بعدئذ أياماً ، قاتل المماليك في أثناءها قتال اليأس حتى استطاعوا أخيراً أن يحدثوا ثغرة كبيرة بالباشورة الممتدة من برج القديس بطرس . وعند ذلك قررت الاسبتارية الهجوم ، لئلا تنفذ اليهم الجيوش المحاصرة وتقاتلهم في عقر دارهم ؛ ولم يعلموا ان المماليك كانوا على وشك من رفع الحصار . ففي صبيحة اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس خرجت القوات الاسبتارية

من بوابتي القديس بولص والقديس نيقولا، واصطفت خارج البوابتين أمام ثغر الباشورة، فوقفت المشاة في المقدمة، ومن ورائها الزراقون، والرماة بالقوس في الجانبين. ثم انطلقت الأبواق ودقت الطبول من برج القديس نيقولا إيداناً ببدء القتال، فاقتحمت كوكبة من الاسبتارية معسكر القوات المحاصرة. ولم تكن ساعة حتى شالت كفة الممالك، وقتل منهم عدد عظيم، ولجأ الباقون إلى سفنهم وغلايينهم، وقد تركوا وراءهم كل مجانيقهم ومؤنهم ومتاعهم والجسم الغفير من الأسرى؛ وسرعان ما اتخذت السفن المملوكية طريقها في البحر طلباً للنجاة.

وقبل وصول الأخبار إلى القاهرة بتلك الخاتمة السيئة، جاء إلى السلطان جقمق بريد سريع تاريخه ٢٤ أغسطس يصف بعض حوادث ذلك اليوم العصيب؛ غير أنه لم يرد فيه أن اليوم انتهى بجلاء القوات المملوكية عن رودس، إذ سارع السلطان إلى إرسال النجدة والمدد. على أن هذه لم تلبث أن قفلت راجعة إثر سفن الحملة العائدة بأذيال الخيبة والفشل، وقد كانت القصة التي رويت للسلطان أشد هولاً من جميع الأخبار التي وصلت سابقاً، إذ قتل في المعركة ثلاثمائة جندي، بينهم تغرى برمش السلاح دار الذي تولى قيادة الحملة الأولى، وذلك فضلاً عن خمسمائة جريح، وثلاث سفن؛ وأسوأ من ذلك كله أن كثيراً من الجند لجأوا إلى العدو واعتنقوا المسيحية. والخلاصة كما قال السخاوي «أنه لم يتم للمسكر قصد، ولا رجعوا بطايل، ولهذا فترت همهم عن الجهاد في تلك المدة لهذه الجهة، والله عاقبة الأمور». على أن الحملة لم تكن بلا جدوى بالنسبة إلى برهان الدين البقاعي، فإنه أتم منظومته في السيرة النبوية قبل إبحار السفن من المياه المصرية ووجد العزاء في قراءتها على الناس بمساجد القاهرة بعد رجوعه، وقد كسرت ساقه بميدان القتال.

غير أنه مهما قيل في النصر الذي أحرزه الاسبتارية على تلك الحملة الأخيرة من حملات الممالك على جزيرة رودس في القرن الخامس عشر، فإن اضطرارهم

إلى مدافعة تلك الحملات ثلاث مرات متتالية أضعفهم كل الضعف ، وباتوا يخشون ما عساه ان يكون مصيرهم أمام حملة رابعة ظنوها لا بد آتية . ولذا أرسلوا إلى البابا يوجين الرابع يصفون خطورة موقفهم ، كما أرسلوا إلى ملوك أوروبا يطلبون منهم الوعد بالنجدة إذا لزم الأمر . غير أن أقصى ما استطاع رسل الرئيس لاستيك ان يأتوا به من أوروبا هو ان الملوك مشغولون بمشاكلهم الخاصة عن ان يعدوا بمعونة ، بل رغب البابا إلى الاسبتارية أن تضع حداً لحروبها مع السلطان . وتنفيذاً لتلك الرغبة ، اخذ الرئيس لاستيك يبحث عن وسيط يستطيع الحصول على تسوية مرضية للطرفين ، وبدأ له ان التاجر الفرنسي الشهير جاك كير (Jacques Coeur) هو الوحيد للقيام على تلك المهمة قياماً يكفل النجاح ، لما لاسمه من الثقة ، ولما لشخصه من الصلة بالسلطان جقمق نفسه . وقد قبل جاك كير ان يقوم بتلك المهمة بعد ان استأذن شارل السابع ملك فرنسا ، وأرسل احد وكلائه صحبة مبعوث اسبتاري على إحدى سفنه إلى الاسكندرية حيث عقد الصلح ؛ وعاد المبعوث إلى رودس ومعه عدد من المسيحيين الذين أسروا خلال الحملات السالفة . وفي ٨ فبراير سنة ١٤٤٦ م صدر عن ديوان الرئيس لاستيك امر إلى وكيل الاسبتارية بإقليم بروفانس بفرنسا ان يدفع إلى جاك كير جميع النفقات التي تكبدها لتسفير المبعوث الرودسي إلى الإسكندرية ذهاباً وإياباً ، فضلاً عن نفقات ارجاع الأسرى المسيحيين .

ومن بعدئذ تأخذ الحوليات الرودسية في الاهتمام بالأتراك العثمانيين ، وهم العدو الثاني للاسبتارية وجزيرة رودس . وكانت العثمانيون لا يزالون يعملون على توسيع رقعة سلطانهم على حساب جميع جيرانهم ، ووضح لاهل رودس ان مركز جزيرتهم الحربي ، وموقعها بين البوسفور وشرق البحر الابيض المتوسط ، لا بد أن يؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى إهواء العثمانيين عليهم . ومع أن مركز الاسبتارية أضحى مهدداً بذلك الخطر الداني منذ أواسط القرن الخامس عشر ، فإنهم ظلوا على عنايتهم القديمة بشؤون جزيرة قبرص وملوكها

من آل لوزنيان التابعين للسلطنة المملوكية منذ سنة ١٤٢٦ م . على ان تلك العناية كان مرجعها أولاً ما لرودس من المصالح المادية بجزيرة قبرص ، فضلاً عما بينها من الشبه في الوضع الجغرافي والديني بالنسبة للسلطنتين المملوكية والعثمانية وغيرهما من القوى الاسلامية المجاورة . ففي سنة ١٤٤٨ م طمع أمير قرمان بأسيا الصغرى في ثغر جوريجوس التابع لجزيرة قبرص ، واستولى عليه في نوفمبر من تلك السنة ، وتم له ذلك بفضل إغضاء نائب السلطنة المملوكية بمدينة طرسوس المجاورة . فلما علم الرئيس لاستيك بتسليم ذلك الثغر الذي بقي زمناً طويلاً كالشجى في حلق المسلمين ، كتب إلى الملك حنا الثاني لوزنيان أن يطلب إلى سلطان مصر أن ينجده على أمير قرمان ، كما كتب أيضاً إلى السلطان جقمق يذكره بأنه مولى قبرص ، وأن عليه أن يساعد ملكها التابع له بالجند والأسلحة الكافية لإعادة الثغر المفقود ، إذا لم تجد الوسائل السلمية . وكان لاستيك يأمل ألا تذهب تلك الوساطة سدى ، ليبرهن للملك حنا الثاني أن سعي الاسبتارية ليس من ورائه إلا الخير المجرد عن المصلحة ؛ ولكن السلطان جقمق لم يقم بشيء البتة في تحقيق ذلك الأمل ، وفقدت قبرص ثغر جوريجوس الى الأبد .

ولما ثار النزاع على عرش قبرص بين الملكة الشرعية شارلوت ابنة حنا الثاني وأخيها الدعي جيمس ، واحتكم الاثنان الى السلطان إينال ، وأنفذوا البعث من أجل ذلك إلى القاهرة سنة ١٤٥٩ م ، بعث رئيس رئيس الاسبتارية الجديد - وهو دي ميللي - رسولا الى السلطان يرجوه حسم النزاع بين الطرفين في سرعة . وهنا أيضاً لم يكن السبب الدافع لوساطة الاسبتارية حب الخير الخالص للغير ، كما يتبادر للذهن ، بدليل ان التعليمات الصادرة للرسول الاسبتاري انه اذا حكم للسلطان بتولية جيمس الذي لم يرغب دي ميللي في رؤيته على عرش قبرص ، فملا على الرسول إلا أنه يطلب إلى السلطان حماية الأملاك الاسبتارية بجزيره قبرص . ، على ان يقوم في مقابل ذلك ببذل كل نفوذه لعقد الصلح بين السلطنة المملوكية ومملكة ارجونة التي شل متحرماتها حركة

التجارة المصرية الخارجية لعدة سنين. وقد صادف وصول الرسول الاسبتاري ورسول الملكة شارلوت الى القاهرة في وقت واحد ، ولكن جيمس الذي سبقهما الى القاهرة ، استطاع في كثير من المهاراة أن يغلب هذين الرسولين ، إذ أقنع السلطان إينال بوجوب تسليمها اليه .

وفي أثناء حرب الوراثة التي تلت ذلك في قبرص ، ظل الاسبتارية على الحياد ما بقيت أملاكهم ومصالحهم المركزة ببلدة كولوس بنجوة من عبث المتحاربين . على أن قلوبهم لم تفر عن الميل إلى جانب شارلوت وزوجها لويس سافوي ، حتى إذا تمّ للملك جيمس اخضاع معظم قبرص ، واستولى على العرش متخذاً لنفسه لقب جيمس الثاني سنة ١٤٦٠ م ، أعدّ الاسبتارية في أكتوبر من تلك السنة إحدى سفنهم لتكون تحت أمر الملك لويس إذا رغب في مغادرة البلاد . أما شارلوت فإنها أصرت على المقاومة مدة ، وجعلت من ثغر قورينة حصنها الأخير ، غير أنها ما لبثت أن أحست بأنها لم تعد آمنة على نفسها ، فغادرت قبرص في يناير سنة ١٤٦١ م ، وذهبت تطلب المعونة من رودس . وقد لبى نداءها القائد دويوسون الذي صار فيما بعد رئيساً للاسبتارية ، واستطاعت قورينة بفضلها ان تحارب من أجل شارلوت ثلاثة أعوام آخر برغم ما اجتمع على حصارها في البر والبحر من قوات الملك جيمس والسفن المملوكية التي أرسلت وقتذاك لمساعدته . وقد حاولت بعض السفن الرودية في أثناء ذلك أن تقتحم الميناء على حين غفلة ، ولكن السفن المملوكية كمنت لها وهزمتها وأفسدت عليها خططها ، وعاقبت الاسبتارية على تدخلهم العلني في شؤون قبرص بالإغارة على أملاكهم ببلدة كولوس . ثم انتقم الاسبتارية لأنفسهم من السلطنة المملوكية في صيف سنة ١٤٦٤ م ، حين استولوا قرب شواطئ رودس على ثلاث سفن أجرتها جمهورية البندقية لحمل البضائع لبعض التجار المراكشيين من الاسكندرية الى المغرب . وخشي البنادقة أن يقتص السلطان يلباي من البندقية نفسها ، لأن المراكشيين كانوا قد اشترطوا ألا تذهب السفن الى رودس ، ولأن ما استولى عليه الاسبتارية من البضائع

كان شيئاً كثيراً من الاقمشة الكتانية الرفيعة ، مما بلغت قيمته أربعة وعشرين ألف قطعة ذهبية ، وهذا عدا البهار والسلع الاخرى والاسرى . وقد حدث ما كان متوقعا حين أمر السلطان يلباي بالقبض على جميع من بالإسكندرية من البنادقة وإيداعهم السجون ، فأسرعت حكومة البندقية وكلفت الرانس (القبطان) لوريدان بالتوجه الى رودس بأسطول بلغ عدد سفنه ستة وثلاثين غليوناً ، فوصلها وطلب الى رئيس الاسبتارية رد البضائع المسلوقة وإطلاق الاسرى ، فضلا عن تعويض كاف لترضية السلطان . غير ان الاسبتارية تلكأوا عن إجابة تلك المطالب ، فلم يسع لوريدان إلا أن أمر رجاله بالنزول إلى الجزيرة فنزلوها وأفسدوا فيها يومين ، حتى انهم أتلّفوا قصر الرئيس دي ميللي في فيلا نوبا ، وعند ذلك قام الاسبتارية بتقديم التعويضات المطلوبة .

أما الحدث التالي في تاريخ الاسبتارية فهو حصار العثمانيين لمدينة رودس سنة ١٤٨٠ م ، وقد كان معروفاً قبل ذلك بثلاثة أعوام على الأقل ان حركة العثمانيين صوب الجزيرة أصبحت قاب قوسين أو أدنى من ذلك بكثير ، والدليل على ذلك أن دوبوسون - وهو الذي انتخب بعد دي ميللي لرئاسة الاسبتارية ولم يكد يتولى منصبه حتى أخذ في ترميم أسوار مدينة رودس وتقويتها ، كما اختزن المؤن واستدعى الجند من مختلف الاديرة الاسبتارية في أوربا . وربما كان سبب تأخير المحاولة العثمانية الى سنة ١٤٨٠ م ان خلافاً نشب قبيل تلك السنة بين السلطنتين المملوكية والعثمانية ، وان معاهدة عقدت بين السلطان المملوكي والاسبتارية ، كما يقول فرتو . وكيفما كانت الأمر فقد بدأ العثمانيون حصار رودس في مايو من تلك السنة ، وتلبّع الناس في مصر أخبار ذلك الحصار في اهتمام ، وتمنوا زوال الاسبتارية . لكن العثمانيين ردوا عن الجزيرة بخسارة فادحة ، وذلك بفضل استماتة الاسبتارية في الدفاع ، ووصول نجدة من فرديناند ملك صقلية اليهم في الوقت المناسب .

أما المعاهدة التي عقدت بين السلطنة المملوكية وجزيرة رودس فقد روعيت مراعاة صادقة من الجانبين ، ودامت العلاقات الطيبة بين الاسبتارية وسلاطين

المماليك عدة سنين . ويبدو ان تلك العلاقات ظلت على حالها حتى سنة ١٥١٧ م ، إذ بينما كان المماليك في أشد أدوار المقاومة ضد الزحف العثماني نحو مصر بعد استيلائهم على الشام ، أشيع في القاهرة ان سفناً رودسية وصلت فعلا الى دمياط تحمل ألفاً من جنود الاسبتارية ، فضلاً عن عدة من السفن المحملة بالبارود ، وأن رئيس الاسبتارية وقتذاك - وهو ديل كاريتو - ارسل تلك السفن كلها لمساعدة السلطان طومانباي على العثمانيين . ومع انه قد ظهر كذب تلك الإشاعة ، فإنها تخبر على الاقل بأن الاسبتارية كانت في نظر المعاصرين مستعدة لمساعدة جميع أعداء العثمانيين ، ولو كان اوائك الاعداء من المسلمين . على ان بقاء الاسبتارية بجزيرة رودس لم يطل بعد زوال دولة المماليك ، لأن الفتح العثماني لمصر والشام جعل اجلاءهم عن جزيرتهم الواقعة في طريق المواصلات بين القسطنطينية والاسكندرية أمر لا بد منه . وفي أوائل فبراير سنة ١٥٢٢ م وصلت الاخبار الى الاسبتارية ان أسطولاً كبيراً أعد بالقسطنطينية لحصار رودس ، وتبع ذلك حصار طويل صارم انتهى في مساء ٢٩ ديسمبر من تلك السنة بتوقيع الاسبتارية شروط التسليم بجزيرتهم ، وإخراجها والجزر التابعة لها في ظرف اثني عشر يوماً ، مقابل الامان على أموالهم وأرواحهم . ثم انتقل مركز الاسبتارية الى مالطة ، حيث بقوا بها الى أيام نابليون .

مصر وطريق الهند في القرنين السادس عشر والسابع عشر

الماليك واستغلال طريق الهند :

امتاز عصر الماليك في مصر بالبذخ والترف البالغين حدما الأقصى ، ومع هذا فقد كان المصدر الأول لايراد الدولة في ذلك العصر هو الضرائب الفادحة التي كانت تفرض على تجارة الهند المارة بأحد الطريقين المسلوكين في ذلك الوقت وهما :

طريق الخليج الفارسي وطريق البحر الاحمر - وسواء عن طريق الخليج الفارسي 'نقلت التجارة أم عن طريق البحر الأحمر (وهو الأغلب لانه أصلح) ، فانها كانت تمر لا محالة في أراضي الماليك ، إذ هم المالكون في ذلك الوقت لمصر والشام جميعاً .

وقد كان لمرور التجارة الهندية عبر هذين الطريقين أكبر أثر في ترويح تجارة البحر المتوسط ، وعظمت بسببه ثروة الجمهوريات الإيطالية ، ولا سيما جمهوريتي جنوة والبندقية .

تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح في القرن ١٦ :

وقد اشتط الممالك والبنادقة في جمع المكوس والضرائب إلى درجة أثارت غضب الممالك الأوربية وحسدها ، فدفعهم ذلك إلى البحث عن طريق آخر توصل إلى الهند حتى يتيسر لهم الاستيلاء على نصيب من هذه الأموال التي تتدفق إلى جيوب المصريين والبنادقة ، وساعد على نجاح هذا الاتجاه نشاط حركة الاستكشاف في القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان البرتغال أول الرواد للبحث عن هذا الطريق ، وقد وصل أولهم « هنري الملاح » إلى مصب السنغال والرأس الأخضر في سني ١٤٤٦ وسنة ١٤٤٧ م ، ثم واصل هذه الجهود من بعده بارتليميو دياز الذي وصل إلى طرف افريقيا الجنوبي سنة ١٤٨٦ ، وفاسكو دي جاما الذي وصل إلى موزمبيق وكلوة ومبسة وانتهى به المطاف إلى قاليقوط في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي .

وقد وقع خبر كشف الطريق الجديد وقوع الصواعق على مصر والأمم التجارية في البحر المتوسط ولا سيما البنادقة ، وحاولوا القضاء على البرتغال وعلى هذا الطريق الجديد ، فاتحد السلطان الغوري سرأ مع البنادقة ومع ملك قاليقوط على أن يعملوا معاً لنزع سيادة البرتغال من الشرق ، وأنشأ الغوري أسطولاً عظيماً ، وقدم البنادقة إليه كل عون ، وأمدّوه بالأخشاب التي يريدونها لبناء الاسطول ، وتقابل الاسطول مع سفن البرتغال في البحار الهندية بالقرب من شواطئ (بمباي) ، وانتصر المصريون في الموقعة الاولى ، ولكن لم يلبث البرتغاليون أن جمعوا اسطولاً آخرأ وانتصروا على المصريين أمام (بمباي) سنة ١٥٠٩ م . « ٩١٥ هـ » ، فكانت هذه الموقعة هي الفاصلة في أمر التجارة الهندية ، وظل هذا الطريق الجديد - طريق رأس الرجاء الصالح - هو الطريق المطروق من التجار الاوربيين طوال القرن السادس عشر .

انجلترا تبدأ علاقاتها التجارية مع الشرق :

كانت نتيجة حرب المائة سنة مع فرنسا أن فقدت انجلترا ممتلكاتها في القارة حيث الغنى والقوة ، وكذلك أدت حروب الوردتين إلى قيام حكومة

مركزية ، ولهذا ابتداءً البحر يلعب دوره ويقود الانجليز إلى منابع وميادين جديدة للثروة والنشاط ، وخلال هذا القرن (١٦) كانت طائفة من سفنهم تغادر الساحل الغربي فتتفقد إلى البحر المتوسط ، حيث تثير قليلاً من اهتمام السفن الاسبانية والفرنسية والبندقية التي كانت تمخر عباب البحر منذ أمد طويل ، فطريق مرور التجارة من الشرق وإليه عبر البحر المتوسط كان معروفاً منذ القدم ، ولكن الانجليز لم يحاولوا استعماله إلا قبيل نهاية القرن السادس عشر ، وذلك لسببين :

- ١ - أحدهما يتعلق بالعوامل الطبيعية للجزر البريطانية .
 - ٢ - والثاني يتصل بالعداء القديم بين الأسطولين البريطاني والاسباني .
- وفي هذا الوقت نفسه - أي في القرن السادس عشر - كانت دول أوروبا تخطب ود السلطان العثماني بواسطة سفراءها الذين أتوا يمثلون الشعوب الأوروبية المختلفة ، وذلك لأن تركيا كانت حينذاك في أوج مجدها ، كما كانت - وهو الأهم في نظر دول أوروبا - تسيطر على طرق التجارة البرية المؤدية إلى الشرق والمطروقة في ذلك الوقت ، وابتداءً التنافس بين هذه الدول بمحاولة الفرنسيين - تؤيدهم حكومتهم ويشد أزهرم البنادقة - الانتقاص من قيمة شركة الشرق الانجليزية ، وتحديد امتيازاتها التجارية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولكن باعتراف السلطان بوليم هاربورن سفيراً لانجلترا سنة ١٥٨٣ بدأ عهد جديد هام في تاريخ العلاقات الانجليزية بالشرق .

وفي ذلك الحين كان الانجليز قد استوثقوا من قدرتهم على نزول حلبة المنافسة التجارية مع جيرانهم الاوربيين ، وبذلك ابتدأوا يفكرون في تتبع التجارة الشرقية حتى مصادرها الأصلية ، وقادهم هذا التفكير إلى بذل مساع كثيرة يتلو بعضها البعض الآخر لاكتشاف طرق برية تصل بين الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والسواحل الآسيوية الشرقية ، وقد حبطت هذه المحاولات جميعاً ، ويرجع حبوطها إما إلى العقبات الطبيعية التي تتخلل هذه الطرق ، وإما إلى صعوبة النقل وتأخر وسائله في ذلك الزمن .

أما المخاطر والمحاولات الأخرى للوصول إلى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح فقد أدت إلى انحلال القوى الإسبانية ، كما فتحت الطريق إلى نبع غزير للثروة جذب الانجليز نحوه ، حتى اضطروا في أواخر هذا القرن إلى الانصراف عن طريق البحر المتوسط الذي كان يدر عليهم الربح الوفير إلى هذا الطريق الجديد وهو أوفر ربحاً ، واستمر هذا الطريق مفضلاً عند التجار الانجليز حتى عهد الثورة الصناعية التي أعادت توجيه طرق الاتصال والتجارة مع الشرق نحو البحر المتوسط ، وذلك في القرن التاسع عشر .

وبرغم هذا فقد بقي القليل من التجار الانجليز يعبرون البحر المتوسط للوصول بتجارتهن نحو الشرق ، يشجعهم على ذلك انهم استمروا نحو قرنين يتمتعون بالامتيازات التي حصلوا عليها سنة ١٦٠٤ ، وهي تشابه في كثير من الوجوه الامتيازات التي منحت للفرنسيين سنة ١٥٣٥ ، والتي تبيح لهم التجارة في جميع الثغور العثمانية .

انجلترا تحاول العودة الى طريق مصر والبحر الأحمر في القرن ١٧ :

وحوالي نهاية القرن السابع عشر عبرت بعض السفن الانجليزية بحر العرب ودخلت إلى البحر الأحمر واشترت صفقة جد رابحة من البن اليمني من مدينة « مخا » .

كانت هذه المحاولة للوصول إلى أوروبا عن طريق مصر والبحر الأحمر عاملاً قوياً دفع القوم إلى التفكير الجدي في عقد صلات جديدة بين إنجلترا وسواحل آسيا الجنوبية بإنشاء طريق جديد يجوس خلال مصر .

وفي سنة ١٦٩٨ مر هنري تستو « Tistew » (وكان قبل ذلك قنصلاً لإنجلترا في طرابلس) بمصر والبحر الأحمر ، وقد عزم العمل على ترقية طريق التجارة المار بمصر والبحر الأحمر ، ولكن آماله حبطت لأن الدولة العثمانية أصدرت أمراً بمنع السفن المسيحية من الملاحة في البحر الأحمر شمال ثغر جدة ،

لقرب هذا الثغر من المدينتين المقدستين: مكة والمدينة ، ومع هذا فقد استمرت التجارة نشطة مزدهرة بين « جدة » ونخا وبمباي تقوم بها السفن الانجليزية والعربية على السواء .

أما في القرن الثامن عشر فقد تطور اهتمام الدول الاوربية بمصر كطريق التجارة نحو الشرق ، فأصبح نضالا خفياً بين انجلترا وفرنسا للسيطرة على مصر .

مصر وطريق الهند في القرن الثامن عشر

تحدثنا في الفصل السابق « مصر وطريق الهند في القرنين ١٦ ، ١٧ » عن قيمة طريق مصر والبحر الأحمر من الناحية التجارية في عهد المماليك ، وكيف كان لممر التجارة عبر هذا الطريق بين الشرق والغرب أكبر الأثر في نمو الثروة المصرية مما ساعد حكومة المماليك على أن تحيا حياتها المشهورة بالبذخ والترف ، ومما ساعدها أيضاً على أن تقف بمجهوداتها الحربية دائماً على صد كل عدوان خارجي مدمر عن مصر وعن العالم الإسلامي أجمع .

ثم عرضنا بعد هذا لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحويل التجارة عن الطريق المصري إليه ، ولأثر هذا التحول في الحياة الاقتصادية بمصر طيلة العهد العثماني .

وفي هذا الفصل بيان تفصيلي عن بدء اهتمام إنجلترا بطريق مصر والبحر الأحمر في القرن الثامن عشر ، ومنه ندرك كيف كان الانجليز عمليين عندما أعرضوا عن الدولة العثمانية ، وحاولوا الاتفاق مع أمراء المماليك مباشرة لتيسر نقل التجارة والرسائل عبر مصر والبحر الأحمر إلى الهند والشرق الأقصى وبالعكس .

اهتمام انجلترا بطريق مصر والبحر الاحمر في القرن ١٨ :

لم يكد ينتصف القرن الثامن عشر حتى تتابعت الحوادث تتابعاً غير منتظر ، وغيوت بذلك من مركز مصر ومن الاتجاهات التي كانت تسيطر على توجيه الطرق التجارية نحو الشرق .

ففي سنة ١٧٦٦ استطاع علي بك الكبير القبض على نواصي الأمور فقتل بعض منافسيه ، ونفى البعض الآخر ، وشيع الباشا إلى القسطنطينية ، ومنع الجزية عن السلطان ، وضرب السكة باسمه ، واتخذ لنفسه لقب سلطان مصر ، وبذلك استطاع علي بك بضربة واحدة قوية أن يخلق من مصر دولة مستقلة .

ولكنه لم يتمتع بهذا الاستقلال طويلا فقد قتلته يد أثيمة ، بعد أن ضرب المثل الأعلى لأنداده من المماليك ، ولهذا فان مصر قضت الربع الأخير من هذا القرن كالرجل المضطرب ، قلقة لا تستقر ، نائرة لا تهدأ ، وبدت في فتوات مختلفة وكان زمامها قد أفلت من يد السلطان العثماني ^(١) .

وفي نفس الوقت كانت تركيا تعاني أزمة دولية خطيرة ، فقد كانت في حرب مع روسيا والنمسا مجتمعين ، فمن اليسير إذن أن نستنتج أن هذا الاضطراب الداخلي في مصر ، وهذه الحرب المشتعلة في أوروبا بين تركيا وجارتها لا بد أن يسترعا أنظار الدولتين اللتين تهتمان بشؤون الدولة العثمانية وبشؤون الشرق عامة ، وهما : فرنسا وانجلترا .

أما فرنسا فقد كانت تعتقد تمام الاعتقاد منذ ذلك الوقت أن حين الدولة العثمانية قد حان ، وأنه من الواجب عليها أن تسرع فتقتطع لنفسها نصيباً من التركة ، وليكن نصيبها مصر أغلى درة في التاج العثماني والطريق إلى الهند وإلى الشرق الأقصى .

أما انجلترا فقد اتخذ اهتمامها بمصر شكلا جدياً مختلف ، فقد حاولت قبل

1) Charles Roux, L'Angleterre, l'Isthme de Suez, et l'Egypte p p. 20 - 21 ,

هذا محاولات للوصول الى الهند عن طريق البحر الاحمر لم تسفر عن نجاح ،
وها هي ذي ترى الآن بكوات مصر يكادون يستقلون بالأمر فيها .

إذن فقد زال الخطر التركي الذي كان يمنعها من استعمال هذا الطريق ،
وإذن فلا مانع من أن تتصل إنجلترا ببكوات مصر لتتفق معهم اتفاقاً يمكنها
من الحصول على بنيتها .

من هذا نتبين أنه كانت هناك وسيلتان لإنشاء نوع من الصلة بين أوروبا
والهند عن طريق مصر :

إحداهما بالتقرب الى الباب العالي صاحب السلطة الشرعية والنفوذ الأسمى
على مصر ، والأخرى بالتقرب الى السلطة المحلية ، سلطة البكوات ، الذين
يديرون شؤون هذا القطر .

أما فرنسا فكانت سياستها التقليدية تقضي عليها منذ أيام فرنسوا وسليمان
بالاتصال بالباب العالي مباشرة .

أما إنجلترا فقد فضلت الوسيلة الثانية وبدأت تسعى لدى المماليك وأصبح
لمصر بالتالي اعتبار هام في توجيه السياسة الانجليزية الخارجية منذ ذلك الحين.

جيمس بروس يعقد اتفاقية تجارية مع مماليك مصر سنة ١٧٧٥ م :

ولكن سرعان ما تغيرت الأحوال السياسية في مصر والحجاز ، فقد ثار
العرب بالحميات المصرية في مكة وجدة وطردوها من هاتين المدينتين كما ثار
بعلي بك في مصر أحد قواده حتى أُلجأ إلى الفرار الى سوريا ، وبذلك أصبح
اعتلاء أبي الذهب العرش يهدد التجارة التي كانت تصل إلى مصر عن طريق
البحر الأحمر .

وفي هذا الحين - يناير سنة ١٧٧٣ - وصل إلى القاهرة جيمس بروس
« James Bruce » بعد أن درس الصعاب والآخطار التي صادفته في طريق

عودته من جدة ، واستطاع بلباقة أن ينال عطف الحاكم الجديد ، وأن يسوّي معه نظاماً دقيقاً يمكن التجارة الانجليزية من الاستمرار في طريقها ، كما استطاع بلباقة أيضاً أن يتفق مع الأمير المملوكي على تخفيض النسبة المئوية التي كانت تدفع كرسوم جمركية على التجارة الانجليزية من ١٤ ٪ الى ٨ ٪ .

ولم يكذب بروس ينتهي إلى هذا الاتفاق حتى أرسل نبأه إلى القائدين : « ثورنهل » ، « وبريس » « Thornhill and Price » ، وأرفق بخطابه صورة من الفرمان إلى حكام بنغال ومباي ، وحسب بروس أنه قد نجح في مهمته ، فترك مقاليد الأمور في يد القنصل البندقي ، واتخذ طريقه إلى وطنه كي يعلن لحكومته نبأ هذا النجاح الباهر .

ولكن بروس لم يلقَ في وطنه النجاح الذي لقيه في مصر ، بل لقد أظهرت الحكومة الانجليزية القائمة حينذاك عداها لهذا المشروع ، وذلك لأنها رأت في تحويل التجارة الانجليزية الى طريق السويس ضربة قاضية على الاحتكار الذي تتمتع به شركة الهند الشرقية ، كما رأت أيضاً أن التجارة بمرورها عن هذا الطريق ستكون مهددة بالأخطار لعداء الحكومة العثمانية للفكرة في حد ذاتها .

أما التجار الانجليز في الهند فسرعان ما رحبوا بهذه المعاهدة الجديدة ، وسرعان ما وصلت سفنهم الى مدينة السويس لتفريغ ما تحمل من بضائع الشرق ، وأرسلت هذه البضائع إلى القاهرة ، ومنها الى الاسكندرية ، ومن الاسكندرية حملتها الى أوروبا بعض السفن التي كانت تفد إلى هذا الثغر بين الحين والحين ، ووصلت الى انجلترا متبعة الطريق الذي كان يصل بين تريستا (Trieste) وثلغور انجلترا^(١) .

وأخذت السفن الانجليزية خلال الثلاث أو الأربع سنوات التالية لمعاهدة سنة ١٧٧٥ تفد إلى السويس من الهند ، وإلى الاسكندرية من انجلترا في

1) Charles Roux, O p. cit : p. 52 .

نفس الوقت ، وأدرك التجار الفوائد الجمة التي تعود عليهم من اتباع هذا الطريق ، ولكنهم أدركوا كذلك أن هناك بعض الصعوبات التي يجب عليهم العمل على تذليلها .

هذه الصعوبات كانت تتلخص فيما يلي :

- ١ - الرياح الموسمية الهابة على المحيط الهندي .
- ٢ - ثغور البحر الاحمر الصخرية .
- ٣ - الطريق الصحراوي بين السويس والقاهرة .

ولكن هذه الصعوبات مجتمعة لم 'تثن' عزم التجار الوافدين من الهند ، كذلك لم يثن عزمهم احتجاج الباب العالي على اتفاق ١٧٧٥ ، واستمرت العلاقات على أحسن ما تكون بينهم وبين بكوات القاهرة .

التاجر بلدوين يحاول اتمام مجهود بروس :

ظهر في ذلك الحين في أفق هذه العلاقات تاجر انجليزي آخر أخذ على عاتقه المهمة التي بدأها « Bruce » ، كان هذا الرجل واسمه « G. Baldwin » تاجراً من النوع المخاطر كثير التجارب ، وقد اشتغل بالتجارة مع الشرق سنة ١٧٦٠ ، واستطاع بشاغب فكره أن يدرك المزايا الجلية التي يمكن استغلالها إذا نظمت طرق التجارة المارة بمصر .

رأى بلدوين أن مصر خالية من أي فرد يمثل التجار الانجليز تمثيلاً رسمياً أو غير رسمي ، فسمى لدى الحكومة الانجليزية لسد هذا النقص ، واستطاع أن يحصل أولاً على موافقة شركة الهند الشرقية والاعتراف به كممثل لها في مصر ، وذلك لأن شركة الهند كانت لا تزال تتمتع باحتكار التجارة في الشرق الأدنى تحت رعاية الحكومة الانجليزية .

اعترفت شركة الهند ببلدوين كوكيل لها في مصر على ان تدفع له اجراً معلوماً ومبلغاً خاصاً من كل ملف من ملفات المراسلات يمر خلال مصر

سالمًا ، وبذل بلدوين كل ما في جعبته من جهد في السنتين التاليتين لاختصار المدة اللازمة لتبادل المراسلات بين لندن والهند ، وقد نجح في هذه المحاولة نجاحاً باهراً ، بحيث أصبحت السفن الواردة إلى السويس سنة ١٧٧٧ لا تكاد تفرغ حمولتها وتأخذ الأهبة للعودة إلى الهند حتى تكون الرسائل الخاصة بلندن قد وصلت وأرسلت الرد عليها ، فتحمله هذه السفن معها وهي عائدة ، وبحيث أصبحت السلطات العليا في إنجلترا والهند تعتمد على هذا الطريق اعتماداً كلياً في كل مراسلاتها الهامة ، وبحيث أصبحت الرسائل التي 'تغنوت' بأنها « وصلت بالطريق البري » تشير اهتمام ذوي الشأن وعنايتهم .

العقبات تعترض بلدوين :

ورغم هذا النجاح كانت لا تزال هناك في سبيل استعمال هذا الطريق عقبات كأدوات يبينها بلدوين في قوله :

« بدأ الترك - الذين لزموا الصمت حتى هذا الوقت - الشكوى ، ورغب رئيس الجمارك في اقتسام الأتاوة التي تدفع ، كما اشتكى شريف مكة من أن ثغر جدة قد يهجر ، واشتكى مديرو شركة الهند الشرقية لأن تجارتهم ستتحمل خسائر فادحة ، كما أنست الشركة التركية واستغاثت لأنها ستتحطم^(١) » .

فرح مديرو شركة الهند الشرقية أول أمرهم ، لأنهم حسبوا أن هذا الطريق سيكون وسيلة جديدة للاتصال بين الهند وإنجلترا ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن هذا الطريق باهظ السفقات إن لم تنله يد الإصلاح ، كذلك أدركوا أن شركة الليفانت قد تتقدم لحمل البضائع الشرقية التي تفد على مصر من كل حذب وصوب ، فتحملها إلى أنحاء العالم الأوربي ، وتكون بذلك منافساً خطيراً ، وفي نفس الوقت أرسل القنصل الانجليزي في القسطنطينية واسمه (هايس Hayes) إلى حكومته ينبئها بأن الحكومة العثمانية قد اعتزمت

(1) Hoskins , The British Routes to India , p. p. 11 , 12

عزماً أكيداً ان تقضي على التجارة المارة عن طريق البحر الاحمر ، ووافق هذا النبأ الرغبة الانجليزية ، فأرسلت الحكومة في الحال إلى تجارها في الهند تأمرهم بالإقلاع عن استعمال هذا الطريق ، كذلك أرسل الباب العالي للباشا في القاهرة يأمره بمطاردة هذه السفن ، وألا يسمح لإحداها بتفريغ بضاعتها في مصر .

كان بلدين قد بذل كل ما في وسعه لإنجاح هذا المشروع ، ولكن المعارضة واثته من كل حذب وصرح : من حكومته في لندن ، ومن الدولة العثمانية ، ومن شركة الهند الشرقية ، وقد حاول بلدين التغلب على هذه الصعاب ، ولكن اضطراب الحالة الداخلية في مصر بوث أبي الذهب سنة ١٧٧٦ زاد في حرج مركزه .

وصل إلى البلاط العثماني في ذلك الوقت القنصل الجديد « انسلي Ainslie » وكان البكوات المماليك قد رفعوا الرسوم التي تحصل على البضائع التي تفرغ على أرض مصر إلى ٢٠ ٪ ، فذعر التجار وذعر بلدين ، وطلب التجار إلى حكومة السلطان أن تنصفهم من هذا الاجحاف ، كما طلبوا الرجوع إلى معاهدة ١٧٧٥ ، ولكن انسلي - للعداء الشخصي بينه وبين بلدين - لم يؤيد هذا الطلب لدى حكومة الباب العالي ، بل أرسل تقريره إلى الحكومة الانجليزية يبلغها رغبة الحكومة العثمانية الشدية أن تمنع السفن من المرور في مياه البحر الاحمر والاتصال بموانئه - ما عدا ثغري جدة ونجا - لأنها تعتبر أن البحر الاحمر - كطريق إلى مكة والمدينة - يجب أن يستمر حرماً آمناً لا حق لأية سفينة مسيحية بالمرور فيه .

ونتيجة لهذا الخطاب أرسلت الحكومة الانجليزية أوامرها المشددة إلى حاكم البنغال وإلى بلدين تلزمها بتنفيذ هذه الرغبة .

المنافسة تبدأ بين إنجلترا وفرنسا للسيطرة على طريق مصر - البحر الأحمر:

في هذه الآونة كانت المنافسة بين إنجلترا وفرنسا على أشدها ، وقد وجهت هذه الحوادث نظر الفرنسيين نحو مصر ، ففي سنة ١٧٧٧ أرسل انسلي إلى حكومته تقريراً يخبرها فيه بأن البارون دي توت « Baron de Tott » المفتش العام للشعور التجارية الفرنسية في الشرق قد زار القاهرة ساعياً لامضاء معاهدة تجارية مع المماليك^(١) ، وذكر انسلي في تقريره أيضاً أن بعثة دي توت كانت تعنى بأمور أكثر جدية من هذه المعاهدة ، وأنها كانت تعنى بدراسة الوسائل الممكنة اتباعها لغزو مصر ، والوسائل الممكنة لفتح طريق تجاري فرنسي بين مصر والهند ، وإعادة حفر الخليج الذي يبين النيل والبحر الأحمر. - كان لهذا الحادث الفضل كل الفضل في تقريب شقة الخلاف بين بلدوين « Baldwin » من ناحية وانسلي « Ainslie » والحكومة الإنجليزية وشركة الهند الشرقية من ناحية أخرى ، وسافر بلدوين في سنة ١٨٨٧ إلى القسطنطينية ليعمى هو وانسلي لدى الباب العالي كي يسمح للسفن الإنجليزية التي تحمل المراسلات بالوصول إلى السويس ، ولكن الحكومة العثمانية رفضت هذا الطلب ، وحذرتهما من السماح لأية سفينة بالتقدم شمال نهر جدة ، وعاد بلدوين إلى القاهرة مظهراً الطاعة ، ولكنه فيما بينه وبين نفسه لم يقلع عن الفكرة ، لأنه كان لا يزال يعتقد بأفضلية طريق السويس^(٢) .

وأخيراً اقترح انسلي على وزارة الخارجية أن تستعمل طريقاً آخر لا يصل مراسلاتها إلى الهند ، هذا الطريق يبتدىء من حلب ويخترق العراق إلى البصرة ومنها إلى بمباي ... (وقد استعمل هذا الطريق بعد ذلك بقليل مدة احتلال الفرنسيين لمصر ١٧٩٨ - ١٨٠١) ، ولكن هذا الطريق لم يكن بالطريق

1) Ch. Roux, Op. Cit. p. p. 94 - 95 .

2) Hoskins , op . cit . p. 20

الآمن ، ذلك لأن العربان كانوا يغيرون على المسافرين فيسلبونهم ما معهم وقد يقتلونهم ، ولم تكد تبدأ سنة ١٧٧٩ حتى بدا للجميع أن طريق السويس على وشك أن يهجر فقد كان الباب العالي عاقداً النية الجازمة على القضاء على تجارة الفرنج في البحر الأحمر ، وهذا الحادث التالي يدل دلالة واضحة على قوة عزم الباب العالي : ففي الرابع والعشرين من شهر مايو ١٧٧٩ وصلت إلى السويس سفينتان تحملان العلم الدانمركي ، ولكن يقودهما رجل انجليزي اسمه جورج مور « J . Moore » ، وكان مور يحمل معه خطاب توصية من حاكم بنغال إلى الأمير المملوكي في القاهرة ، وكان معه في السفينة رجل ألماني يدعى فان در فلدن « Van Der Velden » . يحمل أيضاً خطاب توصية من نفس الحاكم إلى « Baldwin » .

أما بلدين فلم يجرؤ على مساعدة القوم ، وعندما وصلتة أوامر الأمير المملوكي بالاعتناء بتجارتهم تقدم وساعدهم حتى أفرغوا بضاعتهم ، وسار « مور » إلى القاهرة تاركاً صحبه في مهمتهم وبعد قليل اتخذ الباكون (وهم هذا الألماني وأربعة من الانجليز وفرنسيان) طريقهم في قافلة تحمل تجارتهم نحو القاهرة ، وقد بدأوا رحلتهم آمنين غير مسلحين أو مستعدين لمقابلة ما عساه يعترضهم من أخطار ، وذلك لأن الأمير المملوكي لم يؤمنهم على أنفسهم وتجارتهم فحسب ، بل زوئدهم بالجمال التي تحمل تجارتهم نحو القاهرة ، ولكنهم فوجئوا بعد أن اجتازوا مرحلة قصيرة من رحلتهم بجماعة من البدو وانقضوا عليهم فسلبوهم بضاعتهم التي كانت تقدر بمبلغ ٣٧٥٠٠ جنيه ، بل وسلبوهم ملابسهم التي تغطي أجسادهم وتركوهم عراة حيارى في الصحراء ، وقد عاد أودونيل « O'Donnell » - وهو أحد الأربعة الانجليز - إلى السويس ، أما الباكون فقد اعتقدوا انهم يستطيعون الوصول إلى القاهرة وساروا في طريقهم ولكنهم سرعان ما ضلوا الطريق ففقدوا نحبهم من الجوع والعطش والتعب إلا واحداً من الفرنسيين أنقذه. أحد الفلاحين وهو في آخر رمق من حياته . وصل أودونيل « O'Donnell » إلى القاهرة. عن طريق السويس ، وهناك

استطاع بمساعدة بلدوين الحصول على مبلغ من المال كهيئة للمساعدة ، وفي نفس الوقت غيّر الأمير المملوكي خطته ، وأرسل فرقة من جنوده تبلغ المائتي جندي استولت على ما في السفينتين من تجارة ، وألقى القبض على « مور » و « بلدوين » و « اودونيل » وأودعهم جميعاً السجن ، وأرسل البك تقريراً بالحادثة إلى الباب العالي ، كما أرسل بلدوين واودونيل تقريرهما كذلك إلى السير روبرت انسلي « Robert Ainslie » ، ووافق الباب العالي على الاجراءات التي اتخذها أمير القاهرة ، لأنها تنفيذ لسياسته ورغبته ، كذلك لم يجد انسلي اهتماماً ظاهراً لنفس السبب ، وإن كان قد سمى سعيًا جدياً لدى السبب العالي ليأمر بإطلاق سراح الأسرى ، وهذا ما فعله أمير القاهرة قبل أن يصله أمر السلطان ، لأنه أحس الأثر السيء الذي تركه الحادث في دول غرب أوروبا جميعاً .

أطلق الأمير سراح أسراه كلهم ما عدا بلدوين ، ولكن هذا سرعان ما استطاع الفرار من سجنه وهرب من مصر تاركاً وراءه جميع ممتلكاته على سفينة فرنسية حملته الى أزمير ، ومن هناك ارتحل بلدوين إلى القسطنطينية ، حيث بقي شهوراً طويلة يوزع اللوم في حنق وألم على كل من ظنه سبباً في هذه المأساة الأخيرة ، وخاصة على التاجر البندقي ذى النفوذ الكبير كارلو روسيتي « Carlo Rosetti » ، وعلى رئيس الجمرك أنطوان قسيس ، وفي سنة ١٧٨٠ ذهب بلدوين إلى إنجلترا محاولاً رفع شكواه إلى حكومته ، متهماً انسلي بمعاكسته وخيانة وطنه وممالأة الأتراك في سياستهم ، ومحاولاً في الوقت نفسه إقناع حكومته بالسعي لتشجيع طريق السويس وفتحه للتجارة والملاحة ، وقد أثبت التحقيق براءة انسلي ، لكن أخبار هذه وصلت متأخرة إلى الهند وإنجلترا ، ولذلك فقد قصدت في صيف سنة ١٧٨٠ سفينتان إنجليزيتان إلى مدينة القصير ، فأنزلت إلى البر خمسة من رجالهما الإنجليز ، وفي القاهرة أسر أربعة منهم وسمح للخامس بالسفر إلى القسطنطينية ومعه الرسائل التي كان يحملها إلى إنجلترا ، وهناك فتحت إحدى هذه الرسائل ،

ومنها علم الأتراك أن السلطات الانجليزية في الهند لا زالت دانية السعي لعقد الصلات التجارية مع ممالك مصر تبعاً لنصوص معاهدة ١٧٧٥ .

وتمكن انجلي بصعوبة شديدة من إطلاق سراح مواطنه وإرساله إلى إنجلترا بما معه من رسائل ، أما السفينتان الراسيتان في القصير فقد دهم البدو ملاحيهما ، وقتلوا منهم خمسة ، حتى اضطر الربان إلى إطلاق مدافعه على المدينة .

وأرسلت الحكومة الانجليزية إلى الهند تكرر أوامرها وتشدد في تنفيذها ألا يتقدم أحد بتجارته أو سفنه شمال جدة ، ولكن ما حدث لقافلة سنة ١٧٧٩ وما حدث لرسول سنة ١٧٨٠ كان أسرع انتشاراً وأعمق أثراً من أوامر الحكومة الانجليزية أو الباب العالي أو شركة الهند الشرقية .

وإذ أصبحت الأخطار التي تحدق بالتجارة إلى مصر أكثر من أرباحها ، وإذا أصبح الاتصال بمصر يعتمد على السفن المصرية التي تسير بين جدة والسويس فقد هجر هذا الطريق هجراناً تاماً ، ولذلك لم تكد تنتهي سنة ١٧٨٠ حتى أقلمت السفن الانجليزية عن الذهاب إلى السويس .

ويقرر هذه الحقيقة هوسكينز^(١) « By the end of 1780 »

it was said that English vessels no longer came to Suez . »

أثارت هذه المحاولات اهتمام دول غرب أوروبا لهذا الطريق ، ولذلك فقد حاولت النمسا أن توجد لها - بالاتفاق مع الباب العالي - وكلاء أو قناصل تجاريين في القطر المصري ، بالاسكندرية والقاهرة والمدن الكبيرة ، ولكن هذه المحاولات لم تستمر طويلاً .

فرنسا تتحفز للوثوب على مصر :

وكانت فرنسا تصوب أنظارها في جشع منذ أمد بعيد نحو مصر ، وكانت تحفزها إلى الوثوب ظروفها السياسية وعلاقاتها المعقدة مع إنجلترا ، ولذلك

1) Hoskins, The British Routes to India, p. 25 .

فانها بعد سنة ١٧٧٨ ، وبعد أن عقدت حلفاً مع المستعمرات الامريكية ضد بريطانيا - تضاعفت رغبتها في شل حركة التجارة الانجليزية في الشرق ، وعرضت اقتراحات كثيرة لتنفيذ هذه الرغبة ، كان بعضها يرمي إلى الاتفاق مع إيران للوصول إلى الهند، وكان بعضها يرمي إلى احتلال مصر وبلاد العرب وفتح قناة تصل البحرين الأحمر والأبيض .

وفي سبتمبر سنة ١٧٨٣ عقدت معاهدة سلمية بين فرنسا وانجلترا، وبذلك أسدل الستار مؤقتاً على هذه المشروعات ، وحاولت فرنسا الوصول إلى الاتفاق مع مماليك مصر كما فعل الانجليز سنة ١٧٧٥ ، وبدأت الحكومة الفرنسية فأرسلت إلى ممثلها لدى الباب العالي تسأله إعداد تقرير تقارن فيه بين فوائد الطريقتين المؤدين إلى الهند، وهما : طريق البصرة وطريق السويس.

وفي سنة ١٧٨٤ وصل إلى مصر القائد الفرنسي البحري شفالبيه دي تريجييه « Chevalier de Truguet » وقدّر له أن يكون أحسن حظاً وأكثر نجاحاً من صاحبه جميعاً ، ذلك أنه كان يحمل إلى امراء المماليك في مصر خطاب صداقة من القبطان باشا قائد الأسطول التركي ، ولأنه كان على اتصال وثيق بالتاجر الفرنسي الشهير شارل مجالون « Charles Magallon » ، وإذا عرفنا أن مجالون كان قد قضى في مصر ما يزيد عن العشرين عاماً اكتسب في خلالها نفوذاً لا بأس به أدركنا كيف سهل على تريجييه الوصول إلى الاتفاق مع المماليك .

وأما مضيت المعاهدة في فبراير سنة ١٧٨٥ بين مراد بك وتريجييه ، ونصت على ضمان الحريات بأنواعها المختلفة للتجار الفرنسيين ، كما نصت على تخفيض الضرائب المجبأة على التجارة الفرنسية تخفيضاً كبيراً ، وعقد اتفاقان آخران : أحدهما بين تريجييه ومدير الجمارك في القاهرة خاصاً بالضرائب التي تفرض على البضائع الفرنسية عند تفريغها في السويس والآخر بين تريجييه وأحد المشايخ

المربان خاصاً بالقوافل التي تحمل البضائع إلى القاهرة ، وبهذا وصل الفرنسيون إلى ما لم يصل اليه الانجليز في محاولاتهم الماضية جميعاً .

انجلترا تراقب المحاولات الفرنسية وتحاول القضاء عليها :

أحس رجال الحكومة الانجليزية بالندم يأكل نفوسهم أن أصرروا في الماضي على العدول عن طريق السويس ، وانتهز بلدوين هذه الفرصة ورفع شكواه إلى الحكومة ، فبريء من التهم التي نسبت اليه ، ونشر في ذلك الحين كتيباً صغيراً عن الموضوع أسماه :

« The Communication with India by the Isthmus of Suez vindicated from the Prejudices which have prevailed against it. »

وحلل فيه وجهة نظر كل من الحكومة العثمانية وشركة الهند الشرقية ، وأثبت بطلانها ، وألح على الحكومة الانجليزية أن تعيد السعي لاستعمال هذا الطريق وإلا جاء اليوم الذي يصبح فيه وصول الإنجليز إلى ممتلكاتهم في الهند تحت رحمة الفرنسيين وبأذنهم .

وعهد إلى بلدوين أن يضع مذكرة يصف فيها كيف يمكن للإنجليز إحياء علاقتهم مع مصر من جديد ، وكتب بلدوين المذكرة ، وبين أن الطريق الوحيدة هي تعيين قنصل انجليزي في القاهرة يرسل من قبله مندوبين إلى الاسكندرية والسويس ، واقترح لتغطية مصاريف هذه الوكالات السياسية حلاً من ثلاثة :

١ - إحياء التجارة بين الهند والسويس ووضع ضريبة خاصة على هذه التجارة تغطي هذه المصاريف .

٢ - أو إلغاء الاحتكار الذي تتمتع به شركة الهند الشرقية وتحويل الإعانة الحكومية السنوية التي تمنح لها إلى هذا الغرض .

٣ - أو تتكفل الشركة بدفع هذه النفقات من دخلها الخاص .
ووافقت الحكومة الانجليزية على الفكرة ، وُعين بلدوين نفسه قنصلاً في
مصر وقبلت الشركة أن تدفع له مرتبة السنوي وقدره ٥٠٠ جنيه ، وحددت
مهمته بهذه الأغراض :

١ - أن يعمل لحماية رعايا صاحب الجلالة أثناء تجارتههم ومرورهم بمصر .
٢ - أن يسمى لدى الحكومة المصرية للحصول على ضمانات لحماية رعايا
صاحب الجلالة وتجارتههم في ذهابهم إلى الشرق وإيابهم منه .

٣ - وهو الأهم - أن يراقب حركات الفرنسيين مراقبة دقيقة ، وأن
يرسل لحكومته التقارير الوافية عن هذه الحركات .

وأمرته الحكومة الانجليزية أن يسعى أول ما يسعى إلى عقد معاهدة مع
المماليك لا تقل في امتيازاتها عن المعاهدة التي عقدتها فرنسا ، ومهدت الحكومة
له الطريق في القسطنطينية قبل أن يغادر وطنه إلى مصر ، ولكن هذه
الرغبة اعترضها فرمان الباب العالي القاضي بتحريم مرور التجارة المسيحية
في البحر الأحمر ، فأرسلت الحكومة الانجليزية إلى انسلي تأمره أن يجعل
أساس حديثه مع السلطان الامتيازات التجارية والبحرية السخية التي منحت
للانجليز سنة ١٧٦٥ .

وأقلع بلدوين في اغسطس سنة ١٧٨٦ قاصداً مصر ليتولى منصبه الجديد ،
ولكن حظه السيئ كان يلزمه ، إذ كان في مصر وقت وصوله جيش وافد
من تركيا لاخضاع الأمراء الثائرين ، كما كانت حالة البلاد الداخلية توصف
باشد أنواع الفوضى .

كانت مصر في ذلك الحين مسرحاً لنزاع دائم مستمر بين أمراء المماليك ،
وكان المتغلب من هؤلاء الأمراء يتولى العرش ، ولكنه لا يلبث إلا قليلاً حتى
ينغدر به أمير آخر فيأخذ مكانه بعد أن يقتله ، وكان كل أمير يحس أن أجل
حكمه قصير ، ولذلك كان يتبع كل السبل المشروعة وغير المشروعة للحصول

على المال، وكان الباب العالي أمام الاضطرابات الداخلية وتحت الضغط الروسي الملح الدائم لا يستطيع أن يتخذ أية اجراءات إيجابية لاختضاع هؤلاء المماليك. ولكن الكيل طفق أخيراً فقد طلب مراد بك سنة ١٧٨٦ مبلغاً من المال من قناصل الدول الأوروبية في مصر وإلا عمد إلى تخريب كنيسة الفرنسيسكان في الإسكندرية ، ويقال إن هذه الوسيلة كانت من ابتكار القنصل الروسي في الإسكندرية البارون دي تونوس « Baron de Thonus »

أمام هذا الخطر الداهم لجأت الهيئة الدبلوماسية الأوروبية في الإسكندرية إلى ممثلي دولها في القسطنطينية ، وذهب وفد من وكلاء هذه الدول جميعاً — ما عدا السويد وانجلترا — يقدمون شكواهم إلى الباب العالي ، ووافقت هذه الشكوى هوى في نفس السلطان ، فقرّر العمل على إيقاف أمراء المماليك عندهم ، وسرعان ما اتخذ الأسطول التركي أهبته كي يتقدم نحو مصر ، ولم يشأ السلطان أن يسند قيادة الأسطول إلا لربانه الأكبر حسن قبطان ياشا^(١)

أما انسلي فع أنه لم يشترك في هذه الشكوى فقد سر لهذه الاجراءات ، لأنها ستقضي إذا نجحت على معاهدة سنة ١٧٨٥ الفرنسية المملوكية . ووصل الأسطول إلى الإسكندرية التي سلمت دون مقاومة تذكر ، وسار الجيش التركي إلى رشيد ثم القاهرة فاستولى عليها بعد ان طارد جيش مراد وابراهيم نحو الصعيد .

ويبدو أن الأتراك لو كانوا قد أحرزوا النصر في وقت غير هذا لفرح الانجليز به أيما فرح ، ولكنهم زعموا لهذا النصر وأسفوا له كل الأسف ، ذلك لأن مبعوثهم بلدوين كان قد وصل إلى مصر في ذلك الحين لعقد معاهدة مع المماليك ، فاذا به يراهم مهزومين فارين إلى أقاصي الصعيد ، وإذا به يرى الأتراك يستولون على أزمة الامور في مصر ، فلم يكن أمامه إلا الاعتراف بالأمر الواقع فاستقر في عمله ، وعين له مندوبين في الاسكندرية والسويس .

1) Ch. Roux. Op. cit. P. 195.

وفي مارس سنة ١٧٨٧ قابل القبطان باشا محاولاً تحقيق رغبته بالاتفاق معه^(١) ولكن هذا كان يحمل معه الفرمان القاضي بتحريم الملاحة المسيحية في البحر الأحمر .

كذلك كان انسلي يسمى من ناحية لدى الباب العالي ليحبط مسمى بلدوين، أما الحكومة الانجليزية فكانت قد عازمت عزمها أخيراً على استعمال طريق السويس وخاصة لتيسير تبادل الرسائل بين إنجلترا والهند .

وواتى إنجلترا حظها الحسن فنشبت الحرب في خريف سنة ١٧٨٧ بين تركيا وروسيا واستدعى القبطان باشا من مصر ، ومنذ ذلك الحين تغير اتجاه السياسة التركية ، وابتدأ القبطان باشا يميل إلى الاتفاق مع الانجليز والترخيص لهم بالمرور في البحر الأحمر ، ولكنه فوجئ بمساعدة إنجلترا لروسيا إذ اكتشفت تركيا أن إنجلترا تمد عدوتها بالسفن الحربية .

في أثناء ذلك كله كان بلدوين نائب السمي لتحقيق سياسته ، وكان مجهوده مضاعفاً ، لأنه كان يعمل لتحقيق فكرة يدين هو بها قبل أن تكون مهمة قد كلفته الحكومة بتنفيذها .

وأخيراً استطاع بلدوين في ابريل سنة ١٧٨٨ أن يرسل إلى حكومته نتيجة سعيه وتتلخص فيما يلي :

« لقد نجحت في الحصول — من حكومة القاهرة — على حق السماح للمسافرين والرسائل بالوصول إلى السويس بسفن للشركة وأن تفرغ هذه السفن ما تحمل في أمان ، وأن يمر هؤلاء خلال مصر في سلام ، ولقد أرسلت الأوامر بهذا إلى السويس ، وأنا لا أشك إن هذه الحكومة لو استبدلت بغيرها فإنه ليس من الغسير الوصول إلى الاتفاق نفسه مع الحكومة الجديدة »^(٢)

1) Hoskins. Op. cit. P. 38.

2) Hoskins. Op. cit. P. 42.

ثم عاد فأرسل إلى حكومته كذلك في فبراير سنة ١٧٨٩ يخبرها بوصول سفينتين فرنسيتين الى السويس ، وأنه قد سمح لهما بتفريغ بضائعهما ، وأنه يعد العدة لاستقبال سفينتين تجاريتين انجليزيتين آتيتين من الهند وأن :

« المرور في مصر الآن حر إذا شاءت الشركة أن تستغل. » .

انجلترا تفكر في الغاء قنصليتها بمصر :

كان الاضطراب السياسي في مصر ، الناجم عن التنازع المستمر بين الوالي العثماني الذي يحاول عبثاً استرداد السلطان الفعلي لدولته وبين أمراء المماليك الثائرين بزعامه مراد وإبراهيم والذين كانوا يحاولون هم أيضاً القبض بيد قوية على مقاليد الأمور في مصر ، كان هذا الاضطراب عاملاً من أهم العوامل التي زعزعت الأمن وهددت التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب .

ولذلك أخذ الانجليز حوالي سنة ١٧٩٠ يصدفون عن هذا الطريق ، بل كثيراً ما زادت أرباحهم من التجارة المتبادلة بطريق رأس الرجاء الصالح - رغم بعده وكثرة نفقاته - على أرباحهم التي جنوها من تبادل التجارة بطريق السويس .

ولذلك فقد تقدم اللورد جرنفيل « Lord Grenville » وزير الخارجية الانجليزية في سنة ١٧٩٢ إلى هنري دونداس « Henry Dundas » وزير الحربية باقتراح لالغاء وظيفته القنصلية في مصر لكثرة نفقاتها وقلة نفعها ، ولم يلاق هذا الاقتراح قبولا في هذه السنة ، ولكن اللورد جرنفيل أعاد الكرة في السنة التالية ١٧٩٣ قائلاً إنه إذا كانت القنصلية الانجليزية في مصر ذات نفع لشركة الهند الشرقية فلتتولى هي أمر نفقاتها وإلا فلا داعي لبقائها.

وكان الاقتراح حلاً حاسماً ، لأن شركة الهند الشرقية والإدارة الهندية

لم تقبل واحدة منها أن تزيد على نفقاتها مبلغاً لا يقل عن ألفي جنيه سنوياً ،
ولذلك فقد أرسلت وزارة الخارجية في الثامن من أكتوبر سنة ١٧٩٣ رسالة
إلى مصر تلغي فيها انتداب بلدوين كقنصل لانجلترا .

ولكن لحسن حظ بلدوين قد وصل هذا الأمر في غير حينه ، ذلك أنه
بينما كان جرينفيل يؤكد ان لا فائدة من وجود بلدوين في مصر كان الأخير
يؤكد من ناحيته العملية أهمية مجهوداته التي يبذلها في سبيل الامبراطورية .

وتفصيل ذلك أنه في ذلك الحين - أي في اليوم الأخير من شهر يناير
سنة ١٧٩٣ - كانت الحرب قد أعلنت بين بريطانيا وفرنسا ، وأصبح الاتصال
بين لندن وبين الهيئات الحاكمة في الهند أكثر أهمية للانجليز منه في وقت
مضى منذ عين بلدوين قنصلاً في مصر ، ولم تكد أخبار اعلان الحرب تصل
إلى بلدوين حتى أسرع فأرسلها إلى الهند قبل أن يصل الى علم الحماية
الفرنسية هناك أي خبر عن اضطراب الحالة في أوروبا ، وبذلك استطاع
الانجليز الاستيلاء على بوند تشري « Pondicherry » وطرد الفرنسيين
من الهند .

كان هذا عاملاً هاماً حفز دونداس « Dundas » الى أن يشير على وزارة
الخارجية كي تعمل على استمرار قنصليتها في مصر ، وعلى تأييد بلدوين في
سياسته لما أبداه من خبرة وحاس في الدفاع عن صالح الامبراطورية .

وكان من حسن حظ بريطانيا أن بلدوين لم يغادر منصبه ، لانه لم يستلم
- لسبب غير معروف - أمر عزله الصادر في ٨ فبراير سنة ١٧٩٣ ، ولكنه مرض
في ذلك الحين ، وكان مزموماً للسفر إلى لندن حينما استدعت الحكومة
الانجليزية وكيله الشخصي في لندن وأبلغته شفهاً أن يكتب الى بلدوين يخبره
بأن الحكومة تريد أن تستبقه في مركزه متولية أمر نفقاته حتى تضع
الحرب بينها وبين فرنسا أوزارها ، وبذلك استأنف بلدوين مهمته ، وكان
شيئاً من هذا الاضطراب لم يحدث .

بلدوين يعقد معاهدة جديدة مع مراد و ابراهيم

كانت المهمة الاولى لبلدوين عند أول تعيينه قنصلاً في مصر كما ذكرنا أن يعقد معاهدة تجارية مع مماليك مصر .

ولذلك انتهز بلدوين هذه الفرصة السانحة ، وعقد هذه المعاهدة بينه وبين مراد بك و ابراهيم بك ، وقد حصل فيها على الترخيص للسفن الانجليزية بالملاحة في البحر الأحمر حتى مدينة السويس ، وعلى الترخيص للتجارة الانجليزية بالمرور في أمان بين السويس والاسكندرية ، وذلك مقابل أن يدفع التجار ضريبة مقدارها ٦ ٪ للمماليك مصر ، يدفع نصفها التجار الانجليز والنصف الثاني العملاء المقيمون في مصر ...

وليس غريباً أن نذكر أن المماليك قد رحبوا بعقد هذه المعاهدة أكثر من ترحيب بلدين ، ونستطيع أن ندرك لماذا لم يكن هذا غريباً إذا عدنا إلى الماضي قليلاً لنذكر أن غالبية ثروة المماليك التي مكنتهم من أن يحيوا هذه الحياة المفعمة بالبذخ والترف .. كان مصدرها الرسوم الجمركية الباهظة التي كانوا يتقاضونها على التجارة المارة عبر مصر من الشرق الى الغرب ، فكان لتفريغ البضاعة في الموانئ رسوم خاصة ، ولحق الإبحار رسوم خاصة ، وللجمرك رسوم خاصة ، ولحق الشحن رسوم خاصة ، وهكذا ..

وإذا تذكرنا أيضاً ان هذا التبع الفياض قد غاض معينه منذ تحولت التجارة إلى رأس الرجاء الصالح .. فليس غريباً إذن أن يحن المماليك إلى قطرات أن تنحدر إليهم من هذا النبع الذي طالما سقاهم اللبن والعسل

وسعى بلدوين من ناحيته سعياً حثيثاً ليتوج هذه المعاهدة بالنجاح ، فأرسل صورة منها إلى حكومته في لندن ، وأرسل صورة أخرى إلى الهند يؤكد للتجار هناك أمله المؤكد في أن الحكومة العثمانية سوف توافق على هذه المعاهدة دون شك. ، ودفعه إلى تأكيد هذا الأمل أن عدوه الألد انسل قد

ترك مركزه في القسطنطينية ليتولاه من بعده «روبرت لستون R. Liston» ، لكن انسلى حين عاد الى لندن كان أكبر همه أن يقضي على آمال بلدوين بتعسفية آرائه والتقليل من قيمة مجهوداته لدى وزارة الخارجية ، ولذلك لم يحصل بلدوين من حكومته على علم بوصول (A. R.) مذكرته عن المعاهدة .

مصر تثير اهتمام روسيا وفرنسا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر :

وبينا الحكومة الانجليزية تحاول جهدا خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر لكي تنفض يدها من مصر وطريق السويس تماما ، كانت هناك على الأفق دولتان قويتان تثير مصر اهتمامها باستمرار ، هاتان هما روسيا وفرنسا . أما روسيا تحت حكم كاترين الثانية فقد كانت تعقد الآمال الطوال وتحاول تنفيذها للوصول إلى مياه البحر الأبيض المتوسط ..

ولذلك ابتدأت أنظارها تتجه نحو مصر ، وفي سنة ١٧٨٥ حاولت فئة من مماليك مصر بزعامه إبراهيم بك تعزيز استقلالهم بالتحالف مع إحدى الدول الأجنبية ، ولهذا السبب دخلوا في مفاوضات سرية مع روسيا ، وعلم الباب العالي بهذه المفاوضات ، فأسرع بإرسال بعض القوى لتعزيز الدفاع عن مصر أمام الغارة الروسية المنتظرة ، ولكن روسيا لم تسرع بإرسال هذه الغارة وانتظرت فرصة اشتباكها في الحرب مع تركيا حينما كانت مصر بلا قوة تحميها فأرسلت في أغسطس سنة ١٧٨٨ فرقاطة حربية مزودة بأربعين مدفعاً وتصحبها نقالتان تحملان بعض العدة والسلاح والهدايا إلى الأمراء .

ووصلت هذه السفن إلى دمياط يقودها القنصل الروسي السابق « Baron de Thonus » ، ولاقت هذه الحملة الصغيرة كل عون من القنصل الفرنسي في ثغر دمياط ، وكانت مهمة الروسيين في الواقع مساعدة المماليك للقيام بثورة ضد الترك ، ولكنهم لم يفلحوا في مهمتهم ، والفضل في ذلك يرجع إلى دهاء الوالي العثماني في مصر في ذلك الوقت وهو إسماعيل باشا .

وفي سنة ١٧٩٠ أرسل انسلي إلى حكومته من القسطنطينية تقريراً آخر يخبرها بعزم الروسيين على غزو مصر، لم ولكن هذا العزم لم يكن أكثر من خطة وضعت لارسال ثنائي سفن حربية تتخذ طريقها حول رأس الرجاء الصالح وتنفذ إلى البحر الأحمر فتهدم جدة وينبع وتخرب مكة والمدينة وقبر الرسول ثم تهدد مصر ذاتها .

كانت هذه خطة وضعت كما ذكرنا ، ولكن الروس لم يجدوا في انفسهم الشجاعة الكافية لتنفيذها .

مقدمات الحملة الفرنسية على مصر :

أما فرنسا فقد كانت أشد عزماً في اتجاهاتها ، وكانت للمنافسة القديمة بينها وبين بريطانيا في الشرق والغرب على السواء تحس الخطر الذي يهددها ويهدد تجارتها إذا تحققت محاولات بلدوين المتكررة للسيطرة على طريق السويس ، كذلك كان لرحلات الفرنسيين المتتابة إلى مصر في القرن الثامن عشر ونخص بالذكر منها رحلتي فولني وسافاري « Savary » أكبر الفضل في توجيه أنظار الفرنسيين إلى مصر .

ولذلك لم تلبث فرنسا أن أعادت انشاء قنصليتها في القاهرة في ١٣ يناير سنة ١٧٩٣ واختارت لها التاجر بجالون « Magallon » ، وجاء هذا التعمين قبل الأمر بعزل بلدوين بتسعة أيام مما أثار احتجاج الانجليز لدى حكومتهم يطلبون استمرار بلدوين في مصر .

وفي اكتوبر سنة ١٧٩٥ وصل إلى الإسكندرية « Dubois Thainirll » ومهمته أن يعقد معاهدة مع المماليك لفتح طريق التجارة والمواصلات بين السويس والهند ، وسرعان ما استشف بلدوين من هذه المحاولات أن الفرنسيين يزمعون الإغارة على الهند عن طريق مصر بإرسال جيش عبر مصر إلى الهند لمساعدة « Tippo » سلطان ميسور ، وللقضاء على السيطرة الانجليزية في الهند ، وسرعان ما أرسل تقريره إلى حكومته يخبرها بنبأ هذه المحاولات .

ومما يؤيد صحة هذا الخبر أن « Magallon » كتب إلى حكومته سنة ١٧٩٥ يخبرها بأنه من الممكن إرسال فئة من الجيش عن طريق السويس عندما تكون الرياح موافية ، وأن الجنود لا يمكثون فوق البحر عن هذا الطريق سوى ستين يوماً ، في حين أنهم يستغرقون ستة أشهر إذا انتقلوا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما يقول : -

« لا نفقد رجلاً في المائة ، على حين أننا نكون سعداء لو فقدنا عشرة رجال من مائة لو تتبعنا الطريق الآخر » .

ولتوضيح فكرته كتب إلى وزارة الخارجية الفرنسية يقول :

« بالرحيل من طولون في العشرين من يونيو تستطيع القوى الفرنسية الوصول إلى الاسكندرية في العاشر من يوليو ، وإلى القاهرة في العشرين منه وإلى السويس في الخامس والعشرين ، وبعد خمسة وأربعين يوماً تصل إلى الهند قبل أن يكون الانجليز قد اتخذوا عدتهم للدفاع »

وأن عشرة آلاف فرنسي يستطيعون في معركة واحدة اقتلاع الانجليز من البنغال حصنهم المتين » .

ويقال ان رسائل « Magallon » كانت السبب الأكبر في إثارة النقاش بين رجال حكومة الإدارة حول موضوع الإغارة على مصر ، فاستدعى ماجالون إلى فرنسا لاستشارته . وفي سنة ١٧٩٧ كانت فكرة الحملة على مصر ثم على الهند قد اختمرت في رؤوس رجال الحكومة ، وابتدأت تخطو الخطوات التنفيذية .

ومما ساعد على نجاحها أن بلدوين الذي كان يقف لكل فكرة من هذا النوع بالمرصاد كان قد ومن منه العظم واشتعل الرأس شيباً ، وضعف بصره ، فعادر مصر إلى وطنه حيث قضى الأيام الباقية من حياته .

وانتهت هذه المقدمات بوصول حملة نابليون إلى مصر في سنة ١٧٩٨ ،

وقام الصراع صريحاً وعنيفاً بين إنجلترا وفرنسا وكل منها تحاول السيطرة على مصر والاستثمار بطريق الهند شريان التجارة بين الشرق والغرب، وشهد القرن التاسع عشر صوراً متتابة من هذا الصراع بدأت بجلاء الفرنسيين عن مصر في سنة ١٨٠١ أول سنة من سنوات هذا القرن ، وكانت الصورة الثانية اتفاق دليسبس مع سعيد لحفر قناة السويس ثم افتتاحها في عهد اسماعيل ثم شراء دزرائيلي لأسهم مصر في شركة قناة السويس .

وكانت الصورة الثالثة احتلال إنجلترا لمصر في سنة ١٨٨٢ .

ومع مولد القرن العشرين هدأت حدة هذا الصراع بعقد الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا في سنة ١٩٠٤ ، وانتقل الصراع منذ ذلك الحين بين الانجليز كقوة استعمارية وبين القوى الوطنية المصرية ، وكان لهذا الصراع صداه في طرف الشريان البعيد في الهند ، وتجاوبت الحركات الوطنية في البلدين مصر والهند .

ووافقت إنجلترا على استقلال الهند ودخلت مع حكومات مصر في حلقات من المفاوضات يأخذ بعضها بخناق بعض ، وكانت تعلن في كل حلقة من هذه الحلقات موافقتها على استقلال مصر ولكنها كانت تصر في كل مرة على أن تظل لها السيطرة بشكل أو بآخر على قناة السويس الطريق إلى الهند وإلى الشرق بصفة عامة ، أما فرنسا فقد قنعت بالكسب المادي الذي يدر عليها المال أنهاراً بحكم ملكيتها للنصيب الأكبر من أسهم شركة القناة وبحكم سيطرتها الفعلية على مجلس إدارتها ومعظم وظائفها .

وبلغ التحدي ذروته حين أعلن البنك الدولي بإيعاز من أمريكا وإنجلترا ودول الغرب سحب وعده بتمويل مشروع السد الأعلى .

وكان الرد قويا وصارماً حين أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم شركة

قناة السويس وبذلك استطاعت مصر ان تستعيد ملكيتها لهذا الشريان التجاري الهام ومفتاح الطريق إلى الهند .

وجن جنون إنجلترا وفرنسا بالذات — ولنترك اسرائيل جانبا فهي عامل دخيل في المنطقة — ونسيت الدولتان المنافسات الطويلة التاريخية الحادة بينهما من أجل السيطرة على هذا الطريق، واتفقتا اتفاق المتعوس مع خائب الرجاء ، وكان العدوان الأثيم الذي انتهى بالهزيمة الشنعاء .

دكتور برون (Dr . Perron)^(١)

والشيخان

محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي

تقدمة :

آمن محمد علي ، منذ تولى عرش مصر بإرادة الشعب ، أنه لا يستطيع أن يرقى بهذا البلد إلا إذا نقل الحضارة الأوروبية الى مصر ، أو بمعنى أصح ، الا اذا ترجم الحضارة الأوروبية ؛ وقد استعان في أول أمره بجماعة من الايطاليين وأرسل بعثاته الأولى الى ايطاليا؛ ثم لم يلبث أن تحول عن ايطاليا والايطاليين الى فرنسا والفرنسيين^(٢) ، وكان أول مظهر من مظاهر هذا التحول استعانه بالكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي فيما بعد) لتدريب ضباط جيشه الجديد .

وبعد تكوين هذا الجيش الجديد رأى انه في حاجة الى اطباء أوروبيين

(١) نشر هذا البحث في : (مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد الثاني ، ١٩٤٤)

(٢) فصلت الحديث عن هذا التحول وتطوره في كتابي : « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في

عصر محمد علي » ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

للإشراف على صحة ضباطه وجنوده ، فكلف التاجر الفرنسي تورنو (Tourneau) في سنة ١٨٢٥ (١٢٤١ هـ) أن يرحل الى فرنسا ويتعاقد مع احد الاطباء الفرنسيين ؛ فسافر « تورنو » واتصل بالدكتور « انطوان برتلمي كلوت Antoin Barthélmy Clot » في « مرسيليا » ، وكتب معه شروطاً تقضى بحريته في العمل ، وأن يتبع ديانته المسيحية ، وعدم إجباره على السير مع الجيش ... الخ ... الخ^(١) ؛ وحضر كلوت الى مصر في نفس السنة (١٢٤١ هـ - ١٨٢٥ م) وعين « جراح باشي » الجيش المصري .

ولم يلبث كلوت أن أخلص لعمله الجديد ، ووهبه كل وقته وتفكيره ، فأنشأ المستشفيات العسكرية ، ومصلحة الصحة البحرية ، وفي سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧ م) انشئت مدرسة الطب المصرية^(٢) تنفيذاً لرغبته ، وجُعل مقرها في أبي زعبل لتكون قريبة من معسكرات الجند .

وتخير الدكتور « كلوت » نخبة من أطباء وعلماء أوروبا الممتازين ليكونوا أساتذة المدرسة الجديدة ، وكان من بينهم « الاستاذ برثون الكياوي المعروف من مدرسة باريس^(٣) » ، لتدريس مادتي الطبيعة والكيمياء .

وكانت الصعوبة الكبرى التي اعترضت طريق « كلوت » هي جهل الاساتذة باللغة العربية ، وجهل التلاميذ باللغات الاجنبية عامة ؛ ولكنه بذل جهوداً جبارة للتغلب على هذه العقبة ، بدأت بأن يترجم المترجمون عن الاساتذة ما يقولون ، وانتهت بترجمة الدروس التي تلقى ، والمراجع الطبية المختلفة ، وطبعها في مطبعة بولاق ، ثم توزيعها على طلبة المدرسة .

(١) تاريخ كلوت بك ص ١٠ ، ترجمة محمد ليبب البتاوني أحمد خريجي مدرسة الألسن بإشارة الدكتور محمد بك الدرر ، القاهرة ، المطبعة الطبية الدرية بحارة السقاين سنة ١٣٠٨ .
(٢) انظر جهوده و ترجمة حياته بالتفصيل في المرجع السابق ص ٦ - ١٥ ؛ كلوت بك لحة عامة الى مصر ، ترجمة محمد مسعود ، ج ٢ ص ٩٣ وما بعدها ؛ عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي - القاهرة ١٩٣٨ ، ص : ٣٢ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠ - ١٥٩ ، ٢٥١ . الخ . الخ .

(٣) كلوت بك ، لحة عامة الى مصر ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

غير ان استاذاً واحداً استطاع - كما يبدو - أن يذلل هذه العقبة وحده ، فاستعان ببعض الألفاظ العربية - ولا شك - عند شرح دروسه ، ثم استعان أول الأمر بأحد مترجمي المدرسة ليترجم له محاضراته في علم الطبيعة ، ولكنه بعد سنوات قضاها في الدرس والبحث ، والاتصال ببعض المحررين والمصححين من شيوخ الأزهر استطاع أن يترجم بنفسه محاضراته في الكيمياء .

ذلك الأستاذ المستشرق هو الطبيب « الكياوي » الدكتور « برثون » ، وهو الوحيد من بين جميع الأساتذة الأجانب في مدارس محمد علي المختلفة الذي كان يعرف اللغة العربية ، ويعني بالبحث في كتبها ، والترجمة عنها وإليها .

دكتور برثون . Dr. Perron . :

كان « برثون » عالماً بجأته بكل ما تحمل هاتان الكلمتان من معنى ، فلم يكتف بعمله التعليمي الوظيفي فيغمض عينيه عن الحياة التي تحيط به ، وهي حياة جد جديدة ، في بلد غريب ، وبين أناس يختلفون عن عشيرته من الفرنسيين الاختلاف كله : في الدين ، والاخلاق ، والعادات ، والملابس ، والثقافة ... الخ ولكنه وهب وقته كله للبحث العلمي ، ولنوع خاص من هذا البحث العلمي : هو الحياة الثقافية - قديمها وحديثها - في الشرق عامة ، وفي مصر خاصة ، فشارك في حركة الترجمة والنشر التي نشطت وقتذاك في مصر ، وكانت له جهود جليلة في الترجمة عن العربية إلى الفرنسية ، وعن الفرنسية إلى العربية ، وكانت له نظرات نافذة - رغم مرارتها - إلى صميم الحياتين الثقافية والسياسية في مصر حينذاك ، ولهذه النظرات قيمة عظيمة لأنها صادرة عن أجنبي يدرك العيب الذي لا يدركه صاحب البيت ، وعن عالم يستطيع التحليل والمقارنة ، ويمجد الشرح والوصف ، وإدراك الأسباب والمسببات .

وقد سجل « برثون » هذه الملاحظات في خطابه التي كان يرسلها اثناء مقامه في مصر إلى صديقه المستشرق الشهير « جول مول »^(١) Jules Mohl « ناموس الجمعية الاسيوية وعضو الجمع الفرنسي (l'Institut de France) في « باريس » ، وقد نشر « مول » بعض هذه الخطابات في الجريدة الاسيوية « Journal Asiatique » ، وبقي البعض الآخر دون أن ينشر حتى انتقل إلى ابن أخيه مسيو « أ. دي مول O. de Mohl » بصفته الوريث لعمه . وفي سنة ١٩٠٨ كان « أ. دي مول » وزيراً مفوضاً ووكيلاً لالمانيا في صندوق الدين العام بالقاهرة ، فعثر بين أوراق عمه على أربع عشرة رسالة بخط الدكتور « برثون » مرسلة من مصر إلى « جول مول » في « باريس » ، فقدمها لصديقه المرحوم أرتين باشا وكيل وزارة المعارف وقتذاك ، وعضو الجمع المصري « l'Institut Egyptien » عليه يجد بها ما يهم مصر ، أو الجمع المصري ، وذلك قبل إرسالها إلى باريس لتضم إلى أوراق « جول مول » المحفوظة بالجمع الفرنسي .

وقد نشر أرتين باشا هذه الخطابات ومعهما مقدمة تحليلية في سنة ١٩١١ تحت هذا العنوان : « Yacoub Artin Pacha, Lettres du Dr. Perron, du Caire et d'Alexandrie, à M. Jules Mohl, à Paris. 1838 — 1854, Le Caire, 1911. »

وفي هذه الخطابات صور من نشاط « برثون » العلمي في الترجمة والنشر . ودكتور « برثون » فرنسي الاصل ، ولا نعرف شيئاً كثيراً عن حياته الأولى في فرنسا قبل أن يحضر إلى مصر ، غير أنه يبدو أنه عنى

(١) جول مول ألماني الأصل ولد في « شتتجارت Stuttgart » في ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٠ ، ودرس في كلية توبنغن ، ثم سافر إلى باريس وتجنس بالجنسية الفرنسية ، ودرس هناك على المستشرقين الفرنسيين ، وكان معنياً بالدراسات الفارسية وله مؤلفات وأبحاث كثيرة أهمها نشره لكتاب الشاه نامه للفردوسي في سبعة مجلدات ضخمة ، ثم أتبعه بترجمة فرثسية مذيلة بالحواشي ونوفي في ٤ يناير سنة ١٨٧٦ . انظر : شيخو ، الآداب العربية في القرن ١٩ ، بيروت سنة ١٩٠٨ — ١٩١٠ ، ج ٢ ص ٥٥ : Y. Artin Pacha, Lettres du Dr. Perron : etc etc le Caire, 1911. P. 6.

— وهو في باريس — إلى جانب دراساته الطبية العلمية ؛ بدراسة اللغة العربية ، وتلمذ إذ ذاك على كبير مستشرقى فرنسا « سلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy » كما تلمذ على المستشرقين : « جان جاك كوزلن دي برسيغال » الأب ، و « أرمان كوزان دي برسيغال » الابن^(١) .

ولسنا نعرف بالتحديد تاريخ مقدمه إلى مصر ، وإن كان « كلوت بك » يذكره ضمن الأساقفة الأول لمدرسة الطب المصرية بأبي زعبل ، فإذا صح أنه بدأ عمله بهذه المدرسة وقت إنشائها فإنه يكون قد حضر إلى مصر في سنة ١٨٢٧ (١٢٤٢ - ١٢٤٣ هـ) .

وظل « برتون » يدرس في مدرسة الطب مادتي الطبيعة والكيمياء حتى بعد نقلها إلى القصر العيني .

ويبدو من رسائله إلى صديقه « مول » أنه كان فقيراً ، رقيق الحال ، فقد كتب إليه في خطابه المرسل من الاسكندرية بتاريخ ١٠ أغسطس سنة ١٨٣٦ : « أشر عليّ بما ترى أنه خير وأفضل لي أن أعمل فأنتي فقير لا أملك إلا مدادي .. »^(٢) ، وقال في خطاب آخر أرسله لصديقه من القاهرة في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٩ : « وأما أنا فقد عهد إلي بإدارة مدرسة الطب ... وهذا

(١) ذكر « برتون » مرة في أحد خطابه لصديقه « مول » أنه سيكتب قريباً لسيو « كوزان » ، وطلب من صديقه أن يبلغه أنه سيعمل التحليل الذي طلبه منه ، وأنه يشرفه جداً أن يتمتع بصداقة وثقة عالم كبير كمسيو « كوزان » ؛ وفي خطاب آخر طلب من صديقه أن يسلم خطاباً أرسله لأستاذه العزيز « كوزان دي برسيغال » : « l'autre est une seconde lettre que j'adresse à mon cher professeur Monsieur Causin de Yacoub Artin, Lettres du Dr, Perron, PP. 51, 53, Perceval انظر : » ومن الواضح أن « برون » يقصد دي برسيغال الابن فإن هذه الاشارات وردت في خطابين بتاريخ ١٠ أغسطس سنة ١٨٣٨ و ٢١ مارس سنة ١٨٣٩ ، و « دي برسيغال » الأب توفي سنة ١٨٣٥ ، انظر : يوسف جبرا ، تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ص ٢٨ ؛ وشينخو ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) Y. Artin Op. cit. P. 11 .

المنصب الجديد قد عاد علي بشيء من التحسين المادي - أعني المالي - غير أن كل شيء هنا وقي ، ورهين بتقلب الأحداث والأشخاص ، لدرجة أنني لو كنت أعرف أنني سأجد في فرنسا - في الحال - نصف ما أجمعه هنا ، لرحلت إليها توأ .. ، (١) .

ونجده في نفس الخطاب قلقاً جداً لاهتمامه بطبع كتاب الأنساب (٢) الذي ترجمه إلى اللغة الفرنسية ، وكان قد كلف صديقاً له في باريس إسمه « مسيو دوبرات M. Duprat » أن يقوم بنشره ؛ يقول « برؤن » في خطابه لمول - وفيما يقول دليل واضح على رقة حاله - : « لقد تركت له مسألة النفقات وتقديرها ، وإني أرى أن كل شيء غير مناسب الآن للقيام بهذا النشر الذي أريده (وأريده أن يتم بأقل نفقات ممكنة ، وذلك دون إهمال ما يتطلبه ظهور الكتاب) إذ أنه كلما تصرف لنا مرتباتنا ، والحكومة مدينة لنا بمرتب سنة ، فإذا كان مسيو. « دوبرات » يثق في الثقة الكاملة ، فلإني أرجو أن يتولى الطبع في الحال ، واعدأ إياه أن أقوم بسداد المبلغ منجماً كلما صرفت لنا الحكومة ... وإلى هذا فإن مرتبي قد زاد ، فقد كنت أتقاضى ثلاثة أكياس فجعلها الباشا خمسة ... ، (٣) .

ظل الدكتور « كلوت بك » مديراً لمدرسة الطب المصرية حتى سنة ١٨٣٤ حيث تخلى عن منصبه للدكتور « دفينو Duvigneau » وكان أستاذ

(١) Y. Artin, Op. cit. P. 12 .

(٢) هو كتاب « اليتيمة في النسب وفضائل العرب » أحد أقسام الجزء الثاني من العقد الفريد لابن عبد ربه .

(٣) 14 - 13 PP. Y. Artin, Op. cit. والكيس كان يساوي ٥ جنيهات ، أي أن مرتبه كان ١٥ جنيهاً فأصبح ٢٠ جنيهاً ، ونلاحظ أن هذا الخطاب صادر عن مصر في أواخر سنة ١٨٣٩ ، وكان فضال محمد علي وقتذاك ضد الدولة العثمانية يستنفد معظم إيرادات مصر ، فلا عجب إذن أن أخرت الحكومة صرف مرتبات الموظفين .

الباتولوجيا والعيادة الداخلية ، وفي سنة ١٨٣٩ (١) عين الدكتور « برون »
مديراً لهذه المدرسة .

ولبت « برثون » مديراً لمدرسة الطب ست سنوات ، وفي سنة ١٢٦١ هـ
(١٨٤٥) أنعم عليه محمد علي باشا برتبة قائمقام ، وفي السنة التالية ١٢٦٢
(١٨٤٦ م) (٢) استقال من منصبه ، وعاد الى فرنسا فأقام في باريس ثماني
سنوات ؛ ثم شعر بالحنين الى مصر فعاد اليها في أواخر سنة ١٨٥٣
(١٢٦٠ هـ) حيث عمل كطبيب حر في مدينة الاسكندرية (٣) ؛ ولا نعرف
متى غادر مصر ثانية الى وطنه ، ولكننا نعلم أنه مات في باريس في ١١ يناير
سنة ١٨٧٦ (المحرم سنة ١٢٩٣ هـ) في نفس السنة التي توفي فيها صديقه
ومراسله العلامة « ج . دي مول » .

وقد كتب المسيو « إرنست رينان M. Ernest Renan » مراثية للرجلين
في التقرير المقدم عن أعمال الجمعية الآسيوية لسنتي ١٨٧٥ - ١٨٧٦ (٤) .

(١) يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم في كتابه « تاريخ التعليم في عصر محمد علي »
ص ٢٨٤ : « والى أوائل سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٧) كان « دفينو » مديراً لمدرسة الطب
وخلفه الدكتور « برون » ، ويفهم من قوله ان الدكتور برون تولى هذا المنصب سنة ١٨٣٧ ،
ولكننا نستطيع أن نحدد - بوجه التقريب - تاريخ تعيينه مديراً للمدرسة ، ذلك أنه لم يشر
الى أي تغيير في مركزه في خطابه المرسل من القاهرة في ٢١ مارس سنة ١٨٣٩ ، ولكنه تحدث
الى صديقه « مول » في خطابه الصادر من القاهرة في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٣٩ عن ترقيته الى هذا
المنصب ، وعن زيادة مرتبه تبعاً لهذه الترقية ، فيكون « برون » قد تولى هذا المنصب قطعاً بين
مارس وسبتمبر سنة ١٨٣٩ ؛ انظر أيضاً : Enc Isl. Art : Tunisi .

(٢) جاء في Enc. Isl. Art : Tunisi أنه عاد الى فرنسا في سنة ١٨٥٠ ، والصحيح
ما ذكرناه هنا نقلاً عن عزت عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص ٢٨٤ ، الذي اعتمد عند ذكر
هذا التاريخ على بعض وثائق عابدين .

(٣) وقع على خطابه المرسل من الاسكندرية في ١٩ يناير سنة ١٨٥٤ هكذا : برون طبيب
صحي بإسكندرية : Y. Perron, Médecin Sanitaire à Alexendrie. Voir : Y.
Artin, Op. cit, PP. 38, 109 .

(٤) 28 Juin 1876. 7^{me} série, tome VIII (٤)

قال « رينان » في رثائه للدكتور « برثون » : في الحادي عشر من يناير اختفى ايضاً رجل ترك في تاريخ دراساته تذكراً باقياً ، وأعني به الدكتور « برثون » وهو واحد من أوائل الملتحقين بهذه الفرقة من الرجال المستنيرين المقادير ، الذين عضدوا - وهم في مصر - مشاريع محمد علي لتحضير هذا البلد .

« وبرثون لم يدرس الشرق كباحث فقط ، وإنما كان يؤمن - ككل أفراد الجيل الذي كان من أبنائه - بالشرق ، كما كان يأمل في انبعائه من جديد ، وقد عمل هناك في إخلاص نادر .

« وكان إنشاء طب عربي فرنسي جزءاً من عمله ، وقد أدى خدمات من نفس النوع لمنشآت مدارسنا في الجزائر ؛ وكان يحب العرب ، ويعتقد في إمكان ربطهم بالحضارة الأوروبية ، يمثلك في ذلك بعواطف خيرية ، ومتشبعاً بمبادئ فلسفة عاطفية ... » (١) .

آراء برون في أحداث مصر السياسية :

اعتاد « برثون » أن يروي لصديقه « مول » - في خطابات له - نبذاً عن أحداث مصر السياسية الهامة ، وفي هذه النبذ مادة طيبة للباحثين في تاريخ مصر السياسي في عصر محمد علي :

١ - كان للغة التركية المقام الأول في مدارس محمد علي - وخاصة المدارس الحربية - ، فلما تفاقم النزاع بين الباشا والسلطان ، ووصلت الخصومة الى أوجها في الحرب السورية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٠) رغب الباشا في تعريب مصر - إن صح هذا التعبير - وذلك يجعل اللغة العربية أداة التعليم في المدارس المصرية ؛ يشير الى هذا « برثون » كما يشير الى ان السبب الحقيقي لهذه السياسة رغبة الحكومة في الاقتصاد في مصروفات المدارس ، ونتيجة لهذا عُزل المدرسون الأوروبيون الذين كانوا يتقاضون مرتبات عالية ، وحل

(١) Y. Artin, op. cit, P. 7

مكانهم مدرسون مصريون^(١) بمرتبات أقل ؛ وظلت هذه السياسة رائد الحكومة المصرية حتى بعد انتهاء أزمة سنة ١٨٤١ ، فقد كتب « برون » مرة أخرى لصديقه بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٤١ يقول : « ان الشؤون المصرية باقية كما هي في حالة عدم استقرار ، والاقتصاد هو اليوم كلمة الحكومة الأولى ، وهي تعمل على استبعاد الموظفين الأوروبيين ، وتحت تأثير الاقتصاد أيضاً أنقص عدد تلاميذ المدارس ، فمدرسة الطب مثلاً ، كان عدد تلاميذها ٣٠٠ فحدد هذا العدد وأصبح ١٣٠ فقط ، وحدث مثل هذا في المدارس الأخرى .. »^(٢)

٢ - كان لهزيمة محمد علي - نتيجة لتدخل دول أوربا - رد فعل قوي في نفسه ، فلم يعد يهتم بجيشه ، يذكر « برون » أنه كان من عادة محمد علي أن يُلقى الى رجال جيشه - عند مقابلتهم له - ببعض كلمات ودية ، وكان في بعض الأحيان يداعبهم مداعبة أبوية ، أما عند عودة الجيش من سوريا ، فقد جلس محمد علي - على ديوان في سلامك القلعة ، وظل ينظر عابساً الى الخارج خلال احدى النوافذ - والجيش يمر أمامه ، دون أن يحظى أي ضابط أو صف ضابط بكلمة ودية واحدة .

فشلت مشاريع محمد علي بعد جهاد طويل ، واضطر الى اخلاء سوريا ، وأنقص عدد جيشه ، ولكن لم يركن الى الهدوء والدعة ، بل اتجه الى تنظيم البيت ، واستثمار أرضه ، فعني بالزراعة - عناية كبيرة ، يقول « برون »

(١) Y. Artin. Op. Cit. PP. 13, 68 - 69 ورأي « برون » في هذا الموضوع بعيد عن الصواب فان سياسة محمد علي منذ تولى عرش مصر كانت ترمي الى تحقيق هذا الأمل ، وهو إبعاد الأجانب وإحلال المصريين محلهم ، لهذا أنشأ المدارس ، ولهذا أرسل البعثات ، لأنه كان يرى في صرف الأجانب عن المنشآت الجديدة وإحلال المصريين محلهم « صيانة لأموال الدولة وفخراً لها » وكان يفرح الفرح كله كلما سمع عن نبوغ بعض الضباط المصريين ، ويعد ذلك « فألاً حسناً للمستقبل اذ يغني الحكومة عن استخدام الأجانب » ، انظر بحثنا عن الترجمة في عصر محمد علي ، وعزت عبد الكريم ، المرجع السابق ص ٣٣ و ٣٤ .

(٢) Y. Artin. Op. Cit. PP. 68 - 69 .

في خطاب له بتاريخ ٢٨ مارس سنة ١٨٤٢ : « حالة الدولة كما هي منذ شهور كثيرة والباشا يمر باستمرار في الاقاليم لتشجيع الأعمال الزراعية ، وهو الآن في الوجه البحري حيث يعمل لزراعة كميات كبيرة من السمسم »^(١) ثم يقول : « وفيما يتعلق بالجيش ، لم يعد أحد يهتم به ، لا الباشا ولا أي أنسان آخر ، وعدده يقل كل يوم ، وعدد الخارجين منه يزيد باستمرار ... »^(١)

وذكر « برون » بعد ذلك أن كبار أمراء الأسرة العلوية انتهجوا نهج محمد علي ؛ فإبراهيم باشا « كان غائبا عن القاهرة منذ شهور طويلة ، ولا يشغل نفسه إلا بالزراعة ، وكذلك عباس باشا ، فإنه يمر بأملأه ، وبمزارع الحكومة ... »^(٢)

٣ - ويشير « برتون » في رسائله أيضاً الى الضرائب الجديدة التي فرضها محمد علي في هذه الفترة ، ومنها ضريبة عقارية جديدة على المنازل في المدن وقيمتها ٨٠٪ من إيجار المنزل ، ومنها ضريبة أخرى كبيرة المقدار على الرقيق الأسود - رجالا ونساء - الوارد الى مصر أو الصادر عنها ، وقيمتها ٣٠٠ قرش^(٣) .

(١ - ١) Y. Artin. Op. Cit. PP. 18, 19, 72, 73 وقد استخدم محمد علي الجنود في بناء القناطر الخيرية ، وفي زراعة الأراضي التابعة للحكومة بزراعة القطن في جفالك نبروه ولشرت تحت اشراف يوسف أفندي وتحت امرة بعض الضباط وصف الضباط .

(٢) Y. Artin. Op. Cit. pp. 20, 73 .

(٣) يتحدث حكاكيان بك عن هذه الضريبة في مذكراته غير المنشورة، المحفوظة في المتحف البريطاني بلندن "Memoires inédits du Hekekyan Bey, déposés en manuscrit au British Museum à Londres" تحت تاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٨٤٣ فيقول : « فرض الوالي ضريبة قدرها ٣٠٠ قرش على كل عبد يرد الى مصر ، ولكن هذه الضريبة لم تؤثر في حركة الوارد من الرقيق ، والباشا يرى أنه قد حان موعد إلغاء هذه التجارة ، والانجليز ينعون نقل الرقيق بوساطة البحر بين افريقيا وبلاد العرب ... » ، ويذكر أرتين باشا ، المرجع السابق ص ٢١ - ٢٢ أن السير ج . بورنج Sir J. Bowring و« الكومودور نابيه Napier » كانا شديدي الاهتمام بهذا الموضوع ، وان محمداً علياً حاول هذه المحاولة تحت -

ويذكر « برثون » أن الباشا قدّر في نفس الوقت ما قد يكون لهذا المنع من أثر اقتصادي في التجارة المتبادلة بين مصر والسودان والحبشة ، فعمل على تشجيع التجارة في الأصناف الأخرى الواردة من هذه البلاد ، كالعاج والصمغ العربي ، وحرّر هذه الأصناف من أي نوع من أنواع الضرائب .

٤ - كان للحكم المصري في سوريا أثره الواضح في نشر الأمن والنظام في ربوع هذا القطر الشقيق ، ولكن لم تكد جنود محمد علي تنسحب من هذه البلاد ، ويعود إليها الجنود والحكام العثمانيون حتى عادت معهم الفوضى القديمة واشتد النزاع القديم بين طائفتي الدروز والموارنة ، يشير إلى هذا النزاع دكتور « برون » في خطابه المورخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٤١ فيقول :

« والدروز والموارنة في نزاع مستمر وعداء ، وقد رأيت هذه الايام مسافراً عاد من سوريا فأكد لي أن كل شيء هناك في فوضى ؛ وفي نابلس نفسها رفض السكان دفع الضرائب ^(١) » .

آراء برون في الحالة العالمية :

١ - كانت مصر في عهد محمد علي قد بدأت تأخذ بأسباب نهضة علمية

- تأثيرها ؛ ويروي حكاكيان بك في مذكراته السابق ذكرها بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٨٤١ ملخص حديث دار بين « نابيه » ومحمد علي ، وفيه يبين الوالي رؤية في مشكلة إلغاء الرقيق : « أتى نابيه في المساء وتحدث الى الباشا بشأن الرقيق ، وقال له الباشا وعلام السرور بادية عليه : ان ابنه سيبدل جهداً أكثر من جهده لمنع هذه التجارة ، وأن حفيده سيغال أكثر من ابنه في هذا الحظر ، وهكذا يتشدد في المنع أحفاده واحد بعد الآخر حتى تلتهي هذه التجارة الى الالفاء »

(١) Y. Artin. Op. cit. PP. 17, 20 - 21, 69. وانظر لتوضيح العلاقة بين هاتين الطائفتين : « حروب ابراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول » ج ٢ ص ٦٦ - ٦٨ وهو لمؤرخ مجهول ، علق حواشيه الدكتور أسعد رستم ، وعنى بنشره الخوري بولس قرألي ، المطبعة السورية بمصر الجديدة سنة ١٩٢٧ . وقد انتهى هذا النزاع بين الدروز والموارنة حوالي سنة ١٨٦٠ نتيجة لتدخل نابليون الثالث الحربي .

جديدة ، فأنشئت فيها المدارس على النظام الأوروبي لتدريس العلوم الحديثة كالطب بفروعه المختلفة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والتاريخ والجغرافيا ، والنبات والحيوان ، والجيولوجيا ، وعلوم الرياضة المختلفة ، كالهندسة ، والحساب ، والجبر ... الخ الخ .

واختير من بين نوابغ الخريجين نفر أرسلوا في بعثات لممالك أوروبا ، وخاصة فرنسا ؛ وكانت جهود هذه المدارس مركزة أول الأمر في ترجمة المؤلفات الأوروبية في هذه العلوم ، وتلت هذه الجهود جهود أخرى لنشر بعض المؤلفات العربية القديمة الهامة . وقد أرخ « برون » لهذه الحركة تأريخاً لطيفاً مفيداً ، فكتب قائمة كاملة شاملة لجميع الكتب العربية ، والفارسية والتركية — مترجمة ومنشورة — التي طبعت في مطبعة بولاق حتى سنة ١٨٤٢ (سنة ١٢٥٨ هـ) ، وأرسلها لصديقه مول لنشرها في الجريدة الآسيوية^(١) ؛ ولكن « مول » كان قد تلقى في نفس الوقت من « موسيو بيانكي » قائمة أوفى فأهمل الأولى ونشر الثانية ، ثم أرسل « برثون » لصديقه « ج . مول » في نفس السنة (١٨٤٢) خطاباً آخر تحدث فيه عن المدارس الجديدة ومطبعة بولاق ، وقد نشر هذا الخطاب أيضاً في الجريدة الآسيوية سنة ١٨٤٣^(٢).

(١) Voir : Bianchi, Catalogue général des livres arabes, persans et turcs imprimés à Boulac en Egypte depuis l'introduction de l'imprimerie dans ce pays : Journal Asiatique, 4^e serie, 1843. t. II, pp, 31 et seq , وكان قد سبقه « رينو » ، فكتب مقالاً فيه ملاحظات عن الكتب التي طبعت في بولاق حتى سنة ١٨٣١ - ١٢٤٧ هـ) انظر : Renaud, Notices des ouvrages arabes, persans et turcs imprimés en Egypte, Journal Asiatique, 2^e serie, t. XIII, 1831; pp. 333 - 344 .

(٢) Lettres sur les écoles et l'imprimerie du Pacha d' Egypte, par M. A. Perron à M. J. Mohl, Kaire 22 Octobre 1842. Journal Asiatique, 4^{me} serie, t II, 1843. pp. 5 à 23. وقد استعان « برون » عند كتابة الجزء الخاص بالتعليم في المساجد من هذا المقال بأستاذه الشيخ الطنطاوي .

٢- وقد استطاع «برئون» ان يندمج في الوسط العلمي المصري بحكم اشتغاله بالتدريس ، وبحكم معرفته باللغة العربية ؛ غير ان معظم الاجانب الموجودين في مصر وقتذاك للمساهمة في نهضة محمد علي التعليمية والاصلاحية ، كانوا يجهلون اللغة العربية ، وهم قوم مثقفون يحبون البحث والقراءة ، وليس في مصر مكتبات افرنجية ، أو محال لبيع الكتب الاجنبية ، ولهذا كوّن هؤلاء الاجانب في القاهرة جمعية أسموها « الجمعية المصرية »^(١) Société Egyptienne تحدث عنها « بروئن » كثيراً في خطاباته لصديقه « مول » فذكر انها اسست سنة ١٨٣٥ (سنة ١٢٥١ هـ) ، وكان غرضها الاول إنشاء مكتبة تضم أكثر عدد ممكن من الكتب ، وخاصة ما يتحدث منها عن الشرق : تاريخه ، وجغرافيته ، وأديانه ، وعاداته ... الخ ... الخ .

وكانت مالية الجمعية تتكون من :

١ - اشتراكات الاعضاء ، واشتراك العضو في السنة مائة وخمسة قروش .

ب - ومن هبات الرحالة الاوروبيين الذين يمرّون بالقاهرة ، فان أي سائح أوروبي كان يستطيع أن يدخل الجمعية ، ويتمتع بالقراءة في مكتبتها

(١) 77 - 76, 65, 25, 21, 15 pp. Y. Artin. Op. Cit. ؛ وقد مر بمصر السائح الانجليزي C. Rochfort Scott حوالي سنة ١٨٣٥ ، وقد وصف هذا السائح في كتابه : Rambles in Egypt and Candia, London 1837, V. I. p. 216. ما تعانيه الجالية الأوروبية المثقفة في القاهرة من قلة الكتب ، ثم أشار الى هذه الجمعية وما تؤديه من خدمات ، قال : « أما عن الكتب - في القاهرة - فمن العسير الحصول على أي كتاب اللهم الا الكتب الكثيرة الاستعمال التي نجدها في مكتبات الدرجة الثالثة عند الايطاليين ، اما الصحف فانا لا نحصل عليها الا مرة واحدة في الشهر » ثم يشير الى الجمعية المصرية بقوله : « وأخيراً تكونت جمعية اسمها الجمعية المصرية أسسها بعض الأجانب في القاهرة ، وستقدم للسائحين خدمات كثيرة في المستقبل ، ففيها مكتبة ، وفيها سيكون مكان صالح لاجتماعهم ، وسكرتيرها طبيب انجليزي اسمه فالن Walne » ، هذا وقد تولى حكاكيان بك رئاسة هذه الجمعية أكثر من مرة ، وفي مذكراته السابق ذكرها أحاديث كثيرة عنها .

على شرط ان يقدمه للجمعية أي عضو من أعضائها ، وكان هؤلاء السائحون يقدرون ما تؤديه الجمعية من فوائد ثقافية للجاليات الأوروبية في القاهرة ، فكانوا يتركون عند رحيلهم بعض الجنيئات - كهبة في صندوق الجمعية . وقد تطورت اغراض الجمعية بعد نحو ست أو سبع سنوات من تأسيسها ، فأصبح من أغراضها طبع ونشر الكتب المتصلة بالشرق ؛ يقول « برثون » ، عضو الجمعية وسكرتيرها في خطابه المرسل من القاهرة بتاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٤٢ : « وعندنا الآن تحت الطبع مذكرات شائقة جداً عن الموقع الحقيقي لبحيرة قارون بالفيوم ، وعن حدودها ، والعلاقات القديمة بينها وبين فيضان النيل ... الخ ... الخ » ، وهذا الكتاب من وضع مسيو « لينان » الرئيس الحالي للجمعية المصرية^(١) .

· وواضح من هذا الخطاب ان رئيس الجمعية في سنة ١٨٤٢ (١٢٥٨ هـ) هو المهندس الفرنسي الشهير مسيو « لينان » ؛ وقد كان سكرتيرها في تلك السنة ، وفي سنوات مقبلة هو الدكتور « برثون » ، وبفضل صلته بجول مول وافقت الجمعية الآسيوية على ان تقدم لزميلتها الجمعية المصرية المساعدات الممكنة لبيع كتبها ومنشوراتها في باريس ؛ يقول « برثون » لصديقه في نفس الخطاب : « اطلعت الجمعية على خطابكم الذي تعرضون فيه مساعدة الجمعية الآسيوية لتسهيل بيع الكتب التي سننشرها ، وقد قبل عرضكم هذا بكل سرور ، وإني أقدم لكم شكر الجمعية ... »

وقد اعترضت هذه الجمعية صعوبات كثيرة ، ففي عهدها الأول (ما بين سنة ١٨٣٥ و سنة ١٨٤٢) قام نزاع شخصي بين رئيس الجمعية دكتور « فالن Dr. Walne » وسكرتيرها العام « دكتور م. أبوت Dr. M. Abbot »^(١) ، وأدى هذا النزاع إلى انفصال بعض الأعضاء ، وتكوينهم جمعية جديدة أسموها الجمعية الأدبية : « Association Littéraire » ؛ يقول « برثون » في خطابه

(١) Lettres du Dr. perron. pp. 23, 76 - 77

(١) وهما طبيبان انجليزيان كانا في خدمة محمد علي باشا .

السابق : « وهذه الجمعية المنفصلة تضم نحو الستين عضواً ، وقد دفعوا رسم التأسيس ، وتتوي هذه الجمعية أن تعمل على النشر وخاصة النصوص الهيروغليفية ، وتحاول أيضاً إنشاء مكتبة .. »

أما الجمعية المصرية فقد انتهت حياتها إلى الإنحلال في عهد متأخر فضمت مكتبتها إلى المكتبة الخديوية [دار الكتب المصرية الآن] في سنة ١٨٧٣ أو سنة ١٨٧٤ ؛ وذلك اتباعاً لأمر أعضائها الآخرين وهم : « حكيان بك Hekekian Bey » و« مسيو ثوبورن M. Thuborn » و« كاني بك Cany Bey »

٣ - ولم يقنع « برثون » باتصاله بأنداده العلماء الأوروبيين المقيمين في مصر لأنه كان معنياً بالبحث في الكتب العربية ، وترجمتها والكتابة عن موضوعات مختلفة من تاريخ الشرق ؛ وقد أتى مصر وعربيته ضعيفة - دون شك - فعمل على أن يزيد معرفته بهذه اللغة ، وقد كان في مدرسة الطب المصرية التي يدرس فيها هيئات مختلفة تعمل مشتركة لترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية ، أهمها هيئة المترجمين ، وهيئة المحررين والمصححين ؛ وأعضاء الهيئة الأخيرة كلهم من خيرة مشايخ الأزهر المعروف عنهم الدقة في البحث ، والشغف بالقراءة فكان منهم في مدرستي الطب البشري ، والطب البيطري : الشيخ محمد عمر التونسي ، والشيخ ابراهيم الدسوقي ^(٢) ، والشيخ محمد الهراوي ، والشيخ سالم عوض القنياتي ، والشيخ مصطفى كساب .. الخ

وقد اتصل « برثون » بهؤلاء المشايخ ، وافاد منهم ؛ غير أننا نحب أن نعرض لرأي « برثون » في علماء مصر وقتذاك قبل أن نتحدث عن علاقته بهؤلاء المشايخ المحررين .

(١) اتصل الشيخ الدسوقي بالـمـتشرق الانجليزي « M. Lane » وعمل معه على مراجعة القاموس المحيط مع شرحه تاج العروس الذي ترجمه « لين » فيما بعد ، وطبع في لندن سنة ١٨٦٣ تحت اسم : Arabic English Lexicon انظر مقدمة هذا القاموس ، والظر أيضاً علي مبارك باشا ، الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٩ - ١٣ ، المقالين المتعين اللذين كتبها الاستاذ أحمد أمين بك عن العلاقة بين الرجلين في الثقافة عددي : ١٢٦ و ١٢٧

ورأي « برثون » في علماء مصر في ذلك العصر صحيح - رغم قسوته^(١) ومرارته - فقد ظلت مصر طوال العصر المملوكي العثماني تعيش في جهل مطبق ، وغدا علماء مصر لا يعنون إلا بالدراسات الشكلية في الدين واللغة ؛ وعندما بدأ محمد علي نهضته التعليمية بقي شيوخ الأزهر - إلا من اتصل منهم بالمدارس للتأمل أو للتحرير والتصحيح - بعيدين عنها ، بل ساء رأيهم في خريجي المدارس والبعثات ، وكانوا يسخرون من المصريين الذين تعلموا في أوروبا ، ويقولون انهم تعلموا تعليماً سطحياً ، وهم كالطائر الذي يحجل ويتهادى

(١) رأي « برون » فيما يلي قاس موير ، ولكنه لا يبلغ في انقوسة والمرارة ما بلغه وصف الجبرتي لحالة العلم والعلماء في مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، فانه يروي أن أحمد باشا الراي التركي الذي ولي مصر في سنة ١١٦٣ هـ (١٧٤٩ م) كان من المحبين للعلوم الرياضية المشتغلين بها ، فلما أتى الى مصر قرب اليه جماعة من أسيائها وخاصة الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر ، وفي يوم دار بين الرجلين الحديث الآتي : « فقال له الباشا : المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت في غاية الشوق الى المجيء اليها فلما جئتها وجدتني كما قيل : « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » فقال له الشيخ : « هي يا مولانا كما يجمع معدن العلوم والمعارف » ؛ فقال : « أين هي ؟ وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، وذبذتم المقاصد ، فقال له نحن لسنا أعظم علمائها ، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث » الخ ... الخ ، وطال الحديث بين الرجلين الى أن قال الشيخ ، وهذه العلوم تحتاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقعة الطبيعة وحسن الوضع ، والخط والرسم ، والتشكيل ، والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء ، وأخلط مجتمع من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك ... الخ ؛ ثم دله الشيخ على الشيخ حسن الجبرتي والد المؤرخ وكان من المشتغلين بهذه العلوم فاستدعاه الباشا وقربه اليه « ولأزم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول : لو لم أغنم من مصر الا اجتماعي بهذا الأستاذ لكفاني ... » ، ويختم الجبرتي هذه القصة بقوله : « وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوي كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول له : « سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا ، فانه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميراً . » انظر الجبرتي ، عجائب الآثار ، القاهرة سنة ١٣٢٢ ج ١ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

في مشيته دون أن يحسن الطير « (١) » .

ومن العجيب أن نعرف أن دكتور « برئون » هو أول من فكر في طبع القاموس (٢) المحيط للفيروزآبادي في مصر ، وقد تحدث عن مشروعه هذا في خطابه المرسل من القاهرة في ١٤ يناير سنة ١٨٤٥ ، وفيه أيضاً يبدي رأيه في علماء الأزهر فيقول : « أظن ان هذا المشروع مفيد ، لا للأجانب المشتغلين باللغة العربية فحسب ، وإنما للمسلمين أيضاً ، فهذا القاموس سيساعد عدداً كبيراً من العلماء على البحث ، او على الأقل على القراءة ، فهؤلاء العلماء ليسوا علماء الا بالاسم فقط ، فهم في غاية الكسل والجهل ، وهم لا يعرفون أسماء أبسط الكتب ، ومع ذلك فهم يحسبون انهم يعرفون كل شيء ... وليس فيهم من يؤلف ، بل لا نجد أحداً في الشرق يستطيع ان يؤلف كتباً .. فهؤلاء العلماء يدرسون الفقه وعلوم اللغة وأكثرهم علماء يدرسون المنطق ... والتوحيد ... وأذكى العلماء ينظمون الشعر ، وأي شعر ! ... وهم كذلك يحبون الزجل حباً جماً ، فهو عندهم منتهى الفن ؛ ومن لم ينشئ زجلاً لا يكون قد فعل شيئاً .

(١) Enc. Isl. Art : Azhar

(٢) تحدث « برئون » كثيراً في خطاباتهِ عن مشروع طبع القاموس ، وذكر أنه أعد للمراجعة نسخاً كثيرة مخطوطة والنسخة التي طبعت في كلكتا سنة ١٢٣٠ - ١٢٣٢ هـ ، وأنه اتفق مع الشيخ التونسي على مراجعة النسخ وتصحيحها أثناء الطبع ، وأنه طلب من محمد علي باشا أن يأذن له بطبعه في مطبعة بولاق ؛ انظر : Enc. Isl. Art : Gomard, Tunisi في مقدمته لكتاب Voyage au Darfour, p. 10 . غير أنني رجعت لأقدم نسخة من القاموس طبعت في بولاق ، فوجدت أنها نشرت في جزأين باشراف وتصحيح ، الشيخين : محمد قطة المدوي ، وأبو الوفا نصر الهوريني وذلك في سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٦) بأمر محمد سعيد باشا ، انظر هذه الطبعة من القاموس ج ١ ص ٦٨٠ و ج ٢ ص ٦٨٥ ؛ وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى في مصر في : ١٢٨٩ و ١٣١٩ ؛ انظر : مركيس ، معجم المطبوعات العربية والمعرية ، عموداً ، ١٤٧٠ ، ١٤٧١ ؛ هذا وليس في المراجع التي أقدت منها ما يبين الأسباب التي عاقت « برئون » والتونسي عن تنفيذ مشروعها ، وجعلت تنفيذه على يد الشيخ نصر الهوريني ،

وتكون خطأً إذ حسببت ان القاموس يوجد عند العلماء ، فليس هناك في القاهرة ولا في مصر كلها عشرة علماء يملكون هذا القاموس ... ، ويختم « برئون » حديثه بجملة فيها تهكم مرير فيقول : « فلنمط إذن قاموساً للعلماء Donnons donc un dictionnaire aux Ulémas »^(٢) .

وفي خطابه المؤرخ ٩ يناير سنة ١٨٤٠ تحدث « برئون » عن وفاة شيخ الأزهر فقال : « لقد توفي شيخ الاسلام ، وعين مكانه خلفه الشيخ الصائم »^(٢) ، وهو سيد فقير في علمه ، ولكنه في الحقيقة غني في ماله .

عالمان فقط من علماء مصر الذين اتصل بهم « برئون » حازا إعجابه ، وتلمذ عليهما ، وأشار اليهما في خطابه بالإعجاب ، واعترف لهما بالاستاذية ، فقد أعاناه وساعده في بحوثه ، وترجماته العلمية المختلفة ، هذان هما : الشيخ محمد عياد الطنطاوي ، والشيخ محمد عمر التونسي .

(٢) Lettres du Dr. Perron, p: 29, 90 – 92 .

(٢) المرجع السابق ص ١٥ و ٦٤ ؛ وقد ورد اسم الشيخ الجديد في هذا الكتاب بهذا الرسم « le Cheikh El Waim » ولعل « برون » خطأ في كتابة الاسم ، أو لعل أرتين باشا أخطأ في نقله عند طبع الرسائل ، وصحته : الشيخ أحمد عبد الجواد الصائم وقد ولي مشيخة الأزهر بعد الشيخ حسن القويسني (ت ١٢٥٤ - ١٨٣٨) ؛ انظر : سليمان رصد ، كنز الجوهر في تاريخ الأزهر ، القاهرة ١٢٣٠ ، ص ١٤١ - ١٤٣ و Enc. Isl. Art : Azhar .

الشيخ محمد عياد الطنطاوي

هو الشيخ محمد بن سعيد^(١) بن سليمان بن عياد المرحومي الطندائى الشافعي ، ولد سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) في نجريد ، وهي قرية صغيرة قريبة من طنطا ، وتوفي في ٢٣ ربيع الثاني سنة ١٢٧٨ (٢٩ أكتوبر سنة ١٨٦١) في « سانت بطرسبرج » .

كان أبوه تاجراً متنقلاً من سكان محلة مرحوم ، ولما بلغ محمد عياد السادسة من عمره التحق بمكتب في طنطا حيث تلقى علومه الأولى ، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره سافر الى القاهرة فأقام مع عمه ، والتحق بالأزهر فدرس على الشيخ ابراهيم الباجوري (ت ١٢٧٦) ، والشيخ حسن العطار (ت ١٢٥٠) والشيخ إبراهيم السقا (ت ١٢٩٨) ، وغيرهم ؛ ونبغ من زملائه في عهد التلمذة نفر كثيرون أهمهم : رفاعة الطهطاوي زعيم النهضة العلمية في مصر في عهد محمد علي ، والشيخ ابراهيم الدسوقي احد محرري الكتب المترجمة ومصححيها في ذلك العصر ، واستاذ المستشرق الكبير « مستر لين M . Lane » .

(١) ذكر في بعض مؤلفات الطنطاوي أن اسمه « محمد بن سعد » لا سعيد ، انظر كتابيه : حاشية على متن الكافي في علمي العروض والقوافي ، مخطوط ، مكتبة البلدية رقم ٥٠٢٠ ج ، وحاشية على شرح الأزهري ، مخطوطة ، مكتبة البلدية بالاسكندرية ، رقم ٤٩٧٨ ج .

وقد اضطر الشيخ محمد عياد أن يعود إلى طنطا بعد وفاة أبيه ، وأن يقيم بها مدة تقرب من العامين (١٢٤٣ - ١٢٤٥ = ١٨٢٧ - ١٨٢٩) ، وهناك أكمل دراسته ، وبدأ يلقي بعض الدروس ، ثم عاد إلى القاهرة حيث تولى منصباً من مناصب التدريس في الجامع الأزهر فكان من شيوخ الطليعة الذين اتجهوا لتدريس^(١) الأدب والشعر ، ولعله كان متأثراً في ذلك بروح استاذة الشيخ المطار

وقد تتلمذ عليه في تلك الفترة نفر من المستشرقين المقيمين في مصر ، أو الوافدين عليها ، منهم : دكتور « برون » و « فرسنل »^(٢) و « ج . فيل C . Weil » و « دكتور برنر Dr . Pruner » و « ر . فراهن R.Frahn »^(٣) .

وقد أشاد « فراهن » بذكر الشيخ الطنطاوي في روسيا ، فدعته نظارة خارجيتها ليدرس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية Institut des Langues orientales في « سانت بطرسبرج » . وكان الوسيط بين نظارة الخارجية والشيخ لاقناعه بالسفر « الخواجة بُكتي » ترجمان القنصلية الروسية

(١) كانت دروسه في الأدب تعنى بقراءة مقامات الحريري وشرحها ، وديوان الحماسة انظر : آدمز ، الاسلام والتجديد في مصر ص ٢٩ ترجمة عباس محمود ؛ Voyage au Darfour . Trad, Française par Perron, p. 451 . و Enc. Isl. Art : Tantawi . ذكر فولرز في هذه المادة أن الطنطاوي اختير في ذلك الوقت للتدريس في مدرسة انجليزية بالقاهرة ، ولعل هذه هي المدرسة التي كانت تدبرها الارشالية الانجليكانية ، وكانت ذات ثلاث شعب . شعبة تعد الشبان الأقباط ليكونوا قسماً ، وشعبة لتعليم البنين ، وشعبة لتعليم البنات ، وقد أنشئت هذه المدرسة حوالي سنة ١٨٣٥ ، انظر تفصيل الحديث عنها في Bowring Report on Egypt and Candia, pp. 137 - 138 ; Sophia poole, The English womon in Egypt, Lon. 1842 - 44, pp. 4a - 41 .

(٢) هو صديق حميم للدكتور « برون » وهو أول من عرف علماء أوروبا بالشيخ الطنطاوي انظر J. A. 3rd ser. V, 1828 . وقد كان أيضاً صلة التعارف بين الشيخ الدسوقي و « مسترلين »

(٣) كان أبوه أول مدير للمتحف الآسيوي في سانت بطرسبرج .

بالقاهرة^(١) « Agent Consulaire » .

ولم تحدد المراجع التي كتبت عنه السنة التي سافر فيها الى روسيا ، غير انه من المرجح انه وصل الى روسيا في سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م) ، ويؤيدنا في هذا الظن شاهدان :

١ - الأول نسخة من سقط الزند^(٢) كتبها بخط يده ، وذكر في ختامها انه نسخها في سنة ١٢٥٦ هـ وهو في المحجر الصحي بالقسطنطينية .

٢ - الثاني : رسائل كتبها في سنة ١٢٥٧ هـ الى بعض اصدقائه في مصر ،

(١) انظر : أحمد تيمور باشا ؛ الشيخ محمد عباد الطنطاوي ، مقال نشر في مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق ، عدد أيلول سنة ١٩٢٤ ج ٩ ، م ٤ ، ص ٣٩٠ ؛ ركراتشكوفسكي Kratschkovsky ، مقال بنفس العنوان في نفس المراجع ، عدد كانون الأول سنة ١٩٢٤ ، ج ١٢ ، م ٤ ، ص ٤٩٤ . هذا وأسر « بكتي Bokty » من أقدم الأسر السورية المشهورة ، نزح أفراد كثيرون منها الى مصر في القرن الثامن عشر ، وقد أهلتهم معرفتهم باللغات الأوربية الى تولي مراكز القنصلية للدول الأوربية في القاهرة ، انظر : الحوري بولس قرألي ، السوريون في مصر ، ح ١ ، ق ١ ، ص ١٢٠ ، ١٠٨ حيث يذكر أن جد هذه الأسرة « أبو جبران » وفد على مصر ، وتوفي بها سنة ١٧٦٢ ، وهو في سن الثمانين ، وقد نبغ من هذه الأسرة في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر رجلان ، أولهما « بطرس بكتي » وهو المذكور في هذا المقال ، وكان قنصلاً للروسيا في القاهرة ، وقد تولى اقناع الطنطاوي بالسفر الى روسيا ، وثانيهما « يوسف بكتي » وكان قنصلاً للسويد في القاهرة وبايعازه ومساعدته أرسلت أول بعثة علمية مصرية الى ايطاليا في عصر محمد علي في سنة ١٨٠٩ ومنها نبغ عثمان نور الدين باشا فيما بعد ، انظر تفصيلات أكثر في : قسطنطين الباشا ، محاضرة في تاريخ طائفة الروم الكاثوليك في مصر ، لبنان ، ١٩٣٠ ، ص ١٨ ، ٤٣ ، وشيخو ، الآداب العربية في القرن ١٩ ، ج ١ ، ص ٨٢ ، Cattai, Le Règne de Mohamed Aly d'après les Archives Russes. t. I وانظر أيضاً بحثنا عن « الترجمة في عصر محمد علي » .

(٢) كانت لدى الشيخ الطنطاوي مكتبة كبيرة فيها عدد كثير من المخطوطات ومعظمها بخط يده وبعضها من تأليفه ، وقد ضمت هذه الكتب بعد وفاته الى مكتبة الجامعة في روسيا ، ولا تزال محفوظة فيها حتى الآن ، ومن بينها هذه النسخة من سقط الزند تحت رقم ٨٣٧ ، انظر : C. Salemann, and V. Rosen, Indices alphabetici codicum manuscriptorum persicorum turcicorum arabicorum qui in Bibliotheca Imperialis Litterarum Universitatis petropolitanae adservantur . St. peteraburg .

ورسائل اخرى وردت اليه في نفس السنة من مصر لتعرف احواله بعد سفره الى روسيا ، وقد وردت هذه الرسائل في كتاب للطنطاوي اسمه « احسن النخب في معرفة لسان العرب » وهو كتاب في اللغة العامية المصرية ألفه بعد وصوله الى روسيا ، وطبع في « ليبسك » سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨) .

وقد ذكر على الصفحة الاولى من هذا الكتاب ما يلي : « للشيخ محمد عياد الطنطاوي معلم العربي في مدرسة الألسن الشرقية ، والمدرسة الكبيرة الامبراطورية ببتربورج المحمية » .

وفاتحة الكتاب قصيدة من نظمه موضوعها : « تاريخ ولادة الامير الكبير شاه زاده نقوله الكسندوفيج » ، ومطلعها :

بعث الهنا نحو السرور رسوله يقرى عليه سلامه ووصوله
وختمها بقوله مؤرخاً :

ادعو الإله مهنثاً ومؤرخاً للروسيا رغد بطلع نقوله

٣٣٧ ١٢٠٤ ١١١ ١٩١

١٨٤٣

وأطرف هذه الرسائل رسالة كتبها الطنطاوي لزميله وصديقه رفاعه بك الطهطاوي وصف فيها بعض ما شاهده في روسيا بعيد وصوله : « وأنا شغوف بكيفية معيشة الاوروبيين ، وانبساطهم ، وحسن إدارتهم ، وترتيبهم ، وتربيتهم ، خصوصاً ريفهم وبيوته المكددة بالبساتين والأنهار ، الى غير ذلك مما شاهدته قبلي بمدة في باريس » ، إذ « بتربورغ » لا تنقص عن « باريز »^(١) في ذلك ، بل تفضلها في اشياء كاتساع الطرق ، وأما من قبل البرد فلم يضرنى جداً ، إنما ألزمني ربط منديل في العنق ، ولبس فروة اذا خرجت ، وأما

(١) لم يسافر الطنطاوي الى باريس ، ولكن هذه المقارنة تدل دلالة واضحة على أنه قرأ رحلة صديقه رفاعه « تخلص الأبريز في تخلص باريز » .



الشيخ محمد عياد الطنطاوي (١٢٢٥ - ١٢٧٨ هـ . ١٨١٠ - ١٨٦١ م)

في البيت فالمدخن المتينة معدة لإدفاء الأرض ، وطالما أنشدت عند جلوسي
بقرب النار :

النار فأكهة الشتاء فمن يرد
اكل الفواكه في الشتاء فليصطل.

وتذكرت قول الأعرابي في يوم بارد :

فإن كنت يوماً مدخلي في جهنم ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

وفي سنة ١٢٦٥ (١٨٤٨) عين الطنطاوي استاذاً فوق العادة في الجامعة
الروسية ، وفي سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٤) عين استاذاً عادياً ، واختير العالم
الروسي « نفروتسكي » ليكون مساعداً له .

ومن أنبغ تلاميذه هناك في الفترة بين ١٨٤٠ و ١٨٤٢ المستشرق الفنلندي
« ج . ا . ا . (١) فالين G . A . Wallin » الذي غدا فيما بعد استاذاً في جامعة
Helsingfors وظل يرأسل استاذة حتى مات .

تاريخ وفاته :

لم يُعن احد بتتبع أخبار الطنطاوي بعد ان طال مدة إقامته في روسيا
ولهذا اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاته ، فالعالم الفرنسي « هيوار
Huart » (٢) يذكر انه توفي سنة ١٨٧١ ويوافقه في ذلك الأب لويس (٣) شيخو

(١) ارتحل هذا العالم في حياته الى بلاد العرب ومصر وسوريا ، ومكث بها سنوات يحمل
اسم « عبد الولي » وقد تبودلت الرسائل بينه وبين استاذ الطنطاوي مدة ما ، وطبع « فالن »
بعض هذه الرسائل مترجماً الى اللغة الأسوجية ، ويوجد البعض الآخر في مكتبة الجامعة في
Helsingfors عاصمة فنلندا .

(٢) Huart, Histoire de la Litterature Arabe, Paris, 1903 P. 420. (٢)

(٣) شيخو ، الآداب العربية في القرن التاسع عشر ؛ بيروت ١٩٠٨ - ١٩١٠ ،

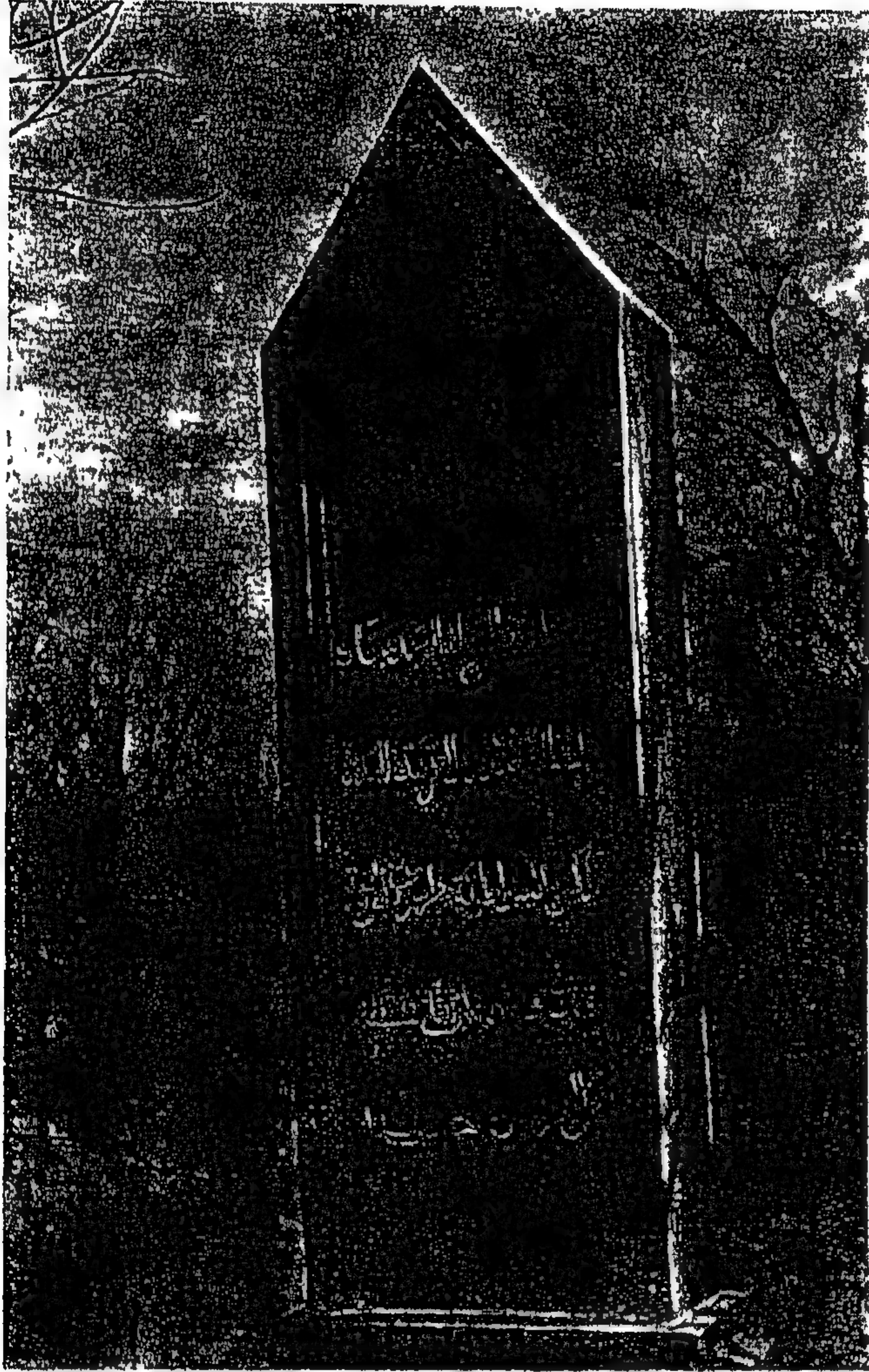
ج ٢ ، ص ٥٩ .

و« بروكلمان » ؛ وذكر أمين فكري^(١) باشا في كتابه عن رحلته الى مؤتمر استكهلم الذي سماه : « إرشاد الألبا الى محاسن اوروبا » انه توفي سنة ١٨٦٢ فقد روى انه تقابل في المؤتمر مع المستشرق الروسي يوسف كوتوال (غوتوالد) وكان قد بلغ الثمانين من عمره ، وذكر انه ارتبط بوالده عبد الله فكري باشا برابطة الود والصداقة فكثر اجتماعهما أحدهما بالآخر ، وقال ان والده سأل الاستاذ « غوتوالد » مرة « عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي من اعظم علماء الازهر المتبحرين في علوم الأدب صاحب التأليف العديدة ، والشعر الرقيق ، وكان توجه الى بلاد الروسية ، وأقام بها ، هل هو حي او ميت ، وهل أعقب ذرية أو لم يعقب ، فأخبره الشيخ « كوتوال » كما قيده وقتذاك في ورقة محفوظة عندي ان الشيخ محمداً كان بالمدرسة الكبرى ، وبديوان الخارجية بسان بطرسبرج معظمها غاية التعظيم ، محترماً الى النهاية ، مرتباً له معاش عظيم ، وكان له ولد وزوجة ، وانه مات في سنة ١٨٦٢ على ما يتذكر ، وماتت بعده زوجته ، وكانت من مصر ، علوية ، وبعدها توفي والده وكان اسمه احمد على ما يظن ، وأن الشيخ محمداً الموما إليه دفن في « بطرسبرج » حيث قبور المسلمين بها ، وقبره معلوم هناك ، وكذلك قبر زوجته وابنه ... »

والتاريخ الذي أورده أمين فكري باشا اقرب الى الصحة فإن المستشرق الروسي المعاصر « إغناطيوس كراتشوفسكي »^(٢) أثبت بعد تحقيق ان الشيخ الطنطاوي توفي في ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٦١ ، كما ذكر ان قبره لا زال موجوداً في المنطقة التتارية في « لينينجراد » وعليه كتابة روسية وعربية .

(١) إرشاد الألبا ، مطبعة المقتطف سنة ١٨٩٢ ، ص ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٢) أنظر : كراتشوفسكي ، Ens. Isl. Art : Tantawi ومقاله السابق الذكر في مجلة المجمع العلمي العربي ص ٥٦٣ .



رخامة على ضريح الشيخ محمد عياد الطنطاوي
في مقبرة فولكوفو الاسلامية في لينينغراد

الشيخ محمد عمر التونسي :

هو محمد بن عمر بن سليمان التونسي اصلاً ومولداً ، ولد بتونس في الساعة الثالثة من يوم الجمعة منتصف ذي القعدة سنة ١٢٠٤ هـ (٢٧ يوليو سنة ١٧٨٩) وأمه مصرية ، حملت به في مصر أيام مجاورة أبيه بالأزهر لطلب العلم .

أسرته :

كان جده سليمان من عظماء أهل تونس وأثريائها ، وقد أعقب ثلاثة بنين أوسطهم عمر والد صاحب الترجمة ، وكان سليمان من المشتغلين بالعلم حسن الخط ، ينسخ الكتاب فيبيعه بضعف ما يبيع به غيره ، وكان الى ذلك عارفاً بفن صباغة الثياب ، فكان لهذا « أرفه إخوته معاشاً ، وأحسنهم ارتياشاً » .

سافر الى الحجاز للزيارة والتجارة ففرقت سفينته في البحر الأبيض المتوسط ونجا هو مع نفر قليل فبقي في رودس مدة ينفق من « هميان » كان في وسطه به بعض الذهب ، ثم ركب البحر ثانية الى الاسكندرية ، ومضى الى الحجاز فأدى الفريضة ، وخرج عائداً الى جدة ، فاجتمع هناك بأناس من سنار فنشأت بينه وبينهم محبة وصداقة ، وعاد معهم الى بلادهم فقدموه الى ملكهم وأخبروه أنه رجل من أهل العلم غريب الديار انكسرت سفينته وضاع ماله ، فرحب به ، وأكرمه ، وانزله داراً خاصة ، وأجرى عليه رزقاً .

واستقر سليمان في سنار ، وخلف أولاده الثلاثة في تونس ، وكان أوسطهم - وهو عمر والد صاحب الترجمة - في السادسة من عمره ، فكفلهم خاله السيد أحمد ابن العلامة الرحالة السيد سليمان الأزهري .

تلقى عمر بعض العلوم على خاله ، وعلى غيره من العلماء ، وحفظ القرآن ، ولما بلغ مبلغ الرجال أراد الخروج للحج فخرج بصحبة خاله ، وركبا البحر من تونس الى الاسكندرية ، ثم ذهبا الى القاهرة ، ومنها الى القصير ، يقول الشيخ

محمد عمر التونسي في ترجمته لنفسه : «وبينا هما في القافلة إذ ناداهما مناد:»أيها المغاربة .. « ، فقال أبي : « نعم - من أنت ؟ » فقال : « أنا نسيب أحد ابن سليمان » ، فعرفه خال أبي ؛ وقال لأبي : « يا عمر : سلّم على أبيك » فاكب والذي يسلم على أبيه ويقبل يده ، ثم سلم جدي على نسيبه ،^(١) .
وواصل عمر السير مع خاله لاداء فريضة الحج ، وذهب سليمان الى القاهرة ، وتواعدا على المقابلة هناك ، فلما عاد عمر وجد اياه قد باع تجارته ورجع الى سنار . وكان خال عمر قد توفي في مكة ، فأقام في القاهرة يطلب العلم في الأزهر ، ثم ارتحل بعد قليل الى سنار باحثا عن ابيه فوجده يحيا هناك حياة هنيئة ، وحوله أولاده من زوجة سنارية .

وطلب عمر من أبيه العودة معه الى تونس فرفض ، فعاد هو يدفعه شوقه لإتمام دراسته ، وزوده أبوه بثلاثة جمال - على أحدها حمل صمغ وأربع جوار ، وعبدان ؛ وسار عمر مع القافلة التي ضلت الطريق ، وأصاب اقرادها العطش ، فمات الرقيق ، ونفقت الجمال ، وعاد عمر فقيرا كما ذهب ، ولكن حدث في الطريق أن أصيب دليل القافلة وهاديا بصداع منعه النوم ، فكتب له عمر ورقة وضعها على محل الألم فبرىء الرجل لوقته ، فاعتقد في عمر الصلاح ، ووهبه عدل صمغ ، فلما وصل الى مصر باع الصمغ « بخمسة وسبعين فندقليا ^(٢) » .
واشتغل عمر ثانية بطلب العلم في الأزهر ، وتزوج من والدته الشيخ محمد صاحب الترجمة ثم ارتحل الى تونس ومعه زوجته ، وهناك ولد له محمد بعد خمسة أشهر .

وفي سنة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢ - ١٧٩٣ م) عاد عمر إلى مصر لاتمام دراسته فحضر دروس الشيخ عرفة الدسوقي ، والشيخ محمد الامير الكبير ، وبعد قليل عُيّن نقيباً لرواق المغاربة .

(١) من ترجمة محمد عمر التونسي لنفسه ، ذكرها في كتابه « رحلة دارفور » ص ٣١ - ٣٢ ونقلها عنه علي مبارك باشا ، الخطط التوفيقية ، ج ١٧ ص ٣٦ .
(٢) التونسي ، تشييد الأذهان ، باريس ١٨٥٠ ، ص ٣٤

وفي سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٧ م) وصله خطاب من أخيه لأبيه بسنار ينعي اليه أباهما ، ويذكر أنه ترك « جملة كتب سرقت منا ، وبقينا بحالة تسر العدو ، وتسيء الصديق ، فعجل بالقدوم إلينا لتأخذنا معك نعيش بما تعيش به . . » (١) .

وأسرع الشيخ بالسفر إلى سناز ، وترك ابنه محمداً - وهو في السابعة من عمره - وطفلاً آخر في الرابعة من عمره ، يقول الشيخ محمد في ترجمته لنفسه : « وترك لنا نفقة ستة أشهر فمكثنا سنة باعت فيها والدتي أشياء كثيرة من نحاس وحلي » ، ثم جاء عمه الصغير ، واسمه « الطاهر » حاجاً وتاجراً ، فضمها إليه ، وتولى الإشراف عليها ، غير أنه لم يلبث أن غادر مصر إلى بلاد الحجاز لأن ابنه الصغير توفي في مصر فلم يطق البقاء بها من بعده .

صاحب الترجمة

وظل محمد يطلب العلم في الأزهر حتى ضاقت ذات يده ، ثم سمع بقيام قافلة إلى دارفور - وكان قد سمع بانتقال والده وعمه إليها - فصحبها ، ورحلوا من القسطنطينية في النيل حتى وصلوا منفوط ثم بنى عدى ، وهناك تأهبت القافلة وتزودت ، ومن بنى عدى سارت براً إلى الواحات الخارجة ، ثم اتجهت جنوباً حتى وصلت إلى دارفور ، وفيها التقى محمد بعمه وأبيه في بلدة اسمها « حلة جولتو » يقول الشيخ محمد : « وبعد أن أقمت عند والدي ثلاثة أيام جهزني أنا وعمي إلى الأعتاب السلطانية بهدايا من عنده إلى حضرة السلطان (٢) ووزيره . الاعظم فركبنا من « أبي الجدول » إلى « تندلي » وهو مقر السلطان ، في أول شعبان سنة ١٢١٨ ، ويسمى ذلك البلد بلغتهم « الفاشر » ، وكل محل سكنه السلطان

(١) التونسي ، تشعيد الأذهان ، ص ٣٦ ؛ علي مبارك ، المرجع السابق ج ١٧ ص ٣٦ ، وأنظر أيضاً Enc. Isl. Art : Tunisi

(٢) كان عمره قد حطى ، وقال مركزاً ممتازاً عند سلطان دارفور وقتذاك عبد الرحمن بن أحمد (ت ١٢١٤ هـ - ١٧٩٩ م) ، وشرح بأمره كتابين في الفقه والشريعة ، انظر : رحلة دارفور ص ١٠٧ و ٤٢٤ ؛ Enc. Isl. Art : Tunisi

يسمى عندهم فاشراً ، فسافرنا يومين سافراً غير شطيط ، ودخلنا ضحوة الثالث فوجدنا بلداً يموج بالساكين ، ويرتج بالقاطن ، ما بين راكب وماش ، وجالس وغاش ، وطبول ترعد ، وخيول تركض ، فحظينا هناك بنيل المأمول ، وحلت هديتنا محل القبول ، ودعاني الوزير الشيخ محمد كرا ، وكساني كشميراً أخضر وجبة خضرا ، وقفطاناً من القطن الهندي ، وأمر لي بجاريتين وعبد ، وكتب لأبي كتاباً صورته : « من حضرة من أكرمه الكريم ، ولا يفارقه الخير والنعم ، الوزير الأعظم المتوكل على من يسمع ويرى ، الأب الشيخ محمد كرا ، الى حضرة الأستاذ الأعظم ، والملاذ الأفخم ، علامة الزمان ، ونخبة سلالة سيد ولد عدنان ، السيد الشريف عمر التونسي دام مجده آمين . أما بعد فإنه قد حضر لدينا نجلكم المكرم ، صحبة أخيك المحترم المعظم ، بما أهديتموه لنا حسبما هو مشروح في جوابكم ، ففرحنا غاية الفرح بأمرين : الأول ، اجتماع شملك بقرة عينك ، والثاني أننا نؤمل إقامتك في بلدنا ، وهذا هو المقصود الأعظم لتحصل لنا أكبر البركة بكم أهل البيت ، وقد أتخفناه بما صحبه ، ونرجو أن يكون مقبولا لديكم ، ولولا ما نحن فيه من الأشغال لكان الأمر أبلغ من ذلك ، فالمعذرة اليك ، والأمل ألا تنساني من صالح دعواتك ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. » (١)

وعاد محمد إلى والده ، فأقاما معاً شهر رمضان ، ثم سافر إلى الفاشر ، وودع الوزير محمداً كرا ، واستأذنه في السفر الى تونس على أن يتترك ابنه محمداً ليدير أملاكه هناك ، ويجمع خراجها .

وقد أقام الشيخ محمد مدة في السودان ، نعم فيها ، وطاف بأرجاء البلاد ونواحيها ، ووصف ما رأى من هذه البلاد ، وعادات أهلها في كتابه : «رحلة دارفور» أو كما سماه : «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان» ،

(١) تشحيذ الأذهان ، ص ٦٠ - ٦١ ، طى مبارك ، المرجع السابق ، ج ١٧

ص ٣٤ - ٣٥ .

ثم عاد إلى مصر ، وقد فقدت أمواله ونحوها أحواله ، (١) .

وأقبل ثانية على طلب العلم ، ودخل في خدمة مجدد مصر محمد علي باشا ، وكانت أول خدمته كما يقول : « بوظيفة واعظ في الآلاي (٢) الثامن من المشاة ، وسافرت معه (أي مع ابراهيم باشا) إلى المورة ... ثم استخدمت في مدرسة أبي زعبل لتصحيح الكتب الطبية ، وخصصت منها بتصحيح كتب الأجزاء ، ومكثت على ذلك حتى اجتمعت بأبرع أهل زمانه حذاقة وفهماً ، وأذكى أهل عصره صناعة وعلماً ، معلم الكيمياء الحكيم « برثون » الفرنسي ، وقد قرأ عليّ كتابه كلية ودمنة باللغة العربية ؛ فذكرت له بعض مسا عانيته في أسفاري من العجائب ، فحملني على أن أزين وجه الدفتر بإيضاح ما شاهدته ، فامتثلت أمره لما له عليّ من اليد البيضاء ، ورأيت أن ذلك أجمل بي أيضاً ، لقول صاحب المقصورة .

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى (٣)

وفي السنوات الأخيرة من حياته اشتغل التونسي بالتدريس ، فكان يلقي درساً في الحديث بمسجد السيدة زينب في يوم الجمعة من كل اسبوع ، وبقي على ذلك إلى أن توفي سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م) .

(١) على مبارك ، المراجع السابق ج ١٧ ص ٣٦ .

(٢) باشرت السلطات المصرية إنشاء هذا الآلاي في أغسطس سنة ١٨٢٤ ، وعهدت بذلك إلى المهندس الايطالي شيانطي قاسم أغا ، ولما حضر إلى مصر الجنرال « بواييه » الفرنسي تولى تدريبه ، وفي اوائل سنة ١٨٢٦ ألحق هذا الآلاي بجيش المورة ، وفي أواخر عام ١٨٣١ أرسل إلى الشام ... الخ أنظر الشيء الكثير عن تاريخ هذا الآلاي في : المهدات لتاريخ الجيش المصري في عهد محمد علي باشا ، صفحة من تاريخ الآلاي المشاة الثامن ، للاستاذين الدكتور أسد رستم والبكباشي عبد الرحمن زكي ، مطبوعات المتحف الحربي ، بولاق ١٣٦٢ - ١٩٤٣ .

(٣) التونسي ، تشعذ الأذهان ، ص ٥ - ٦ ؛ على مبارك ، المراجع السابق ج ١٧ ص ٣٧

هَذَا كِتَابُ تَشْحِيزِ الْأُذُنِ
بِسِيرَةِ بِلَادِ الْعَرَبِ وَالسُّورِ
لِمُؤَلِّفِهِ الْإِخِ الصَّدِيقِ
مُحَمَّدِ بْنِ السَّيِّدِ
عَمْرِ التُّونِسِيِّ
ابْنِ سُلَيْمَانَ
عَفَا
عَنْهُ
٧

الصفحة الأولى من كتاب « تشحيز الأذنان »
وهي بخط الدكتور « برون »

هذا موجز عن حياة الشيخين اللذين تتلمذ عليهما « برثون » واستعان بهما في أعماله وبحوثه العلمية ، فهو إذا ذكر أولهما في أي من خطاباته قال دائماً : « شيخنا محمد عياد ^(١) Notre Schaykh Mohammed Ayyad » ، بل أنه يصفه بالجرأة والشجاعة إذا ذكره بعد سفره إلى روسيا ؛ فيقول : « شيخنا الشجاع عياد شيعي وشيخ فرسnel القديم : Notre brave Cheikh Aiyad, l'ancien Cheikh de M. Fresnel et de moi » ^(٢)

وقد كتب مرة لصديقه « مول » يعده بإرسال مقال له عن التعليم في مصر ، ثم يعتذر إليه عن تأخير ، ولا ينتظر حتى يعود إلى القاهرة ، فهو محتاج إلى شيخه محمد عياد ليمنه بالمعلومات عن نظام التعليم في المساجد ^(٣) ، وعن اتجاه هذا التعليم ، والفوائد التي يظن أنها سوف تجني منه في المستقبل .

وفي مرة أخرى ذكر « برثون » لصديقه « مول » أنه مرسل إليه بحثاً صغيراً مكتوباً بالعربية ، ومترجماً إلى الفرنسية عن أسماء الأعلام العربية - أصولها واشتقاقاتها - ، ثم ذكر له أن هذا البحث كان قد كتبه له أستاذه الشيخ محمد عياد ، إجابة لطلبه ^(٤)

وهو إذا ذكر التونسي ذكره بالتجلة والاحترام ، فهو يقول دائماً : « شيعي القديم التونسي ^(٥) Mon ancien Cheikh El. Tounsy » ، وقد بادله التونسي تقديراً بتقدير ، واحتراماً باحترام ، فهو عنده « أبرع أهل زمانه

(١ و ٢ و ٣) Lettres du Dr, Perron. PP. 11. 47. 64. 113 . وأنظر أيضاً : Perron, Lettre sur les éco les, etc. J. a. 1843. P, 9 « وأنا في الحقيقة لا أعرف بين الشيوخ في مصر من يقرأ التاريخ أوله المام به غير الشيخ التونسي مؤلف رحلة - السودان - والشيخ التميمي المغربي المعلم الخاص لأولاد ابراهيم باشا ، وكان هذا أيضاً عالم ممتاز ومتقف جداً هو الشيخ محمد عياد الذي ارتحل الى « سانت بطرسبرج » منذ ثلاث سنوات حيث استدعاه الأمبراطور ، وحيث ينظر إليه نظرة تقدير واعتبار » .

(٤) Lettres du Dr. Perron. pp. 11, 47, 64, 113.

(٥) Op. Cit. pp. 89, 107.

حداقة وفهماً ، وأذكى أهل عصره صناعة وعلماً ، معلم الكيمياء الحكيم بيرون الفرنساوي ^(١) ، وهو « اللوذعي الأديب ، والماهر الطبيب اللبيب ، أحذق أقرانه ، وأنبه إخوانه ، المعلم بيرون الفرنساوي ، الحكيم النبيه الكيماوي ، ذو الذهن الوقاد ، والتعليم الذي كل تلميذ منه استفاد ^(٢) » ، وهو أيضاً : « الماهر في جميع الفنون ، ناظر مدرسة الطب البشري الشهير بيرون ^(٣) » .

* * *

وبعد فهذا ثالث عجيب من الرجال ، كلهم عاش في غير وطنه ، وكلهم وقف حياته وجهوده للعلم والتعليم ، فالدكتور « برثون » فرنسي الأصل ، طبيب ، رحل إلى مصر وخدم نهضتها الحديثة في عصر محمد علي أستاذاً وناظراً لمدرسة الطب ، وشغف حباً بلغة غير لغته ، فتعلمها وحذقها ، وترجم عنها إليها ؛ والطنطاوي مصري ، عالم ديني ، تخرج في الأزهر ، ورحل إلى « روسيا » ، وعاش وتوفي بها ، وتلمذ عليه نفر كثير من المستشرقين في مصر وفي روسيا ، تعلم الفرنسية وأتقنها وشغل منصب الأستاذية في جامعة « بطرسبرج » ، وله مؤلفات كثيرة تنتظر من يعنى بها .

والتونسي من تونس — أصلاً ومولداً — وإن كانت أمه مصرية ، أسرته عشقت الرحلة فعاش هو وأبوه وجده في مصر وبلاد العرب والسودان أكثر مما عاشوا في وطنهم الأصلي تونس ؛ وقد شارك التونسي مشاركة فعلية قيمة في حركة الترجمة والنشر التي ازدهرت في عصر محمد علي باشا .

جمعت بين هذا الثالث رابطة العلم القوية ، رغم ما كان بين أفرادهم من

(١) أنظر رحلة دارفور للتونسي ، ص ٥ - ٦ ؛ وعلي مبارك ، الخطط التوفيقية ج ١٧ ، ص ٣٧ .

(٢ و ٣) أنظر : برون ، الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية ، ٣ أجزاء كبار ، بولاق سنة ١٢٥٨ - ١٢٦٠ ، مقدمتا الجزء الأول والثاني .

اختلاف في الجنس والموطن واللغة والدين والثقافة ، فأفاد « برثون » من
شيخيه علم المشرق ولفته ، وأفاد الطنطاوي من تلميذه لغة الفرنج ، كما أفاد
التونسي منه طريقة الغربيين ومنهجهم في البحث العلمي .

* * *

جهود هذا الثالوث في التأليف والترجمة والنشر :

١ - دكتور برثون :

1 - Les Femmes Arabes

وقد كتب «مول» تقديراً وتقريضاً لهذا الكتاب ، انظر J. Mohl, Vingtième
Sept ans d'Histoire d'études orientales . Paris , 1880 , t. II , p. 283.

٢ - ترجمة مختصر سيدي خليل بن إسحاق عن الفقه المالكي في ثلاثة
مجلدات نشره بين سنتي ١٨٤٦ و ١٨٥١ ، (ذكر شيخو ، ج ١ ص ١١٢ أنه
انتهى من طبعه سنة ١٨٥٤ ، وعلق عليه تعليقات واسعة) .

3 — Voyage au Darfour par le Cheikh Mohammed ibn Omar
el Tounsy, Reviseur en chef à l'École de Medecine du Caire traduit
de l'Arabe par Dr. Perron, Directeur de l'Ecole de Médecine du
Caire, Paris, 1855.

وعدد صفحات الكتاب ٤٩٢ من القطع الكبير ، وبه مصور جغرافي ،
وكتب مقدمته Jomard (ص ١ -- ٧١) ، وقد طبعت هذه المقدمة على
حدة تحت عنوان :

Observations sur le voyage au Darfour suivis d'un vocabulaire
de la langue des habitants et de Remarques sur le Nil-Blanc
supérieur, Paris, 1855.

4 — Voyage au Ouaday par Cheikh Mohammed Ebn Omar
al Tounsy, traduit de l'Arabe par Dr. Perron, Paris, 1851.

وهو كتاب كبير في ٧٥٦ صفحة ، ومقدمته في ٧٥ صفحة ، وبه أيضاً
مصور جغرافي وتسع لوحات مصورة ، وكتب مقدمته أيضاً مسيو جومار
M. Jomard ؛ والأخبار الواردة في هذه الرحلة صحيحة في جملتها ؛ وإن
كان يعوزها الترتيب والتصنيف العلمي ، وقد اقتنع « برثون » بصحتها من
جماعة من أهل دارفور وواداي كانوا يسكنون في القاهرة ؛ غير أن « بارت
Barth » أخذ عليه أنه لم يورد في كتابه شيئاً مضبوطاً عن الأحوال الجغرافية
والطبوغرافية والاحصائية ، والأرصاد الجوية لهذه البلاد ؛ أنظر :

Barth, Reisen und Entdeckungen in Nord und Zentralafrika,
Berlin, 1859, 3, P. 525.

وفي : Nachtigal, Petermanns Geogr. Mitteil, Vol 21, 1875.
Sahara und Sudan, vol. 3. P. 8.

٥ - ترجمة لقصة سيف التيجان سنة ١٨٦٢ .

٦ - ترجمة لكتاب الطب النبوي ؟ (أنظر شيخو ، الآداب العربية في
القرن ١٩ ، ج ١ ص ١١١)

٧ - ترجمة لكتاب كامل الصناعتين المعروف بالناصرى في البيطرة
والزرطقة ^(١) ، لأبي بكر بن بدر وكان بيطاراً في اصطبل الملك الناصر محمد
بن قلاوون وهو في ٣ مجلدات ، ونشر تحت هذا العنوان :

Abou Bekr ibn Bedr , Le Nâceri , La perfection de deux
arts, ou, Traité complet d'hippologie et d'hippiatrie arabes.
Traduit de l'arabe par Dr. Perron. 3 vols. Paris 1852 - 1860.

٨ - ترجمة كتاب ميزان الحضرة للشعراني في الفقه .

(١) قال صاحب كشف الظنون عند كلامه على هذا الكتاب : « البيطرة هي النظر في
أحوال الخيل من جهة الصحة والمرض ، والزرطقة هي عبارة عن تربية الخيل في تعليمها ولوازمها »
هذا وتوجد نسختان مخطوطتان من هذا الكتاب في الخزانة التيمورية بالقاهرة ؛ أنظر : تيمور
باشا ، التصوير عند العرب ، نشره وعلق عليه الدكتور زكي محمد حسن ، القاهرة ١٩٤٢ ص ٣٦ .

Voyage
au
Dârfour
ou

L'acquisition de l'esprit,
par le voyage au Soudan et parmi
les arabes du centre de l'Afrique,

par
le cheykh Mohammed
ibn-Omar el-tourdy,
Autographe et publié
- par
M. Serron

Paris

chez Benjamin Duprat
libraire de l'Institut de France, de la Bibliothèque
nationale, de la Société asiatique de Paris, etc
Rue du cloître Saint Benoit, N° 7

1850

Imprimerie lithographique de Kaepplin,
17, quai Voltaire

العنوان الفرنسي لكتاب « رحلة دارفور » ، وهو أيضاً بخط الدكتور
« برون » ؛ كما هو واضح في السطور ١١ - ١٣

٩ - مقالات مختلفة ، بالفرنسية ، عن بعض مشاهير العرب ، كطرفة^(١) ، والمتلس ، وعنترة ، وأحيحة بن الجلاح ... الخ . الخ ، وقد اعتمد عند كتابة هذه المقالات على كتاب الأغاني .

١٠ - ترجمة كتاب الأنساب ، وهو جزء من كتاب العقد الفريد ، لابن عبد ربه .

١١ - كتاب الأزهار البديعة في علم الطبيعة ، وهو مجموعة محاضراته التي ألقاها على طلابه بمدرسة الطب المصرية ، وقد ترجمه إلى العربية بمساعدة يوحنا عنجوري ، أحد مترجمي مدرسة الطب ، وراجعته الشيخ الهراوي ، طبع في بولاق ١٢٥٤ . ثم طبع طبعة ثانية في سنة ١٢٦٩ .

١٢ - الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية ، وهي أيضاً مجموعة محاضراته في الكيمياء التي ألقاها على طلابه بمدرسة الطب المصرية ، وتقع في ثلاثة مجلدات. كبيرة : الأولى في ٦٧٦ صفحة ، والثاني في ٤٩٤ صفحة ، والثالث في ٥٥٩ صفحة ، وقد ترجمه بنفسه ، « وكان إذ ذاك ضرب بعطن في اللغة العربية ، وصار يفهم النكات الأدبية ، فبحث في القواميس على الألفاظ الطبية والكيماوية ... الخ » (انظر مقدمة التونسي للجزء الأول من هذا الكتاب) ، وقد قام على تصحيحه ، ومراجعته الشيخان محمد الهراوي ، ومحمد عمر التونسي ، واثنان من تلاميذ « برن » ، هما الدكتور حسين غانم الرشيد ، والشيخ درويش زيدان ، بولاق سنة ١٢٥٨ - ١٢٦٠ .

* * *

٢ - الشيخ محمد عياد الطنطاوي :

ترك الطنطاوي عند وفاته مكتبة غنية ، فيها ما لا يقل عن ١٥٠

(١) انظر مثلاً : Perron, Lettre sur les poètes Tarafah et Al-mouta-lammis. Journal Asiatique, 3me serie, t. XI Jan. 1841. pp. 46-69, & mars. 1841, pp. 215-247 .

مخطوطة بعضها من تأليفه ، والبعض الآخر من نسخه ، وقد آلت هذه الكتب إلى مكتبة الجامعة في « بيتروغراد » ، وفيما يلي بيان لأهم مؤلفاته :

١ - تاريخ حياته بقلمه ، ولم ينجز منه إلا قطعة صغيرة ، نشر أصلها العربي ومعه ترجمة ألمانية J. G. Kosegarten في مجلة Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes , 1850 , 43 , 67 , 197 - 200 .

وقد كتب المستشرق « غوتوالد » تعليقات على هذا الكتاب في مجلة : Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, IV , 243 - 248.

٢ - أحسن النخب في معرفة لسان العرب ، وهو كتاب في اللغة العامية المصرية ، ألفه وهو في « روسيا » ، وطبع في « ليبسك » سنة ١٢٦٤ (١٨٤٨) ، ويشتمل هذا الكتاب على ألفاظ وجمل وأمثال ، ورسائل وقصص ، وأغانٍ مصرية عامية ، ومعه ترجمتها إلى الفرنسية ، (وقد ذكرنا في مثن المقال بعض محتويات الكتاب ، وخاصة شعر الفاتحة ، ورسالة الطنطاوي لصديقه رفاعة الطهطاوي) ، ومن أهم ما ورد في هذا الكتاب منظومة أمين أفندي الجندي التي نظمها عند مسير الجيش المصري لفتح الشام ، يقول تيمور باشا في مقاله السابق الذكر : « وكنا نسمع في متناقل الاخبار أن هذا الجيش كان يتغنى بها ، ولم نكن نعلم منها غير قوله في مطلعها :

هيا بنا هيا بنا للحرب نلقي ضدنا »^(١)

رقم الكتاب في
مكتبة بتروغراد

٣ - حاشية على شرح الشيخ خالد الأزهرى^(٢) على مثنه ٨٢٧

(١) أنظر هذه المنظومة كاملة في : داود بركات ، البطل الفاتح ابراهيم باشا ، ص ٢٢٦ ، القاهرة ١٩٣٤ .

(٢) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب في مكتبة البلدية بأسكندرية ، ضمن مجموعة رقم ٤٩٧٨ ج وقد كتب على الصفحة الأولى منها أنها « حاشية على شرح الأزهرية للشيخ خالد مع التعرض لحاشيته المشحونة بغرور الفرائد لشيخنا خاتمة المحققين والنظار ، مولانا الشيخ حسن العطار » وقد ذكر في نهايتها أنها كتبت بخط « مصطفى الفقي » في أول رجب سنة ١٢٤٧ .

المسمى بالازهرية في علم النحو ، كتبها بخط يده
سنة ١٢٥٢ هـ .

٤ - حاشية على متن الزنجاني في الصرف المشهور بمستن
العزيزي كتبها يده سنة ١٢٥٥ هـ . ٨٣٣

٥ - حاشية على كتاب الكافي في علمي العروض والقوافي^(١)
بخط يده سنة ٢٥٥ هـ . ٧٨٦

٦ - منتهى الآداب في الجبر والميراث والحساب ، بخط
يده سنة ١٢٤٥ هـ . ٨٢٠

٧ - الحكايات المصرية العامية ، بخط يده ؟ ٧٤٥

٨ - مسودات لتاريخ العرب ، ومعها ترجمة الباب الأول من كتاب
« كلستان »^(٢) ، لسعدي الشاعر الفارسي وهو بخط يده .

٩ - منظومة في البيان نظم فيها متن السمرقندية .

١٠ - حاشية على شرح برهان الدين أبي المعالي إبراهيم السقا ، (وهو
أحد شيوخه) على منظومة السيد محمد بليحة ، وعنوان الشرح
التحفة السنية في العقائد السنية .

١١ - حاشية على رسالة شيخه إبراهيم البيجوري في العقائد .

١٢ - شرح على منظومة الشيخ الساموني ، التزم السجع في جميع جملة .

١٣ - رسالة عن الاعياد المصرية ، (مخطوط ، مكتبة بتروغراد رقم ٨٣٨)

(١) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب في مكتبة البلدية رقم ٥٠٢٠ ح ، كتبها محمد
ابن سليمان في سلخ شعبان ١٢٦٥ هـ .

(٢) عندي في مكتبي ترجمة عربية أخرى لهذا الكتاب ترجمها في نفس العصر جبرائيل
يوسف المخلع كاتب الديوان الخديوي بالاسكندرية ، وطبع في بولاق سنة ١٢٦٣ هـ .

١٤- كتاب عن تاريخ روسيا باسم : تحفة الأذكياء في أخبار بلاد روسيا
كتبه بخط يده سنة ١٢٦٦ (١٨٥٠) ، (انظر للتعريف
بالكتابين الآخرين :

Comptes-rendus de l'Académie des Sciences de Russie, 1926,
pp. 23 — 26; 1924. pp. 102 sqq. ; 1927, pp. 181 sqq.)

* * *

٣- الشيخ محمد عمر التونسي :

١- رحلة دارفور المسماة «تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان»
كتبها تنفيذاً لإشارة دكتور « برون » الذي عني بطبع النص العربي في باريس
سنة ١٨٥٠ ، (انظر الترجمة الفرنسية للرحلة في مؤلفات دكتور برون) .

٢- رحلة واداي ، كتبها أيضاً تنفيذاً لرغبة دكتور « برون » ولم ينشر
النص العربي لهذه الرحلة حتى اليوم ؛ بل ولا يعلم مصيره ؛ فقد كان في حوزة
دكتور برون ، وإنما نشرت الترجمة الفرنسية في باريس سنة ١٨٥١ ، (انظر
مؤلفات برون) .

٣- الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية ، وهو معجم كبير للألفاظ
والمصطلحات الطبية والعلمية المختلفة ، جمعها من الكتب والمعاجم العربية
والأجنبية ، ذكره جورج زيدان في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية ،
ج ٤ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٧) ، وقال عنه :
« هو معجم للمصطلحات الطبية والأطباء ، وقد أسند لكل مؤلف ما التقطه
منه ، فجاء كتاباً في نحو ٦٠٠ صفحة متوسط الحجم ، وهو من الذخائر
النفيسة ، وقد حمل الى باريس ، وفي المكتبة الخديوية ^(١) نسخة منقولة

(١) توجد من هذا المعجم أربع نسخ في دار الكتب المصرية أرقامها : ٧٥٧١ و ١٧٤٠
و ١٦٤٤ و ١٦٥٣ طب ؛ انظر حديثاً مفصلاً عنه في بحثنا عن : تاريخ الترجمة في عصر محمد علي ؛
J. H. Dunne, Printing and Translations under Med Ali, Journal of
the Royal Asiatic Society, July 1940. pp. 343 — 345.

بالفوتوغراف عن نسخة باريس ، وقد أقرت نظارة المعارف على طبعتها في جملة كتب إحياء الآداب العربية » ، وقد بدأت فعلا دار الكتب الخديوية بطبع هذا المعجم ، وطبع منه الجزء الأول في ١٠٠ صفحة ، (مطبعة المقتطف سنة ١٩١٤) ، وأشرف على تصحيحه وطبعه وترجمة ألفاظه إلى اللغتين الفرنسية والانجليزية الدكتور أحمد عيسى بك ، غير أن الدار لم تنشر منه حتى اليوم إلا هذا الجزء تحت عنوان :

Al - Schoodhoor - Al - Dhahabieh of Muhammad omar Al - Tounsy , Dictionary of Technical Terms « Ancient and Modern » used in the medical, natural and veterinary sciences , edited and translated into French and English by Dr. Amed Issa Bey vol I. Cairo , 1914.

ويوضح السبب الذي دفع التونسي لوضع هذا المعجم ما جاء في مقدمته ، قال : « لما كان حضرة من نشئت المدرسة على يده .. كلوت بك ... يعلم أن جل غرض الخديوي أظهار المعارف ، وإبراز اللطائف ، وأن المعارف لا تتم الا بجمع كتاب موصوف بما وصفناه من الجمع للألفاظ الطبية وأسماء المعادن والحيوانات .. أحضر معجما في الألفاظ المذكورة باللغة الفرنسية ، وأمر بترجمته إلى اللغة العربية ، ففرقه ناظر المدرسة إذ ذاك على معلميه ... فترجم كل منهم الجزء الذي أعطيه ... ولما تمت ترجمة الأجزاء ... أمر ناظر المدرسة إذ ذاك الماهر في الفنون ، المتوغل في العربية ، المعلم بيرون أن يؤخذ من القاموس كل لفظ دل على مرض أو عرض ، وكل اسم نبات أو معدن أو حيوان ... وقسم أوراقه على المشار إليهم ، وأدخلني معهم ، فأخذت منه جزءا وافرأ ... وكذا أعطى الماهر أخانا العلامة الشيخ سالم عوض المصحح الأول ، وكذا الفاضل الشيخ على العدوي الذي عليه في تبويض كل مسودة معول ، فاستخرج الجماعة منه ما أمكنه استخراجه .. ثم خصني الناظر المذكور باستخراج ما في القانون من التعاريف ، وما في تذكرة داود من كل معنى لطيف ، وزدت على ذلك ما في فقه اللغة ومختصر الصحاح ، وما في الهروي من التعاريف الصحاح ، وضممت لذلك

الإنسان ان يضرب الرمل المذكور ياتي برمل نظيف نقي ويبسطه
 على الارض ثم ينقط فيه بالاصبع الوسطى اربعة اسطر من غير عدد
 بالاسطر من اليسار الى اليمين هكذا 

ثم يتتبعه زوجا فزوجا حتى ينتهي الى آخر فان كان الآخر زوجا اثبتته
 وان بقي فردا اثبتته فثبت ما تحصل من السطر الاول اولا وما تحصل من
 الثاني تحته وهكذا حتى تمام الاربعة اسطر فينتج من هذا الشكل من الاشكال
 الستة عشر المقدمة ومن لم يجدها ضرب الخط بقول او محض وهو انه
 ياخذ قبضة من غير عدد ويستقطها زوجا زوجا ويثبت الاخير ان كان
 زوجا او فردا وانما تولدت اشكاله واتصالاتها وما يتعلق بها من
 الاسماء والخروف والكواكب والعاقبة وعاقبة العاقبة فذلك كله منوط
 بمؤلفات علم الرمل فلا تطيل الكلام عليها وانما ذكرنا هذه البنية اليسرى
 ليكون للناس في رحلتنا هذه المأم بأهمية الرمل في الجملة ولتأخذوا
 هذه الرحلة عن مثل هذه الفائدة والله **سبب** الم
 وقد طبع بالبحر هذه النسخة الجميلة المنقحة الجميلة بدار طباعة
 السيد كينيلين الفاخرة الكائنة بمدينة ياريز الباهرة وذلك برسم وخط
 السيد پيرز بنعمة الله وتوث وكل طبعة على دمه ونظره وهمة وسليح
 شهر نوبت بر سنة خمسين وثمانمائة بعد الالف المشيخة والحمد لله والبدء
 والنهاية ونسأله من الخير ينبوع الغاية **امير**

الصفحة الأخيرة من النسخة العربية لرحلة دارفور ، وهي « برسم وخط
 السيد برون » ، كما هو واضح في السطور ١٥ - ١٦ .

أسماء الأطباء المشهورين، وأسماء عقاير كنت رأيتهما في بلاد السوادين، ورتبت جميع ذلك على حروف المعجم ليكون أسهل للمراجعة وأقوم، وسلكت في ذلك مسلك صاحب المصباح لسهولة على مسلك القاموس والصحاح ، وأغلب احوالي فيه أني أعزي لكل كتاب ما التقطته من فوائده ، وما استفدته من فرائده ، ولم أقتصر فيه على الأسماء العربية ، بل توجد فيه أسماء لاطينية ، وأخرى فرنساوية ، وأخرى فارسية ... الخ ، [مقدمة الجزء المطبوع ص ب - هـ] .

٤ - وأشرف التونسي على طبع ونشر كثير من الكتب العربية القديمة التي طبعت لأول مرة في بولاق ، وخاصة المستطرف للأبشيبي ، ومقامات الحريري .

٥ - كذلك قام التونسي بتحرير وتصحيح كثير من الكتب الطبية والعلمية التي ترجمت في عصر محمد علي وأهمها :

أ - الدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص والمنافع تأليف الدكتور « فيجري بك » وترجمة حسين غانم الرشيدى ، بولاق ١٢٥٧ هـ

ب - الجواهر السنية في الاعمال الكيماوية في ثلاثة أجزاء تأليف وترجمة الدكتور « برون » بولاق سنة ١٢٦٠ .

ج - كنوز الصحة ويواقيت المنحة ، تأليف « كلوت بك » ، وترجمة الدكتور محمد الشافعي ، بولاق سنة ١٢٥٨ - ١٢٦٠

د - التنقيح الوحيد في التشریح الخاص الجديد تأليف الاستاذ « كرووليه » وترجمة الدكتور محمد الشباسي ، بولاق سنة ١٢٦٦

هـ - روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى ترجمة الدكتور محمد علي البقلي ، بولاق ١٢٥٩

و - الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال ، تأليف « كلوت بك » وترجمة الدكتور محمد الشافعي ، بولاق ١٢٦٠ .

الطبيب الخاص لمحمد علي

بدأ حياته بائعاً للبطيخ

طفل من عشرات بل مئات الاطفال الذين تزخر بهم القرى المصرية ، حبا كما يحبوا الاطفال ، ومشى كما يمشي الاطفال ، ونما كما ينمو الاطفال ، غذاؤه الشمس والهواء ، ثم الخبز والماء ولد لابوين فقيرين يمتنان الفلاحة شأن سكان القرى المصرية جميعاً ، ولما بلغ الرابعة من عمره أرسله أبوه الى الكتاب فتعلم مع أقرانه القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن ، فلما اكتمل نموه ، واشتد عوده ، انضم إلى أبيه وأمه يعاونهما في فلاح قطعة من الأرض يزرعانها ويأكلان وبنوهما من ثمارها .

غير أن الصبي لم يكن خاملاً كلداته من الصبية الآخرين ، بل كان فيه نشاط دافق وحيوية كامنة ، فانتلق في أوقات فراغه يحرب حظه تاجراً ، يشتري بعض الحبوب من ذرة أو قمح وبعض الثمار من بلح أو بطيخ أو خيار ويبيع هذا كله فيصيب نصيباً من الربح الحلال ، والأبوان يلاحظان هذا النجاح الذي أدركه ابنهما ، وهذا الربح الذي ناله ، فيشجعان ويباركان .

ومضت الايام والحياة في هذه الاسرة تجري رتيبة كمعادتها، وزرع الأبوان في إحدى السنوات أرضهما بطيخا ، وبارك الله جهودهما فأنبثت الأرض ثمرأ وفيراً حلوا طيباً أكله ، ففرحت الاسرة بما أوتيت من خير، وجلس افرادها تحت ضوء القمر في الليل يتشاورون - بعد أن جمعوا الثار - في خير طريقة لبيع هذا المحصول ، للحصول على أكبر ربح ممكن ، وطال النقاش وكثرت الآراء : إنهم لو باعوه في قريتهم « نبروه » لما جنوا من ورائه ربحاً يذكر ، فالاسعار في القرية دائماً بخسة ، وأبدى الوالد اقتراحاً أن يذهب الصبي بالمحصول الى طنطا عاصمة المديرية لبيعه هناك علته يصيب ربحاً أوفر ، غير أن الصبي كان أكثر طموحاً من أبيه فأبدى رغبته في أن يذهب بالمحصول الى العاصمة الكبرى - إلى القاهرة - وأعجب الوالدان بالفكرة ، وشجعهما على قبولها ما أصابه ولدهما من نجاح في صفقاته القليلة التي مارسها في القرية .

ونامت الاسرة ليلتها تلك والأمل الحلو يداعب خيال كل فرد من أفرادها، وأذن مؤذن الفجر وخرج الأب وابنه إلى مسجد القرية فصلياً ودعوا الله مخلصين أن يبارك لهما تجارتهما ، وعادا فحماً الجمال بالثار ، شاركتها في ذلك الأم والصبية الصغار ، فلما انتهوا جميعاً من عملهم قبّلت الأم فتاها ، وباركه الأب ، ودعا له بالنجاح وهلل الصبية الصغار له مودعين .

وسار الفتى في طريقه والجمال تتهادى من خلفه وثيلة في سيرها ، واستهوته مناظر القرى والمدن التي يمر بها ، فهذه أول رحلة له خارج قريته ، فانطلق يغني مسروراً ، وانتهى به السير إلى القاهرة ، وقصد إلى حي الحسين والأزهر كما أوصاه أبوه ، فهو حي عامر بالسكان، وبضاعته فيه لا شك رائجة، وانتحى الفتى ركناً من اركان السوق ، ورص بطيخاته أمامه ، وراح يعلن عنها في صوت حلو رخيم وبكلمات مليحة مغرية ، وأقبل مشتري واثان وثالث ، غير أن السعر الذي عرضوه كان أقل مما أمّل أبوه ، فرفض أن يبيع ، وظل على رفضه حتى اتتصف النهار أو كاد ، وظن الفتى أول أمره

أن المتاعين قد يكونوا لاحظوا عليه سمات الفلاحين الغرباء ، فأزادوا أن يستغلوا سذاجته : فانتقل إلى جاره الذي عن يمينه وإلى جاره الذي عن يساره ، وسألها عن الاسعار فإذا هي اسعار قليلة ضئيلة ، فصدمة الحقيقة ، وزال عنه سروره وانشراحه .

هكذا قضى إبراهيم - وكان هذا اسمه - اليوم الأول في القاهرة ، فلما أقبل الليل أخذ يفكر ويعيد التفكير ويدبر ويعيد التدبير ، وانتهى به الرأي أخيراً إلى أنه لا بد من بيع محصوله ولو كان في البيع خسارة ، لأنه لو لم يبيع لفست عليه ثماره ، ولكانت الخسارة أفدح .

وباع إبراهيم بطيخاته ، وكانت الخسارة فادحة ، فخشى أن يعود إلى قريته فينال الأذى من أبيه ، وجلس إلى الركن الذي كان عامراً منذ قليل ببطيخاته بل بأمله المفقود ، وراح ينظر إلى المارة من أهالي الحي وهو يلعنهم ويلعن بلدهم في نفسه ، وجذب انتباهه منظر غريب طريف ، لقد نظر فرأى شيخاً كبيراً ذا لحية طويلة بيضاء ، بيده كتاب ، وبيده الأخرى سبحة يرسل حباتها الواحدة بعد الأخرى ، وعن يمين الشيخ وعن شماله ومن ورائه عدد كبير من الفتية المعممين ، والشيخ يسير في تودة ووقار ، والفتيان يتبعونه في أدب جم واحترام بالغ ، وتتبع إبراهيم هذا المنظر بناظره ، واستعاد في الحال صورة شيخ القرية وكتابها ولداته من الصبية الصغار .

وانتهى المسير بالشيخ وتلاميذه إلى باب المسجد فدخلوه ، ومال إبراهيم إلى جاره له وسأله عن يكون الشيخ وعما يكون المسجد ، وعلم أن هذا المسجد هو الأزهر وأن هذا أحد شيوخه ، فبهرتة الصورة واستهواه وقار الشيخ الأستاذ وبزة الفتية التلاميذ ، ولمعت الفكرة في خياله لمعان البرق ، وانتفض واقفاً ، واتخذ طريقه إلى المسجد ، ودخل مع الداخلين ، وراعه كثرة حلقات الدرس ، فانضم إلى إحداها واستمع ثم استمع ، ثم انتقل إلى غيرها وغيرها ، ولم يكده ينتهي اليوم حتى كان قد قرع عزمه أن يصبح أزهرياً

يطلب العلم كما يطلبه مثات غيره من المنكبين على الكتب حوله ، وسيؤهله هذا إلى أن يكون شيخاً للقرية يقبل الجميع يده ويسعون إلى رضائه ، أو على الأقل في هذا حل مؤقت لمشكلته ومشكلة تجارته الخاسرة .

ونبغ إبراهيم ونال الكثير من تقدير شيوخه وأساتذته ، فقد كان بحق موفور الذكاء ، ورضي بهذه الحياة الجديدة التي حملت عنه عبء التفكير في المأوى والغذاء ، فالرواق فيه مأواه والجرابة فيها غذاؤه .

ومضت الايام يتابع بعضها بعضاً وإبراهيم مطمئن إلى حياته الجديدة ، منصرف إلى دروسه وكتبه ، إلى ان كان أحد الأيام حين أرسل إليه شيخه يستدعيه ، فهرول مجيئاً ، ولكنه لم يكذب يقبل عليه حتى وجد في حضرته جماعة من الناس لا يعرفهم ، فيهم من يتزيا بزي أمراء الجيش ، ومنهم من يتزيا بزي الشيوخ ، وتقدم فقبل يد استاذة ، وأقبل عليه الاستاذ مرحباً ، ثم قدمه لهؤلاء الضيوف مقدمة كلها ثناء على كفايته وتقريظ لمواهبه ، وفهم إبراهيم من الحديث أن هؤلاء السادة قدموا ليختاروا نخبة من نوابغ الطلاب ليكونوا نواة أولى لمدرسة الطب التي يزعم انشاءها محمد علي باشا .

وهكذا انتقل به القدر نقلة جديدة من طالب بالازهر يزعم أن يكون شيخاً صاحب كتاب في القرية إلى تلميذ بمدرسة الطب الجديدة حيث يدرس علوماً جديدة لم يسمع بها من قبل من كيمياء وطبيعة وتشريح ودراسة للأمراض والادواء ، ويستمتع فيها إلى أساتذة ليسوا من دينه ولا من جنسه ، فهو لا يعرف لغتهم ولا يعرفون لغته ، إنهم أساتذة من أوروبا وخاصة من فرنسا .

ونبغ إبراهيم النبراوي - نسبة إلى بلده نبروه - في مدرسة الطب كما نبغ في الأزهر من قبل ، وقضى سنوات الدراسة جميعاً بنجاح وتفوق .

ولما تخرجت الدفعة الأولى من طلاب هذه المدرسة أراد محمد علي أن يبعث بالنابغين إلى فرنسا ليتعلموا هناك علومهم ، ووكل إلى ناظر المدرسة كلوت بك أمر اختيار المبعوثين ، فكان إبراهيم واحداً منهم .

وسافر إبراهيم النبراوي إلى فرنسا في سنة ١٨٣٢ ، فرأى دنيا غير التي كان يراها في مصر ، الرجال غير الرجال ، والنساء غير النساء ، والأخلاق والعادات والمدن والقرى والمدارس وطرق التعليم والتفكير .. الخ كل أولئك يختلف في باريس عنه في القاهرة ، وعنه في قريته المتواضعة نبروه .

وكان إبراهيم في عنفوان شبابه ، فحقق قلبه في باريس كما يحقق قلوب الشبان ، وأحب باريسية ، وتزوج منها ، ولم يلبه هذا عن واجبه ، بل أقبل على دروسه إقبال النهم وحصل على إجازته بنجاح ، وعاد إلى مصر في سنة ١٨٣٦ تصحبه زوجته الباريسية .

وعين إبراهيم النبراوي بعد عودته مدرساً بمدرسة الطب المصرية ، فقد كان محمد علي يهدف من وراء هذه البعثات إلى إحلال المصريين محل الأجانب . ونجح إبراهيم طبيباً ومدرساً ، كما نجح تلميذاً ، وأظهر مهارة فائقة في فنه ، فقصده المرضى من كل فج ، وأقبلت الدنيا عليه إقبالا .

ولم يشغل إبراهيم النبراوي بهذا كله عن المشاركة في النشاط العلمي لمدرسته ، فترجم ثلاث رسائل طبية لأستاذه كلوت بك عن الفرنسية إلى العربية ، وطبعت هذه الرسائل في بولاق سنة ١٢٥٣ ، ثم ترجم كتاباً فرنسياً آخر عنوانه « الأربطة الجراحية » طبع في بولاق أيضاً سنة ١٢٥٤ .

وذاع صيت النبراوي ، وبلغت أخباره الوالي محمد علي ، فاختره طبيباً خاصاً له وقربه إليه ، وأغدق عليه النعم ، وظل طبيبه الخاص إلى آخر حياته ، وعندما مرض محمد علي مرضه الأخير وسافر إلى أوروبا للاستشفاء صحبه النبراوي في رحلته طبيباً معالماً .

يقول علي مبارك باشا في ترجمته له : « ولنجابته وحسن درايته في فنه اختاره العزيز محمد علي باشا حكيماً باشى لنفسه ، وقربه وتخصص به ، وبلغ رتبة أميرالاي ، وكثرت عليه اغداقات العزيز وانتشر ذكره ، وطلبتة (الفاميليات) والأمراء » .

وظل إبراهيم النبراوي وفيًا لزوجته الفرنسية مخلصاً لها، لم يتزوج غيرها إلى أن أدركتها الوفاة في مصر ، فأنعمت عليه والدته عباس باشا الأول بفتاة بدوية فتزوج منها .

وفي غضون تلك السنين استقال كلوت بك من نظارة مدرسة الطب ، فخلفه طبيب فرنسي آخر هو الدكتور برثون ، وفي سنة ١٨٤٦ استقال برثون أيضاً ، فعيّن الدكتور إبراهيم النبراوي باشا وكيلاً لهذه المدرسة ، فكان أول مصري يلي هذا المنصب .

وظل النبراوي باشا يتمتع بمكانته الممتازة لدى الأسرة العلوية حتى بعد وفاة محمد علي ، فقد اختاره عباس باشا الأول طبيباً خاصاً له بعد توليه العرش ، ونال لديه ولدى والدته الحظوة الكبرى ، فلما سافرت لأداء فريضة الحج صحبته معها ليشرّف على صحتها وعلى صحة من معها من الحجيج .

وقد نبغ من أولاده ولدان رزقهما من زوجته الفرنسية ، أحدهما يوسف باشا النبراوي ، تلقى علومه الأولى في مصر ، ثم أرسل في بعثة إلى فرنسا سنة ١٨٥٥ في عهد سعيد باشا للتخصص في الفنون والعلوم الحربية ، وعاد إلى مصر في سنة ١٨٦١ فعيّن ضابطاً بالجيش المصري ، غير أنه لم يمكث به إلا قليلاً ، ثم عاد إلى فرنسا ، فأقام بها طويلاً ، وتزوج هناك من سيدة فرنسية ، وكانت له جهود حميدة في اقناع أولى الأمر من الفرنسيين للموافقة على إنشاء المحاكم المختلطة ، ثم استدعى إلى مصر بعد إنشاء هذه المحاكم وعين رئيساً لواحدة منها .

والثاني خليل النبراوي ، تلقى علومه الأولى بمصر ، ثم التحق بمدرسة الطب المصرية ، وبعد اتمام الدراسة بها أرسل في بعثة طبية إلى النمسا وفرنسا ، وعاد إلى مصر في عهد إسماعيل وعين طبيباً بالمصلحة الطبية ، ومن نسل هذا الرجل العظيم أيضاً الاديبه الصحفية سيزا نبراوي سكرتيرة الاتحاد النسائي .

هذه قصة فتى من قلب الريف المصري ، تنقل به القدر العجيب من بائع بطيخ فاشل إلى طالب في الأزهر ، وانتقلت به عناية محمد علي إلى مدرسة الطب ثم إلى فرنسا حتى أصبح طبيباً ومدرساً ووكيلاً لمدرسة الطب ، وطبيباً خاصاً لعاهلي مصر ، وارتقى به نبوغه إلى أن حصل على أكبر لقب في وطنه ، وهو لقب الباشوية .

بيومي أفندي
نابغة مصر في الرياضيات
الذي مات في السودان

أصله من بلدة دمشق ، وإن كان قد ولد في القاهرة ، ارسل إلى فرنسا في بعثة سنة ١٨٢٦ ، وله من العمر سبعة عشر عاماً ، ولبت في فرنسا تسع سنوات ، تخصص في خلالها في فن قوى المياه (الهيدروليكا Hydraulic) ثم عاد إلى مصر في ١٤ ذي الحجة سنة ١٢٥٠ (١٣ أبريل ١٨٣٥) ، فعُهد إليه في الحال بالبداية في ترجمة كتاب في الهندسة الوصفية .

وفي نفس التاريخ صدر أمر محمد علي باشا بتعيينه « مدرساً بمدرسة المهندسخانة بالقناطر الخيرية مع تفهيمه القيام بمعاونة باشمهندس القناطر بالنسبة لتعلمه أشغال القناطر كما يجب بباريس » .

وفي شوال سنة ١٢٥١ (يناير ١٨٣٦) ضمت مدرسة المهندسين بالقناطر الخيرية إلى مدرسة « المهندسخانة » ببولاق ، ونقل بذلك بيومي أفندي استاذاً بهذه المدرسة الأخيرة ، وفي نفس السنة ألفت لجنة لإعادة تنظيم المدارس

فكان بيومي أفندي واحداً من أعضائها، وقد عنيت هذه اللجنة عناية خاصة بمدرسة « المهندسخانة » ببولاق ، فوضعت للدراسة بها نظاماً يتفق ونظام مدرسة الهندسة بباريس .

وفي أوائل تلك السنة (١٨٣٦) كان قد عاد من فرنسا إبراهيم رمضان أفندي ، وأحمد دقله أفندي ، وأحمد طائل أفندي ، وأحمد فايد أفندي ، قبل أن يتموا دراستهم ، وكانوا أوفدوا إليها جميعاً في سنة ١٨٣٠ ، فألحق اثنان منهم ، وهما دقله وطائل معيدين لدروس بيومي أفندي في « المهندسخانة » ، على أن يتما دراستها عليه وألحق أحمد فايد معيداً لدروس بهجت باشا بقصر العيني ، وإبراهيم رمضان معيداً لدروس مظهر باشا بمدرسة الطويحية ، ولم يلبث هذان الأخيران أن نقلتا إلى مدرسة بولاق ، وأصبح الجميع تلامذة ومعيدين لبيومي أفندي ، يقول علي مبارك باشا : « وكان (اي بيومي أفندي) هو « الباشا خوجة » عليهم ، فكان المرجع إليه والمعول عليه » ، وفي سنة ١٨٣٦ أيضاً عندما أعيد تنظيم مدرسة المدفعية بطرة قام بتنظيم دروس الرياضيات بها بيومي أفندي .

وحوالي سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥) أوجد ديوان المدارس نظام معاونين ، وهم بمثابة المفتشين الآن ، وكان عملهم الأساسي التفتيش على المدارس وشؤونها المختلفة - علمية وتربوية وصحية - ... الخ ، وكان يعهد إلى بعض هؤلاء معاونين ، ومنهم - بيومي أفندي - بترجمة الكتب وتصحيحها .

وقد قام بيومي أفندي بهذه الأعمال جميعاً خير قيام ، ولكنه بذل الجهد الأكبر مع تلاميذه ومساعديه الأربعة في النهضة بمدرسة بولاق وتلاميذها ، وترجمة الكتب في مختلف فروع العلوم الرياضية .

لاحظت هذا الجهد لجنة سنة ١٨٤١ لاعادة تنظيم التعليم ، فمدحته وضمنت هذا المدح تقريرها ، قالت : « لا ريب في أن المهندسخانة مدينة بكل تقدمها هذا الى دقة ناظرها وهمة أساتذتها ، غير أن معظم الفضل إنما يرجع

إلى ترجمة المدرسين للدروس ، وإلى الاسراع في طبع التراجم بمطبعة الحجر (الملحق بالمدرسة) ، ثم جمعها في كراسات وكتب ، ولقد كانت العلوم الرياضية التي في متناول اليد من القلة والندرة ، وكانت ترجمتها من الإشكال والصعوبة بحيث لم يتيسر قبل اليوم تنشئة المهندسين الفحول على الوجه الصحيح الموافق لاسلوب فرنسا ، ولكن ها هو البكباشي محمد بيومي أفندي واليوزباشية أحمد طائل أفندي وإبراهيم رمضان أفندي وأحمد دوقلي أفندي وأحمد فايد أفندي يتولون بفضل بركات الخديو ترجمة الدروس التي وكل اليهم تعليمها ، ثم لا يقفون عند حد الترجمة ، بل يطبعونها على الحجر ويحملون منها كتباً وأسفاراً ، والواقع أن الامتحان الأخير كان مشهداً لما جمعه هذه الكتب بين دفتها من شتى العلوم .

ولما أنشئ قلم الترجمة (الملحق بمدرسة الألسن) في سنة ١٨٤٨ قسم إلى أقلام أربعة ، كان أولها القلم الخاص بترجمة الكتب الرياضية ، فكان بيومي أفندي خير من يتولى رئاسته ، فنقل إليه ، وعين لمساعدته ملازم من خريجي الألسن ، وخمسة من تلاميذ فرقته الأولى .

وقد كان بيومي أفندي إلى هذا - كما يقول مبارك باشا : - « حسن الأخلاق مهيباً جليلاً ، ذا رأي حسن » ، وكان أستاذاً لجيل من المهندسين بأكمله ، تتلمذ عليه من كان يصغره سناً ، ولم يأنف أن يتلمذ له من كان يكبره سناً ، أمثال : سلامة باشا ، ومحمود الفلكي باشا ، وإسماعيل محمد باشا ، وعامر بيك ، وكلهم من نوابغ المهندسين المصريين في القرن التاسع عشر . غير أن هذا النبوغ الفذ والخلق الطيب لم يلقيا من عباس الأول - ما لقياه من محمد علي من تكريم وتقدير ، ففي ١٣ رجب سنة ١٢٦٦ (مايو ١٨٤٩) صدر الأمر بإنشاء مدرسة الخرطوم الابتدائية ، وعين رفاعة بك لنظارتها ، واختير لتدريس الأرقام وطريقة كتابتها وعمليات الجمع والطرح والضرب نابغة الرياضيات بيومي أفندي ، وتلميذه وزميله أحمد طائل أفندي . وكانت الصدمة عنيفة فأثرت في صحة بيومي أفندي ، وتعاون عليه

الحظ، العاثر والمرض فادر كته المنية في الخرطوم في سنة ١٨٥٢ (١٢٦٨) -
ودفن هناك - أما أحمد طائل أفندي فقد عاد إلى مصر - مع رفاعة بك -
في أوائل عهد سعيد باشا ، وكان مريضاً بالحمى ، فتوفى في بولاق بعد وصوله
بليتين ، ويقول عنه علي مبارك باشا أنه كان « قصير القامة ، صغير الجسم ،
كثير الفهم ، لا يبالي بأكثر الأمور ، وله جرأة على الامراء وإقدام ، وكان
محياً للتلامذة ، يرغب في تعليمهم ، وأخذ عنه أكثرهم أو جميعهم . »

وقد ذكر العالم المصري المرحوم أمين سامي باشا في كتابه « تقويم النيل »
أن حكومة فرنسا أرسلت في سنة ١٨٥٠ (١٢٦٦) أحد أقران بيومي أفندي
بمدرسة الهندسة التي كان بها في فرنسا لزيارته في منفاه ، وبعد زيارته
طبع كتاباً عنوانه « بيومي أفندي في منفاه » سنة ١٨٥٠^(١) ولو صح هذا الخبر
لكان لهذا الكتاب أهمية كبيرة لأنه يكشف لنا - دون شك - عن الأسباب
الحقيقية التي أدت إلى نفى بيومي وصحبه إلى السودان ، ويصور - في
وضوح - أحاسيس بيومي وآلامه وحياته في السودان ، غير أنني بحثت عن
هذا الكتاب كثيراً فلم أوفق - للأسف - للعثور عليه .

وقد كانت لبيومي أفندي جهود علمية ضخمة ، وخاصة في ميدان
الترجمة ، فقد قام بنقل الكتب الكثيرة - في فروع العلوم الرياضية المختلفة -
عن الفرنسية إلى العربية وقد طبع منها ما يأتي :

١ - الهندسة الوصفية ، تأليف « دوشين Duchesne » ، ويقع في جزئين ،
طبع الأول في بولاق في سنة ١٢٥٢ هـ ، وطبع الثاني في سنة ١٢٦٣ هـ .

٢ - كتاب الجبر والمقابلة ، تأليف « ماير Mayer » ، جزء واحد ، طبع
في بولاق في غرة جمادي الآخرة سنة ١٢٥٦ هـ .

٣ - ميكانيقة (أي جر الاثقال) ، تأليف « ترمك Terquem » ، ترجمه

(١) أكون سعيداً جداً لو كان لأحد القراء الكرام معرفة بهذا الكتاب فتفضل
بارشادي إليه .

بيومي بالاشتراك مع أحمد طائل ، جزء واحد ، طبع في بولاق سنة ١٢٥٧ هـ .

٤ - ثمرة الاكتساب في علم الحساب ، ويبدو ان بيومي افندي كان قد ترجم هذا الكتاب ترجمة سريعة ليستعين به في تدريس هذه المادة ، ثم طبع طبع حجر بمطبعة مدرسة « المهندسخانة » ، ولكنه غاد فراجعه وزاد عليه تنفيذاً لأمر أدهم بك مدير المدارس ، وطبع الكتاب بعد تنقيحه في بولاق في سنة ١٢٦٣ هـ . وهو جزء واحد في ٤٠٠ صفحة ، جاء في مقدمة الشيخ الدسوقي لهذا الكتاب ما يلي : « ومن افخر كتب هذا العلم (الحساب) المؤسسة ، كتاب 'عرب في مدرسة الهندسة ، جليل القدر ، حسن الترتيب ، إلا انه غير متقن التعريب ، طبع على الحجر في هذه المدرسة على يد من أحسن قراءته حين درسه . ولقد عمّ نفع هذا الكتاب في المدارس لما احتوى عليه من النفائس ، ولما كان الكتاب المعرب المشار اليه ، مما يعتمد في هذا الفن عليه ، أمر من يحبيه السعد بلبنيك ، حضرة أمير اللواء أدهم بيك ، مدير المدارس المصرية ، ومفتش المهيات الحربية ، جناب المتوكل على ربه المعيد المبدي ، محمد الشير بيومي افندي ، أن يبذل في اتمامه همه ، وأن يضم اليه فوائد مهمة ، على يد مصححه راجي غفر الاوزار ، ابراهيم الدسوقي عبد الغفار . . »

٥ - جامع الثمرات في حساب المثلثات ، وطبع في بولاق في سنة ١٢٦٤ .

هذه هي كتب بيومي افندي التي طبعت ، غير أن الدكتور « بورنج Bowring » كان قد زار مدرسة « المهندسخانة » في سنة ١٢٥٣ (١٨٣٧) ، وأثبت في تقريره إحصاءاً كاملاً للكتب التي ترجمت أو كانت تترجم في تلك المدرسة ، ومن بينها كتب ثلاثة أخرى كان يترجمها بيومي افندي ، هي :

١ - مبادئ اللغوريتيمات .

٢ - قطع الصخور تأليف « دويو Duillot » .

٣ - الفحم الحجري ، تأليف « دويو Duillot » .

وقد بحثت عن هذه الكتب في فهارس الكتب المطبوعة فلم أعثر لها على أثر.

* * *

وبعد ، ترى أين الآن قبر هذا العالم الجليل ، هل هو باق معروف ؟ أم نسي فاندثر ؟ إن على مصر الناهضة واجباً قومياً نحو هذا النابغة الكريم أن تبحث عن قبره ، فإن وجدته صانته وكرمه .

إلزي لشتنشتاتر الاسلام والعصر الحديث

مع مقدمة بقلم سير محمد ظفر الله خان

Ilse Lichtenstadter : Islam and Modern Age

مؤلفة هذا الكتاب يهودية الديانة ، ألمانية الأصل ، ثم رحلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتجنست بالجنسية الأمريكية .
وقد درست الثقافتين العربية والإسلامية في جامعات ألمانيا وإنجلترا ، وحصلت على إجازتي دكتوراه ، إحداهما من جامعة فرانكفورت ، والثانية من جامعة أوكسفورد ، وهي الآن عضو في المدرسة العليا للاداب والعلوم بجامعة نيويورك ، وكانت قبل ذلك استاذة للأدب العربي والثقافة الإسلامية في المعهد الآسيوي بنفس المدينة .
وللمؤلفة - غير هذا الكتاب - مقالات وأبحاث أخرى نشرت في كثير من المجلات العلمية في ألمانيا وأمريكا والباكستان ، ومعظمها تدور حول النواحي الاجتماعية في الإسلام ، مثل مكانة المرأة ، او نظام الأسرة ، وفيما يلي بيان بأهم هذه المقالات :

Lichtenstadter (Hse)
An Arab - Egyptian Family, (The Middle East Journal, vol.
VI, Washington, 1952).

The Muslim Woman, (Sociologus, vol. VII, Berlin 1957)

From Particularism to Unity : Race, Nationality and
Minorities in the Early Islamic Empire, (Islamic Culture,
Hyderabad, 1949).

ولم تقتنع الدكتورة «إلزي» بما حصلت من معلومات عن هاتين الثقافتين :
العربية والإسلامية جمعتها من الكتب التي قرائت ، أو من المحاضرات التي
استمعت إليها ، بل أرادت أن تتصل بالعرب والمسلمين اتصالاً شخصياً ، وأن
ترى بلادهم وإن تحيا بينهم ، وتعيش معيشتهم ، وأن تدرس عن كثب عاداتهم
وتقاليدهم وأخلاقهم ، وأن تلمس بنفسها مشاكلهم ، وتستمع إلى أفكارهم
وآرائهم ، ولهذا سافرت إلى مصر ثلاث مرات في السنوات ١٩٤٧ و ١٩٥٠ و
١٩٥٥ ، وأقامت بها مدداً طويلة ، وزارت معظم البلاد العربية المجاورة
لمصر ، كما زارت باكستان - باعتبارها دولة إسلامية - في سنة ١٩٥٥ ،
وأقامت بها شهوراً ، ثم أقامت في مدينة دلهي ثلاثة أسابيع اتصلت خلالها
بالجالية الإسلامية المقيمة في عاصمة الهند .

وقد عقدت المؤلفة أواصر الصداقة أثناء هذه الزيارات مع عدد كبير من
مسلمي الشرقين الأدنى والأوسط - رجالاً ونساء - وكانت تجرية طيبة مكنتها
من جمع كثير من الملاحظات والمعلومات ، وقد لقيت من أصدقائها المسلمين كل
ترحيب ، وكانوا - كما تقول في مقدمة كتابها - يشعرونها دائماً - مع أنها
يهودية - أنها في بيتها ، وذلك على الرغم من اختلاف أقطار حياتهم ، وقواعد
دينهم . وقد تحدث إليها كثيرون من هؤلاء الأصدقاء في مصر وباكستان عن
كفاحهم وعن إيمانهم ، كما كانوا في معظم الأحوال يصارحونها بتقديمهم للأساليب
الأوربية وقصور القرب وعجزه عن فهم أساليبهم .

* * *

والكتاب كما تقول المؤلفة من مقدمتها فيه محاولة لتحليل المشاكل التي تعترض العالم الإسلامي المعاصر من حيث علاقتها بأسسها القديمة ، مع فحص الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه المشاكل .

ومن الواجب في رأيها إبراز هذه الأسس الكامنة في الإسلام ، والتي ظلت قوية ثابتة على مر العصور ، كما كانت مستقلة عن الأحوال الخارجية أو العصور المتغيرة ، فان الكشف عن هذه الأسس يمدنا بالدوافع الداخلية الثابتة للحياة والفكر الإسلاميين .

والعالم الإسلامي خرج أخيراً من عزلته الطويلة ، وبدأ يشارك من جديد في الشؤون العالمية ، وكثير من مراحل صراعه ترجع أسبابها إلى عودة الاتصال بينه وبين الغرب ، وانه لما يعني الشرق والغرب معاً إيجاد حل لهذه المشاكل ، ولذلك كان الهدف الثاني لهذا الكتاب - كما تقول المؤلفة - هو تحليل المشاكل التي نشأت عن تقابل العقليتين الشرقية والغربية .

والقسم الأول من هذا الكتاب الذي يتناول مبادئ الإسلام وأسسها يعتمد اعتماداً كبيراً على المراجع والمصادر الإسلامية القديمة ، في حين أن القسم الثاني الذي يعني بتحليل مشاكل العالم الإسلامي المعاصر يعتمد في معظمه على الملاحظات الشخصية للمؤلفة .

وقد ركزت المؤلفة جهودها للعناية بدراسة النواحي الدينية والثقافية والأدبية والتاريخية للعرب والعالم الإسلامي ، ولكنها تقرر كذلك أنها لكي تفهم الإسلام فهماً عميقاً دقيقاً كان لا بد لها أيضاً من العناية بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية .

والمؤلفة تذكر أنها كانت قد انتهت من تأليف كتابها وكتابة الصفحات الأخيرة منه في الوقت الذي نشأت فيه أزمة السويس ، أي قبيل العدوان الثلاثي على مصر ، ذلك العدوان الذي هز ضمير العالم - على حد تعبير المؤلفة وهي يهودية - ومع هذا فإن هذه الأحداث المؤلمة لم تغير - كما تقول - أي

جزء من أجزاء البحث ، بل على العكس زادت من اعتقادها أن الإدراك المتعمق لينابيع الثقافة الإسلامية أصبح ضرورياً لفهم الصراع القائم بين الشرق والغرب وأسباب الشد والجذب المتبادلين بين العالمين .

والمؤلفة ترى أن الوقت لم يحن بعد لتقييم هذه الأزمات بكل تبعاتها وأسبابها المتعارضة ، وقد يتضح من المناقشات العامة أن الأسباب الحقيقية لهذه الأزمات إنما ترجع إلى العوامل السياسية والاقتصادية ، أو إلى الانفعالات الوطنية ، أو إلى الصراع بين الدول الكبرى ، أو إليها جميعاً ، ولكن المؤرخ الحق يجب عليه ، وسط هذه المنافسات والثورات المتكررة المتتالية ، ووسط حالة القلق العام التي تسود عصرنا الذي نعيش فيه ، أن ينفذ ببصره إلى مظاهر التغيير والانتقال بين عصر وعصر ، وأن يقارن بين هذه الفترة التي نعيش فيها وبين الفترات الحاسمة والشبيهة لها في التاريخ ، مثل التحلل الإمبراطورية الرومانية ، أو قرون النهضة والإصلاح ، أو عصر الثورة الفرنسية .

ولهذا ترى المؤلفة أن أزمة الشرق الأوسط الحالية ليست إلا جزءاً من الصراع في سبيل السيادة بين آسيا والغرب .

والمؤلفة ترى أخيراً أن الصراع بين العرب وإسرائيل يجب أن يحكم عليه وأن يبحث عن حل له داخل نطاق هذا الصراع الكبير بين آسيا والغرب . ونحن نخالف المؤلفة في هذا الرأي ، ونرى أن الصراع بين العرب وإسرائيل هو أولاً جزء لا يتجزأ في الصراع بين القومية العربية وكل القوى الخارجية - شرقية أو غربية - التي تحاول العدوان على العالم العربي .

* * *

وقد قسمت المؤلفة كتابها إلى : مدخل ، وبابين ، وخاتمة .

ففي المدخل تكلمت عن المشكلة : مداها ومعناها .

وجعلت عنوان الباب الأول : « أسس الإسلام » وقسمته إلى فصول

تكلمت فيها عن :

- ١ - الأساس الثقافي : المجتمع العربي قبل الإسلام .
 - ٢ - الأساس الديني .
 - ٣ - الأساس الفقهي والقانوني .
 - ٤ - الأساس الاجتماعي .
 - ٥ - الأساس الفلسفي .
- وجعلت عنوان الباب الثاني : « المسلم والتجديد » ، وقسمته الى فصول تكلمت فيها عن :
- ١ - المشكلة العامة .
 - ٢ - المشكلة الاجتماعية : الزواج والأسرة ، التعليم ، الاقتصاديات
 - ٣ - المشكلة السياسية : الدولة الإسلامية ، الإسلام والقومية
 - ٤ - الفكر الجديد في الإسلام .
- أما الخاتمة فقد تحدثت فيها عن موقف الشرق قبالة الغرب ، أو بمعنى آخر عن تقابل الشرق والغرب .
- وفي نهاية الكتاب قائمة مفيدة بالمراجع التي أفادت منها المؤلفة عند وضع الكتاب .

* * *

وقد جهدت المؤلفة - كما تقول في مقدمتها - ان تلتزم الحياد في بحثها ، وأن تتناول الموضوع كما يتناوله كل باحث يسعى الى الحقيقة ، فلا تحايي فريقاً على فريق آخر ، وحاولت قدر الامكان ان تلتزم الأمانة في تفسيراتها، ولهذا هي تتوقع أن لا يرضى عنها في بعض الأحيان القارىء المسلم أو القارىء الغربي ، ومع هذا فانها تصرح انها اضطرت احتراماً لقواعد البحث ولصداقتها العميقة للمسلمين ، واحترامها التام لدينهم ، ان تلتزم الحقيقة بالقدر الذي استطاعت .

والحق نقول ان المؤلفة حاولت جهدها ان تكون معتدلة ومعقولة عند كلامها عن الاسلام والمسلمين، فهي تقول مثلاً عند حديثها عن الاسلام: «الاسلام

ليس ديناً وحسبه ، انه أكثر من ذلك ، انه أسلوب من الأساليب الحياتية .
والاسلام كدين له قيم خاصة وتحتوي دليل على هذه ان الدين المسيحي لم
يستطع ان يجد سبيلا الى نفوس الاعميين والفقراء من المسلمين ، او الى نفوس
المثقفين ثقافة عالية ، او الى نفوس القادة والساسة ، وإنك لتجد علماء الفرة
والحيوان والرياضة رغم بلوغهم هذه الدرجات العالية من العلم ظلوا مخلصين
لدينهم الاسلامي .

ومما يستحق الالتفات انه ما من واحد من الطلبة المسلمين الذين يتلقون
العلم في أوروبا قد تحول الى المسيحية ، قد يكون بينهم من استغرب في أنماط
حياته ، ولكن ليس بينهم من استنصر ، ولم يحدث هذا عن مصادفة ، ولكن
له دلالة القوية ، وذلك ان الاسلام له قيمة التي لا ترضي الجاهل وحسب ، بل
والتي تكفي حاجات المتعلمين والمثقفين .

ومن المثل الطيبة على اعتدال المؤلف ودفاعها عن الاسلام وتأصيلها
لأحكامه حديثها عن المرأة وحقوقها في الاسلام ، ومكانتها في المجتمع الاسلامي
(انظر ص ١٢٢ وما بعدها) وكلامها عن الحجاب ، نشأته وتطوره وحكم
الإسلام فيه (ص ١٢٣ وما بعدها) .

ومع ذلك فإن القارئ المسلم لا يستطيع أن يرضى عن كل ما أوردت
المؤلفة في كتابها من آراء ، فإن فيه مأخذ كثيرة ، وفي رأيي انها لا تتفرد
وحدها بترداد هذه الأفكار التي نأخذها عليها ، بل هي أفكار سمعناها ونسمعها
كثيراً من عدد من المستشرقين ، وقرأناها ونقرأها لهم فيما يكتبون ويؤلّفون .
من ذلك قولها بوجود تعارض أو تناقض في القرآن ^(١) وتستشهد على هذا
بالآية رقم ١٥٥ من سورة البقرة التي تقول :
« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على
كل شيء قدير » .

(١) انظر كذلك ص ٩٨ - ٩٩ من الكتاب .

وهذه دعوى باطلة لست أحسب أن الهدف منها بريء ، وقد فطن إلى هذا المأخذ السيد محمد ظفر الله خان ، وأشار إليه في المقدمة التي قدم بها الكتاب وناقشه وحاول أن يفنده مستنداً إلى قوله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران :

« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » .

والذي نعلمه ونؤمن به نحن المسلمين أن لا تناقض ولا تعارض في القرآن البتة ، ولو أن المؤلفه ومن يقول بقولها من المستشرقين رجعوا إلى المعجم المفهرس للقرآن لوجدوا أن الكتاب الكريم به نحو ٣٨٥ آية وردت فيها كلمة «آية» ، وإن كلمة آية في كل هذه الآيات لا تعني فقرة من فقرات سور القرآن وإنما هي تعني دائماً :

الدليل ، والبرهان ، والشاهد ، والعلامة ، والعبرة ، والعظة ، مثل قوله تعالى :

« قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس » .
وقوله « إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .
وقوله « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » .
وقوله « إن تبتغني نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتهم بكآية »
وقوله : « هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله »
وقوله : « وقالوا مهبا تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين »
وقوله : « فاليوم نحن ننجيك ببذلك لتكون لمن خلفك آية »
وقوله : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة »
وقوله : « وكأين من آية من السموات والأرض يمرون عليها »

وقوله : « إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون »
وقوله : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ... الخ

والمقصود بالنسخ في الآية التي استشهدت بها الأستاذة «إلزي» إنما هو نسخ آيات الله في كونه ، والسياق يدل على هذا بدليل أن الآية تختم بقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » .

والحقيقة أن هذا التناقض المدعى منشؤه جهل باللغة العربية وكتب الأصول والتفسير ، ونقصان في معرفة مصطلحات القرآن .

ومما يؤخذ على مؤلفة هذا الكتاب أنها حين تحدثت عن فرقة الأحمدية القاديانية التي نشأت في الهند أشارت الى القول الخاطيء الذي حاول أن يفسر به أحمد قاديان مؤسس الفرقة - قوله تعالى : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » من ان المقصود « بخاتم النبيين » الخاتم الذي يُختم به لا أنه آخر الأنبياء ، ولو أنها روت هذا القول على أنه قول أحمد قاديان لما كان هناك ما نأخذه عليها ، ولكنها ذكرت ما يفيد موافقتها على هذا القول ، بل وادعت أن القرآن يؤيده فقالت :

« The Koran itself calls Muhammad - Seal of Prophets »

انظر ص ٦٨ و ٨٦ .

ومما يعيب هذا الكتاب في نظر القارئ المسلم أن المؤلفة تتحدث عن محمد عليه السلام باعتباره مشرعاً ، وتحدث عن التشريعات الواردة في القرآن باعتبارها من وضعه ، ولهذا تنقده وتصف تشريعاته بالقصور وعدم الشمول فهي تقول مثلاً في ص ٧١ - ٧٢ :

« ومحمد - رغم ما يمتاز به من عبقرية - لم يكن مشرعاً لتشريعات شاملة حق داخل النطاق المحدد لتنظيماته المبكرة - فالتشريعات الموحى بها في القرآن هي قرارات صدرت لتوائم حالات خاصة ، وتشريعاته الاجتماعية تبدو كأنها

فصلت لتناسب حاجات بيئته الاجتماعية الخاصة ، ومثل هذا القوانين المتصلة بالعلاقات الأسرية وبالزواج والميراث^(١)

والكاثية لم تنسَ يهوديتها، فهي تبدي الأسى والأسف، وتتهم الرسول عليه السلام. بالقسوة لأنه أبعد اليهود عن المدينة (انظر ٤٩) مع أنها اعترفت عند تحليلها « للصحيفة » - وهي أول دستور أصدره النبي للمجتمع الاسلامي في المدينة بعد هجرته إليها - أنها أول وأقدم وثيقة في العالم تنص على الحرية الدينية ، فقد نصت الصحيفة على أن يترك لليهود الحرية في أن يظلوا يهودا . والحقيقة أن الرسول عليه السلام قد جامل اليهود مجاملة لم يجاملها لأية طائفة أخرى، وأكرمهم غاية الاكرام، واعترف بهم - في الصحيفة - كعنصر ثالث إلى جانب المهاجرين والأنصار، ونص فيها على حريتهم الدينية، ولكنهم قابلوا هذا كله بالجحود ونكران الجليل والدسائس والمؤامرات يدبرونها ضد الرسول ، ثم انضموا أخيرا إلى الحلف الذي جمع أعداءه جميعا في موقعة الخندق، فالرسول إذن لم يكن قاسيا حين اضطر إلى إقصاء اليهود عن المدينة، بل كان رحيمًا الرحمة كلها ، والرسول اضطر إلى اتخاذ هذا الاجراء اضطرارا لأنه كان في سبيله لتكوين دولة جديدة ، والثورات والدول الجديدة - في كل عصور التاريخ - لا يمكن أن تسمح ببقاء العناصر المناوئة الهدامة . والمؤلفة - ويشاركها نفر من المستشرقين - تحاول، في أكثر من موضوع، أن ترد الإسلام الى أصول قديمة ، بعضها يهودي أو مسيحي ، وبعضها وثني ، فهي على سبيل المثال - تقول في ص ٤٩ وما يليها : إن الحج بصورته

(١) ونص كلامها باللغة الانجليزية ،

In spite of his genius, Muhammed was not a systematic law giver, not even within the limited range of his original organization . The laws revealed in the Koran are decisions (ad hoc) made to fit specific cases . His social legislation is cut to the requirements of his own social environment for instance the regulations affecting family relations , marriage and inheritance) .

الاسلامية فيه كثير من الشعائر التي كانت تتبع في عهود الوثنية مثل الطواف ، وتقبيل الحجر الاسود ، وهذه محاولة مأكرة ، لأن أصحابها يريدون أن يثبتوا أن الاسلام لم يأت بجديد ، بل هو مجموعة من الاصول والقواعد والشعائر اخذت عن الأديان السابقة حتى الوثنية العربية القديمة التي قام الاسلام لمحاربتها والقضاء عليها .

والمؤلفة تستعمل عند كلامها عن الاسلام بعض المصطلحات المتصلة بالدين المسيحي والنظام الكهنوتي ، فهي مثلاً عند كلامها عن أثر الدين ورجال الدين في الحركات السياسية خلال العصور حتى وقتنا الحالي تضرب أمثلة كثيرة ، ومنها ان شيوخ الأزهر في القاهرة يهددون وينذرون بإصدار قرار الحرمان (Excommunication) ضد أي مسلم يعقد صلحاً مع إسرائيل ، فهي تقول في ص ٦٧ - ٦٨ :

(The Azhar Sheiks in Cairo who threaten to excommunicate any muslim who would make peace with Israel ... etc)

ونظام الحرمان نظام كهنوتي عرفه باباوات وكرادلة روما في العصور الوسطى ، ولم يكن يعرفه ولا يمكن أن يعرفه الإسلام ، وإذا كان لشيوخ الأزهر من رأي في إسرائيل ، فهو أنها دولة مصطنعة معتدية دخيلة لا وجود لها من الناحية القانونية ، وكل من يتعامل مع هذه الدولة من المسلمين يعتبر خائناً لوطنه ولدينه .

وبعد ، فهذه مأخذ لا يرضى عنها القارئ المسلم ، لأنها تتصل بعقيدته وإيمانه ، والكتاب رغم هذا له قيمته فقد بذلت صاحبة جهداً كبيراً في الدراسة والبحث وجمع المعلومات ، وحاولت حقيقة ان تفهم أصول الدين الاسلامي والأسس التي قام عليها المجتمع الاسلامي خلال العصور ، ونجحت في مواضع كثيرة في تفهم وجهة نظر المسلمين ومشاكلهم ، وإذا كانت قد خانها التوفيق عند عرض بعض النقاط التي أخذناها عليها فانما فعلت مرغمة ،

وتحت تأثير رواسب قوية استقرت في نفسها، وكانت أقوى من منهجها العلمي ،
ومن رغبتها في التزام الحيدة والعدالة عند إصدار أحكامها .

تلك الرواسب بعضها يرجع الى الأثر القوي للديانة اليهودية التي ولدت
عليها المؤلفة ، وفي جوها نشأت ، وبعضها يرجع الى الأثر الأقوى للثقافة
العربية التي تلقتها ، وللأساتذة الاوربيين الذين درست عليهم .

ونحن إذا كنا نحب ديننا ونعمل على دراسته وفهمه فإن من واجبنا أن
نقرأ هذا الكتاب وأشباهه ، فان فيه الى جانب هذه المآخذ خيرا كثيرا ،
ومن واجبنا أن نترجمه الى اللغة العربية ، وأن نناقش ما يستحق المناقشة
ونرد على ما يستحق الرد .

فهرست

٥	مقدمة
٩	محمد المصلح الناصر
١٥	الناحية الانسانية في حياة محمد
٢١	الفسطاط
٣٣	تكوين الشعب المصري الجديد
٤٨	نظام الوزارة في العصر الفاطمي
٥٣	مظاهرة النساء في القاهرة
٥٧	شاعر من البيت الأيوبي
٦٣	ابن عنين
٧٣	الjasوسية في حروب بني أيوب
٧٨	الاحتفال بوفاء النيل
٨٥	عاشوراء
٩٠	عيد الاضحى في التاريخ
٩٥	طريقة مسح الأراضي وتقدير الخراج
١٠١	الروك الناصري
١٠٦	الأساطيل المصرية
١٢٦	مصر وطريق الهند في القرنين السادس عشر والسابع عشر
١٣١	مصر وطريق الهند في القرن الثامن عشر
١٥٥	دكتور برثون والشيخان محمد عباد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي
١٩٥	الطبيب الخاص لمحمد علي بدأ حياته بائعاً للبطيخ
٢٠٦	بيومي افندي
٢١٢	إلزي لشتنشتاتر - الإسلام والعصر الحديث

٢٠٠٠/٢٢٥٢	رقم الإيداع
977-5250-76-5	التقييم الدولي

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

